

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 00975 5491

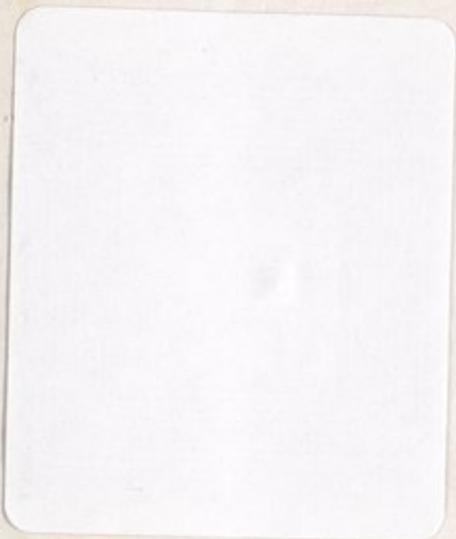




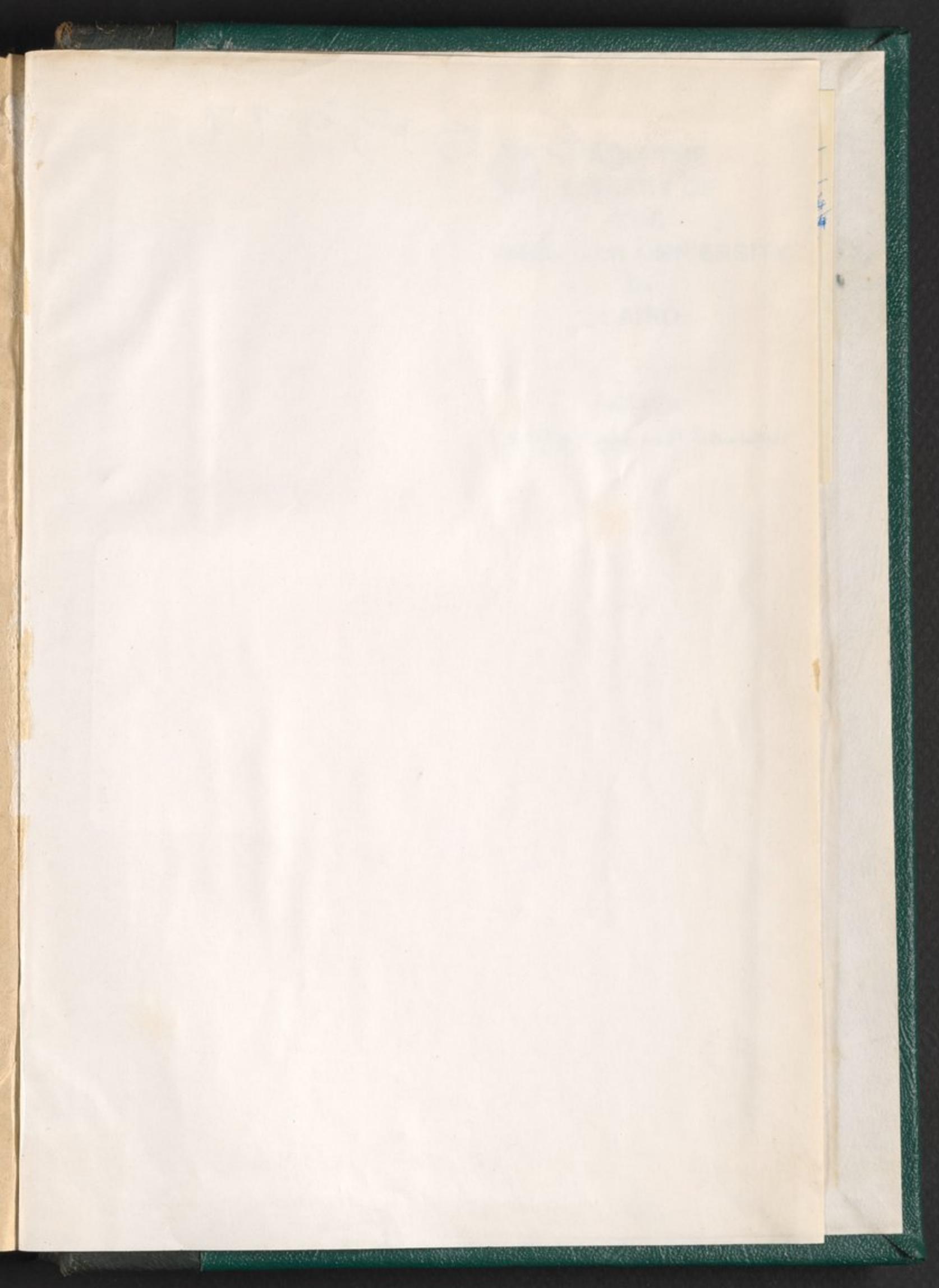
FROM THE
LIBRARY OF
THE
AMERICAN UNIVERSITY
IN
CAIRO

١٤
3
25
6
30
74
124

من مكتبة
الجامعة الامريكية بالقاهرة



05-B13977



مكتبة جامعة القاهرة

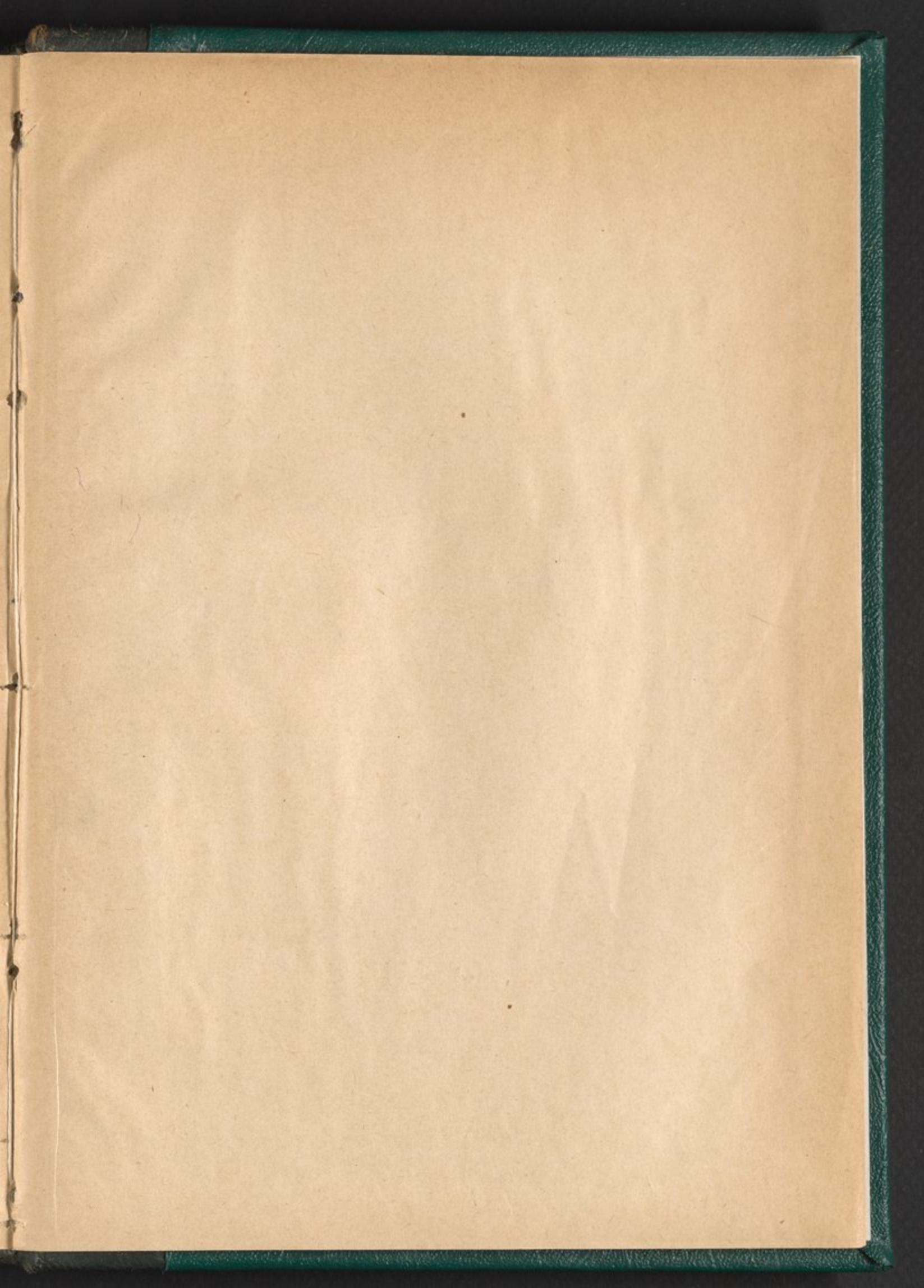


297-92
H 27 H

9, 9
22.9

الطبعة الأولى ١٩٥٣

31505



محتويات الكتاب

صفحة

- | | | |
|-----|---|-----------------------------|
| ٩ | من سره أن ينظر الى عتيق من النار
فلينظر الى ابى بكر | ١ - أبو بكر الصديق : |
| ٢٥ | اللهم اعز الإسلام بأحد هذين
الرجلين عمرو بن هشام وعمربن الخطاب | ٢ - عمر بن الخطاب : |
| ٤١ | لكل نبي رفيق ورفيق في الجنة عثمان | ٣ - عثمان بن عفان : |
| ٥٥ | انت أخي في الدنيا والآخرة | ٤ - علي بن أبي طالب : |
| ٧٤ | أصغر قائد في الإسلام | ٥ - أسامة بن زيد : |
| ٨٠ | « صهيب سابق الروم » | ٦ - صهيب بن سنان : |
| ٨٦ | « صبرا آل ياسر موعدهم الجنة » | ٧ - عمار بن ياسر : |
| ٩٣ | « سلمان منا أهل البيت » | ٨ - سلمان الفارسي : |
| ١٠٠ | « سيد الخزرج » | ٩ - سعد بن عبادة الأنصاري : |
| ١٠٧ | « سيد الأوس » | ١٠ - سعد بن معاذ الأنصاري : |
| ١١٤ | أول من رمى بسهم في سبيل الله | ١١ - سعد بن أبي وقاص : |
| ١٢١ | « سيف الله » | ١٢ - خالد بن الوليد : |
| ١٢٩ | « أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص » | ١٣ - عمرو بن العاص : |
| ١٣٩ | حوارى رسول الله ومن العشرة
المشهود لهم بالجنة | ١٤ - الزبير بن العوام : |
| ١٤٥ | « الفياض » | ١٥ - طلحة بن عبيد الله : |
| ١٥٠ | فارس يوم بدر وأول من قاتل على
فرس في سبيل الله | ١٦ - المقداد بن الأسود : |
| ١٥٥ | « إن الذي يحافظ على أزواجى من
بعدى هو الصادق البار » | ١٧ - عبد الرحمن بن عوف : |

- ١٦١ الامام الرباني وصاحب الرسول وخادمه
- ١٦٧ «رحم الله أبا ذر، يمشى وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده» .
- ١٧٤ مامن أحد أدرك الدنيا إلا مالت به ومال بها غير عبد الله بن عمر
- ١٨١ الإمام البحر عالم العصر
- ١٩٠ سيد شباب أهل الجنة وريحانة النبي وشيبهه
- ١٩٧ سبط الرسول وريحانته وسيد شباب أهل الجنة
- ٢٠٨ اللهم علم معاوية الكتاب والحساب وِقَه العذاب
- ٢١٦ كريم الجدات والأُمهات والخالات
- ٢٢٤ ماذا كرته حديثا الا زادني فيه ولا شعرا إلا زادني فيه
- ٢٣١ رحم الله الوليد وأين مثل الوليد؟
- ٢٣٨ قدمت مصر في إمرة مسلمة بن مخلد فتمنيت بها أمانى فأدركتها
- ٢٤٥ «يا طارق تقدم لشأنك» وهب طارق من نومه مستيقظا يبشري الرسول ولم يشك في النصر
- ٢٥٣ لست بخير من أحدكم ولكني أثقلكم حملا
- ٢٥٩-٢٦٦ صقر قریش
- ١٨ - عبد الله بن مسعود :
- ١٩ - أبو ذر الغفاري :
- ٢٠ - عبد الله بن عمر :
- ٢١ - عبد الله بن عباس :
- ٢٢ - الحسن بن علي :
- ٢٣ - الحسين بن علي :
- ٢٤ - معاوية بن أبي سفيان :
- ٢٥ - عبد الله بن الزبير .
- ٢٦ - عبد الملك بن مروان :
- ٢٧ - الوليد بن عبد الملك :
- ٢٨ - عبد العزيز بن مروان :
- ٢٩ - طارق بن زياد :
- ٣٠ - عمر بن عبد العزيز :
- ٣١ - عبد الرحمن الداخل :

مقدمة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

ليس أحب إلى النفس من إحياء ذكرى السلف الصالح، الذين وقفوا حياتهم على الجهاد، وأراقوا دماءهم الزكية فوق بطاح المشرق والمغرب، إعلاء لكلمة الإسلام، وإحياء لثرائه. فقد أنكروا ذواتهم، وباعوا أرواحهم رخيصة في سبيل الله، لم يلهمهم عرض الدنيا الزائل عن التماس الخلود في جنات النعيم والرضوان. وإن خير ما يستطيع الباحث لتحقيق هذه الغاية السامية، أن يعيد كتابة سير هذا الرعيل الأول من المجاهدين الأبرار، لا كما يكتبها رجال العلم الذين يحكمون منطق البحث ووسائله ومناهجه، أو كما يكتبها الرواة وكتاب الطبقات الذين يخلطون بين الحقيقة والخيال أو بين الرواية والأسطورة. إنما نكتب هذه السير لإبراز النواحي التي لا يعنى بها أهل التاريخ، ولا يهتمها كتاب السير والتراجم، حتى يبين الدور الذي قام به كل من هؤلاء القادة الأعلام في بناء صرح الإسلام، فنصبح سيرهم عظة وعبرة لمن يعتبر، ونبراساً يهتدى به الجيل الجديد الذي نعده للاضطلاع بالأمانة من بعدنا.

وكنت قد نشرت في مجلة لواء الإسلام سلسلة من التراجم في قترات؛ فأعدت النظر فيها، وغيرت منها ما غيرت، وأضفت إليها ما أضفت، وترجمت لمن لم أترجم لهم ممن يضمهم هذا السفر، لينخرج في صورة يرضى عنها جمهرة القراء من المسلمين. وقد دفعني إلى ذلك أيضاً، أن وزارة معارف حكومة الباكستان بكراتشي قد قررت ترجمة هذه السير إلى اللغة الأردية، لغة الباكستان والهند، لتوزع على طلاب المدارس والمعاهد، فأكون بذلك قد أسهمت بنصيب متواضع في التقريب بين نفوس إخواننا المسلمين في الشرق والغرب. وكنت أود أن تتصدر سيرة

الرسول الكريم هذه السلسلة ، لولا أن ترجمته — صلوات الله عليه — أجل من أن نحيط بها في صفحات .

ولا يفوتني — في هذا المقام — أن أتوجه بأجزل الشكر وأطيب الثناء إلى سعادة السيد فضل الرحمن وزير معارف الباكستان السابق ورئيس الجمعية التاريخية بكراتشي الآن . كما أسدى الشكر خالصاً لجمعية الدراسات التاريخية بكراتشي ، لاضطلاعها بمهمة ترجمة هذا الكتاب إلى اللغة الأردنية . كما أشكر تلميذى النابه الدكتور حسن أحمد محمود المدرس بكلية الآداب بجامعة القاهرة مساعدته القيمة التي كان لها أكبر الاثر في إبراز هذا الكتاب بصورته الحالية وإتمام فهرسه . كما أشكر تلميذى الأستاذ محمد عبدالرحيم غنيمه الحائز درجة الماجستير في الآداب من جامعة القاهرة ، على تفضله بالاسهام في عمل فهرس الكتاب .

والله أسأل أن يلهمنا التوفيق والسداد ، إنه سميع مجيب .

٤ سبتمبر سنة ١٩٥٣

حسن ابراهيم حسن

١ - أبو بكر الصديق

« من سره أت ينظر إلى عتيق من النار فلينظر إلى أبي بكر »

اختار الله سبحانه وتعالى رسوله الكريم إلى جواره ، بعد أن بلغ رسالته ، وأدى أمانته ، ورفع لواء الإسلام ، وأعلى شأن العرب والمسلمين ، وأنار لهم الطريق ، ورسم الخطط . وكان لهذه الحوادث الجسام التي امتلأت بها حياة الرسول ، وتخللت كفاحه لتبليغ رسالته ؛ - أثرها في نفوس الصحابة والتابعين ، ومن جاء بعدهم من المسلمين ؛ فترك للعرب والإسلام ، ثرائنا خالدا تمشل في هؤلاء الأعلام الذين ملأت أسماؤهم بطون الكتب ، فأصبحت سيرا تتعطر بذكرها المجالس ، ويتناقلها الخلف عن السلف .

من هؤلاء الأعلام رجل فذ ، كان من أخلص صحابة الرسول ، واتصف بصفات قل أن تجتمع في شخص : ذلكم هو ، عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو ابن كعب بن سعد بن تميم بن مرّة التيمي . كان يسمى في الجاهلية : عبد الكعبة ، وقيل : عبداللآت ، وقيل : عبد العزّي ، وسماه الرسول : عبدالله ، ولقب عتيقا ؛ لأنه كان لا يعيش لأمه ولد ، فاستقبلت به البيت وقالت : اللهم هذا عتيقك من الموت . كلقب : الصديق لأنه بادر إلى تصديق الرسول ، ولا سيما في صبيحة الإسراء . ولد أبو بكر بمكة بعد عام الفيل بعامين وأشهر ، وأمه أم الخير سلسمي بنت صخر بن عامر ، ابنة عم أبيه . وكانت تبدو عليه مخايل الذكاء منذ نعومة أظفاره ، وحباه الله جمال الخلقة وحسن الخلق ؛ فقد روى ابن حجر أنه كان أيضا الوجه

نحيفاً ، وكان طيب المعشر لطيف المجالسة ، حتى وثق به قومه وأحبوه ؛ لأنه كان يسعى إلى تأليف قلوبهم ، ولأنه لم يكن يشرب الخمر التي كانت فاشية بين العرب في الجاهلية . وقد جمع أبو بكر إلى جمال الخلق رجاحة العقل وسعة الاطلاع ؛ فكان عالماً بأنساب العرب وأخبارهم ، حتى قيل إنه كان أنسب قريش لقريش ، وأعلمهم بما كان فيها من خير أو شر .

كذلك اشتهر أبو بكر بالصدق والأمانة ، فوثقت به عشيرته ، وكانت تساق إليه الأشناق ، وهي الديات والمغارم التي يتحملها من يتقرب لذلك من العشيرة . اشتغل أبو بكر بالتجارة ، فكان يتجر في الثياب ، وراجت تجارته ونمت ثروته حتى بلغ رأس ماله أربعين ألف درهم . ولا عجب فقد كانت قوافل قريش تجوب البلاد طولاً وعرضاً ، حتى وصلت إلى غزة ويبيت المقدس ودمشق ، وعبرت البحر الأحمر . ولم يكن حب أبناء الأشراف في مكة للفروسية بأقل من حبهم للتجارة ، التي كانوا يمارسونها منذ نعومة أظفارهم ، فوصلوا إلى مستوى فكري لم يصل إليه أهل البدو وسكان الواحات .

شاءت الأقدار أن يتعرف أبو بكر بمحمد بن عبد الله ، قبل بعثته صلى الله عليه وسلم بعام واحد : فتألفا وتحاببا ، وتوطدت بينهما عرا صداقة كانت بعيدة الأثر في تاريخ العرب والإسلام . فلم يكذب ينقضى على هذه الصداقة سنة واحدة ، حتى بعث الله محمداً برسالة إلى هذا العالم ، يعلمه الحقيقة الخالدة ، وهي أنه ليس هناك إلا إله واحد ، يدبر ويراقب أعمال الإنسان ، ويعاقب ويجازي الطيبين والأشرار بعد الموت ، كل بمقدار عمله . كما دعاهم إلى نبذ عبادة الأصنام والتسليم لإرادة الله ، فاعتنق هذا الدين السهل أول الأمر ، الأفراد المتصلون بالرسول ، كزوجه خديجة ، وابن عمه علي بن أبي طالب . ولكن الأمر لم يقتصر على أقاربه ومواليه ، بل تعداهم إلى بعض رجالات قريش . وكان أبو بكر أسرع العرب إلى التصديق بدعوة الرسول وقبول الإسلام . فكان أول من أسلم من الرجال ؛ فسمى صديقاً لسبقه إلى الإسلام ؛ أو لأن الرسول بشره بأن الله أعتقه من النار . روى

أن الرسول كان هو وأصحابه بفناء الكعبة ، إذ جاء أبو بكر فقال الرسول : من سرّه أن ينظر إلى عتيق من النار فليُنظر إلى أبي بكر ، فغلب عليه اسم عتيق .
لم يلبث أن خف أبو بكر بعد إسلامه إلى الجهاد . فترك التجارة ليتفرغ إلى الدعوة الإسلامية مع رسول الله ، حتى أسلم بدعوته كثير من العرب الذين اعتز بهم الإسلام ، كعثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، وطلمحة بن عبيد الله . وكان يبذل ماله في سبيل الله ، يفترق به الأسير والعاني ، ويعتق منه المسلمين ويعولهم . فقد اشتد إيداء قريش لابلال مؤذن رسول الله ، حتى كان يقاسى أشد ألوان العذاب ، فكان أمية بن خلف الجُمحى من مشركي قريش ، يلقيه في الرمضاء على وجهه وظهره إذا حميت الشمس وقت الظهيرة ، ثم يأمر بالصخرة الكبيرة فتُلْقَى على صدره ويقول له : لانزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى .

وكان ورقة بن نوفل يمر به وهو يقول : أحدُ أحدُ ! فيقول ورقة : أحدُ أحدُ والله يا بلال ! ولم يزل على هذا العذاب حتى اشتراه أبو بكر وأعتقه . وكان عمر قبل إسلامه يمعن في تعذيب الجبائنة جارية بني مؤمن ثم يدعها ويقول : إني لم أدعك إلا سامة . ولم تزل في هذا العذاب حتى اشتراها أبو بكر وأعتقها . اشتد العسر بالمسلمين يوماً ، فأمر الرسول أصحابه أن يتصدقوا بشيء من مالهم ، فمنهم من تصدق بنصف ماله ، ومنهم من تصدق بثلثه ، ومنهم من تصدق ببعض ماله .

روى عن عمر رضى الله عنه قال : أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نتصدق ، ووافق ذلك ما لا عندي فقلت : اليوم أسبق أبا بكر إن سبته يوماً . قال : جئت بنصف مالى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أبقيت لأهلك ؟ فقلت مثله . وأتى أبو بكر بكل ما عنده ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أبقيت لأهلك ؟ فقال أبقيت لهم الله ورسوله . قلت : لا أسبقه أبداً (١)

ومن الحوادث الجسام التي امتلأت بها حياة الرسول وتخللت كفاحه لتبليغ رسالته ، حادث عظيم فذ ، هو هجرته إلى المدينة ، والتجاؤه إلى من آمن به من أهلها ، ليؤوه وأصحابه ، وليحموا دعوته مما نصبت لها قريش . ذلك أنه لما بلغهم نبأ تحالف الرسول مع أهل يثرب ، تأمروا على اغتياله ، واجتمعوا في دار الندوة للتشاور في هذا الأمر الخطير ، فأشار بعضهم بحبسه ، وبعضهم بنفيه ، وبعضهم بقتله ، وانتهى بهم الرأي إلى أن يؤخذ من كل قبيلة قتي ج.د.د. ، وأن يُعطى كل منهم سيفاً صارماً ، فيضربوه ضربة رجل واحد ؛ وبذلك يتفرق دمه في القبائل ، فلا يستطيع بنو عبد مناف أن يحاربوا العرب جميعاً . فنزل على الرسول قوله تعالى في سورة الأنفال (وإذ يمتكركم بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمسكرون ويمسكركم الله والله خير الماكرين) .

ولما أحرق الخطر بالرسول لم يفكر إلا في صاحبه أبي بكر ، فسعى إلى داره ، يشاوره في هذا الأمر ، ويطلعه على ما أخبره الله به من تأمر قريش به ، وقال له : إن الله قد أمرني بالهجرة . فطلب منه أبو بكر أن يصحبه ، وألح في ذلك ، وخرج الرسول ورفيقه من باب صغير خلف دار أبي بكر ، ثم عمداً إلى غار بجبل ثور بأسفل مكة فدخلاه . « وأمر أبو بكر ابنه عبد الله أن يتسمع لهما ما يقول الناس فيهما نهاره ، ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون في ذلك اليوم من الخبر ، وأمر عامر ابن فهيرة مولاه أن يرعى غنمه نهاره ، ثم يريحها عليهما ، يأتيهما إذا أمسى في الغار ، وكانت أسماء بنت أبي بكر تأتيهما من الطعام — إذا أمسيت — بما يصلحهما . » وقد شققت أسماء نطقها لتشدد به الطعام حيث لم تجد ما تشد به ، فسميت لهذا ذات النطاقين .

وخشى الرسول وأبو بكر أن يلحقهما أذى قريش ، فتدراعا بالصبر . وإلى ذلك يشير القرآن الكريم في سورة التوبة : (إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين

كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم .

عرف الرسول لأبي بكر ما بذل في سبيل الله والمحافظة على حياة رسوله من تضحيات جسام ، فعبّر عن إعجابه بصدق جهاده في هذه العبارة التي قالها وهما في الغار : « ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟ »

روى عن أبي هريرة أن الرسول قال : ما لأحد عندنا يد إلا وقد كافأناه ما خلا أبا بكر ؛ فإن له عندنا يدا يكافئه الله عز وجل بها يوم القيامة . وما نفعني مال أحد قط ما نفعني مال أبي بكر ، ولو كنت متخذاً خليلاً لا اتخذت أبا بكر خليلاً ، وإن صاحبكم خليل الله .

ولما استقر الرسول في المدينة المنورة ، كان أبو بكر ساعده الأيمن الذي لا ينفك عنه كظله ، فخصه بمزايا لم يخص بها أحدا سواه . يقول ابن خلدون : « كان يفاوض أصحابه ويشاورهم في مهماته العامة والخاصة ، ويخص مع ذلك أبا بكر بخصوصيات أخرى ، فكان العرب الذين عرفوا الدول وأحوالها - في كسرى وقيصر والنجاشي - يسمون أبا بكر وزيره . » ويقول ابن حجر : « إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أراد أن يرسل معاذاً إلى اليمن ، استشار ، فقال كل برأيه ، فقال : إن الله يكره فوق سمائه أن يخطأ أبو بكر . »

من ذلك نرى كيف أن أبا بكر قاسم الرسول مر العيش وحلوه ، وآلام الحياة وما فيها من نصر وظفر ، وبقي معه كظله لا ينفك عنه ، حتى روى أن الرسول قال في آخر خطبة له : « إن عبداً من عباد الله خيره بين الدنيا وبين ما عنده ، فاختار ما عند الله . » ففهمها أبو بكر ، وعلم أن رسول الله إنما يريد نفسه ، وأن منيته قد حانت ، فبكى وقال : بل نفديك بأنفسنا وأبنائنا ، فقال : على رسنك يا أبا بكر ! انظروا هذه الأبواب والشوارع الالفاظة في المسجد ، فسدوها إلا ما كان من بيت أبي بكر ، فإنني لا أعلم أحداً كان أفضل عندي في الصحبة يدا منه . وروى عن عمرو بن العاص أنه قال : يا رسول الله ! أي الناس أحب إليك ؟ قال : عائشة ؟ قلت : من الرجال ؟ قال : أبوها .

لم يوص الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام لأحد من أصحابه ، بل ترك الخلافة شورى بينهم . فلما انتقل إلى جوار ربه ، اجتمعت الأنصار في سقيفة بني ساعدة في المدينة ، وأرادوا أن يبايعوا سعد بن عُبادة سيد الخزرج . فحضر إليهم نفر من المهاجرين ، وكاد يقوم الخلاف بين هؤلاء وأولئك ، لولا أن قام بينهم أبو بكر خطيباً ، وأدلى لهم بالحجة على أن هذا الأمر لقريش ، وحذر الأنصار إن وليته الأوس أن تنفس عليها الخزرج ، وإن وليته الخزرج أن تنفس عليها الأوس . وذكر الأنصار ما كان بينهم في الجاهلية ، وخشوا أن تعود العداوة بينهم سيرتها الأولى ، وصادف كلام أبي بكر هوى في نفوسهم ، وعرض عليهم مبايعة عمر بن الخطاب أو أبي عبيدة بن الجراح . ولما رأى عمر أن الأصوات قد ارتفعت واللغط قد كثر ، أشفق من الاختلاف ، وخشى أن يضيع الأثر الذي أحدثه كلام أبي بكر ، الذي عرف له المسلمون سنه وسبقه إلى الإسلام وأثره في نشر الدين ، فقال له عمر : « ألم يأمر النبي بأن تصلى أنت يا أبا بكر بالمسلمين ؟ فأنت خليفته ، ونحن نبايعك فنبايح خير من أحب رسول الله مناجيعاً ، ثم قال لأبي بكر : ابسط يدك أبايعك ، فبسط يده ، فبايعه ، وبايعه المهاجرون والأنصار . وتسمى هذه البيعة : البيعة الخاصة ، لأنه لم يبايعها إلا نفر قليل من المسلمين ، هم الذين حضروا السقيفة . فلما كان الغد ، جلس أبو بكر على المنبر في المسجد ، وبايعه الناس البيعة الكبرى أو العامة . وبذلك جوزى صاحب النفس السمحة ، والحلق القويم ، والسيرة العطرة ، والعقل الراجح ، والإيمان الصادق ، وإنكار الذات ، وأصبح أبو بكر رضى الله عنه خليفة الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام .

يتجلى ذلك من هذه الخطبة القصيرة الجامعة التي خطبها أبو بكر في مسجد الرسول بعد بيعته ، وهي مع إيجازها ، تعد بحق دستوراً للحكم ، واستمسكاً بسنة الرسول ، والجهاد في الدين والتأليف بين قلوب المسلمين . قال أبو بكر : « أيها الناس ! إنى قد وُلِّيتُ عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنتم فأعينوني ، وإن أسأت فقوموني . الصدق أمانة ، والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ

الحق له إن شاء الله ، والقوى فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله . لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله ، إلا ضربهم الله بالذل ، ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء . أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت الله ورسوله ، فلا طاعة لي عليكم ، قوموا إلى صلاتكم يحكم الله !

كان أبو بكر رءوفاً رحيماً ، حسن السياسة بعيد النظر ، حريصاً على وحدة المسلمين وسلامة كياناتهم ، حتى لا يتعرضوا للفتنة والخلاف . يظهر ذلك من موقفه الرائع من علي بن أبي طالب ، حين أشيع أنه نكص على بيعة أبي بكر ، وقعد في داره ، وجنح إلى العزلة ، فظن الناس به الظنون ، وذهبوا في تفسير موقفه مذاهب شتى ، فشاور أبو بكر ، عمر بن الخطاب في الأمر ، وبعث في طلب أبي عبيدة بن الجراح ، لسنه وأمانته ومكانته من المسلمين ، وهو الذي قال فيه الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام : « لكل أمة أمين ، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة » ، وطلب إليه أن يمضي إلى علي ويقول له على لسانه :

ما هذا الذي تسوّل لك نفسك ويَدْوَسِي (١) به قلبك ، ويلتوي عليه رأيك ، ويتخاوص (٢) به طرفك ، ويسرى به ظعنك ، ويترادف معه نفسك ، وتكثر عنده صعداؤك ، ولا يفيض به لسانك ؟ أعجمته بعد إفصاح ، أتليس بعد إفصاح ؟ أدين غير دين الله ؟ أخلق غير خلق القرآن ؟ أهدي غير هدى النبي صلى الله عليه وسلم ؟ أمثلي تمشى إليه الضراء وتدب له الخمر (٣) ؟ أو مثلك ينقبض عليه الفضاء ويكسف (٤) في عينه القمر ؟ ماهذه القعقة (٥)

(١) من الدوى (بفتح الواو) وهو داء باطن في الصدر .

(٢) التخاوص غرض البصر مع تحديق كمن يتوم سهماً .

(٣) يقال للرجل إذا ختل صاحبه ومكر به : هو يدب له الضراء ويمشى له الخمر ، ويقال : لا أمشي له الضراء ولا الخمر ، أى أجاهره ولا أخاته . والضراء الاستخفاء . ويقال : ماورك من شيء وأدرأت به فهو خمر .

(٤) نقل عن ثعلب أن الأجود أن يقال : كسفت الشمس وخسف القمر .

انظر اللسان والمصباح مادة «خسف» .

(٥) قال في اللسان مادة تمنع : وفي المثل فلان لا يقمع له بالشان ، أي لا يندع ولا يروع . وأصله من تحريك الجلد اليابس للبعير ليفزع .

بالتَّسْنان؟ وما هذه الوَعْوَعَة باللسان؟ إنك والله جِدُّ عارفٍ باستجابتنا إلى الله عز وجلّ ولرسوله صلى الله عليه وسلم، وبخروجنا عن أوطاننا وأمّوالنا وأولادنا وأحبّتنا لله عز وجلّ ولرسوله ونُصرة دينه، في زمان أنت فيه في كِنِّ الصِّبَا، وخدر الغرارة، وعُتْفوان الشَّيبية، غافلاً عما يشيب ويُرِيب، لا تَعى ما يُراد ويُشاد، ولا تحصّل ما يُساق ويُقاد، سوى ما أنت جار عليه إلى غايتك التي إليها عدل بك، وعندها حُطَّ رَحْمُك، غير مجبول القدر، ولا مجحود الفضل. ونحن في أثناء ذلك نُعاني أحوالاً تُزيل الرواسي، ونقاسي أهوالاً تُشيب النواصي؛ خائضين غمارها، راكبين تينارها، تتجرّع صابها ونُشرج (١) عيابها، ونحكم أساسها... والله لقد سألتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذا الأمر فقال لي: يا أبا بكر! هو لمن يرغب فيه، لا لمن يجاحش (يدافع) عليه، ومن يتضاءل عنه لا لمن ينتفج (٢) إليه، هو لمن يقال: هو لك لا لمن يقول هو لي. واتمّد شاورني رسول الله صلى الله عليه وسلم في القهر،؛ فذكر فتياناً من قريش، فقلت: أين أنت من علي؟ فقال صلى الله عليه وسلم: إني لأكره لفاطمة ميعة شبابه، وحادثة سنه، فقلت له: متى كنتفته يدك ورعته عينك، حفّت بهما البركة، وأسبغت عليها النعمة، مع كلام كثير خاطبته به رغبة فيك، وما كنتُ عرفتُ منك في ذلك حوجاً ولا لوجاً، فقلتُ ما قلتُ وأنا أرى مكان غيرك، وأجد راحة سواك، وكنتُ إذ ذاك خيراً لك منك الآن لي؛ ولئن كان عرض بك رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الأمر فلم يكن مُعروضاً عن غيرك، وإن كان قال فيك، فما سكت عن سواك... وبعد، فهؤلاء المهاجرون والأنصار عندك ومعك في بقعة واحدة، ودار جامعة؛ إن استقالوني لك، وأشاروا عندي بك، فأنا واضع يدي في يدك، وصائر إلى رأيهم فيك، وإن تكن الأخرى فادخل في صالح ما دخل فيه المسلمون، وكن

(١) أشرج العيبة وشرحها بدون همز: شد عراها.

(٢) الانتفاج: الارتفاع، أو هو مستعار هنا من تولم: انتفجت الارنب إذا وثبت.

العون على مصالحهم ، والفتاح لمغالقتهم (١) ، والمرشد لضالتهم ، والرادع لغوايتهم ، فقد أمر الله تعالى بالتعاون على البر والتقوى ، والتناصر على الحق . ودعنا نقض هذه الحياة بصدور بريئة من الغيل : سليمة من الضغائن والحقد ، ونلق الله تعالى بقلوب سليمة من الضغن ؛ وبعد ، فالناس ثمانية (٢) فارق بهم ، واحسن عليهم ، ولن لهم ، ولا تشق نفسك بنا خاصة منهم ، واترك ناجم الشر حصيداً وطائر الشر واقعاً ، وباب الفتنة مغلقاً ، فلا قال ولا قيل ، ولا لوم ولا تعنيف ، والله على ما نقوله شهيد ، وبما نحن عليه بصير (٣)

وهنا تجلى بعد نظر أبي بكر حين أثر أن يتصل بعلي مباشرة ، وأن يختار خير رسول يسعى بينهما إلى الخير . ولم يصدق كلام الوشاة ولا ماتروجه الإشاعات من أباطيل ، تنال من كيان الوحدة الإسلامية وتفرق كلمة المسلمين . وما كاد أبو عبيدة يؤدي رسالته خير الأداء ، حتى تجلى خلق علي - كرم الله وجهه - الرضى ، ونفسه السمحة ، وإشاره مصلحة المسلمين ، فتبين أنه برىء مما رمى به ، وأنه لم يتخلف عن أبي بكر عامداً ، وإنما تخلف لأسباب تمت إلى حزنه على وفاة الرسول ، وخلوه إلى نفسه حتى يفيق من هول مارزىء من فقد وليه ، وحميمه وصهره فقال : « والله ما كان قعودى فى كسر هذا البيت قصدًا للخلاف ، ولا إنكاراً للمعروف ، ولا زراية على مسلم ، بل لما وقعدنى (٤) به رسول الله صلى الله عليه من فراقه ، وأودعنى من الحزن لفقده ، وذلك أنى لم أشهد بعده مشهداً إلا جدد على حزننا ، وذكرنى شجنا . وإن الشوق إلى اللحاق به كاف عن الطمع فى غيره... وإنى غادى إلى جماعتكم ، مبيع لصاحبكم ، صابر على ما ساءنى وسركم ، ليقضى الله

(١) المغالقة : جمع مغلق بكسر الميم ، والمغلق : ما يعلق به الباب كالمغلاق ، كما فى شرح القاموس .

مادة « غلق » نقلاً عن الراغب .

(٢) الثمانية بضم الثاء : واحدة الثمام ، وهو نبت ضعيف له خوص . وربما حصى به وسد

به خصاص البيوت ، ويشبهه . به فى الضعف

(٣) النويرى : نهاية الأرب ج ٧ ص ٢١٨ — ٢٢٣ .

(٤) وقده : تركه عليلاً .

أمر آكان مفعولا ، (١)

اشتهر أبو بكر في جميع مواقفه بالشجاعة والثبات في الخطوب. ولا غرو فقد نهض بإتمام نشر الدعوة وتوحيد كلمة العرب. يتجلى ذلك من موقف أبي بكر الخالد، حين رأى الخلاف يدب بين العرب منذ انتقل الرسول إلى جوار ربه، فلا يخضع أكثر القبائل العربية لسلطانه، وترتد عن الإسلام، ويمتنع بعضها عن أداء الزكاة، بل إن بعض العرب يدعون النبوة. نعم! لقد شك فريق من العرب في أمر هذا الدين الذي خلفه الرسول، واعتقد غيرهم أن قریشاً أو غيرها إذا وليت هذا الأمر سوف تحيله ملكاً عضوداً، وخشوا أن من يخلف الرسول قد يحكمهم هواه وأهله وعشيرته في الناس ومصالحهم، كما خشوا أن يؤدي هذا الأمر إلى إعلاء شأن القبيلة التي ينتمي إليها الخليفة، ويغض من شأن غيرها من القبائل، فيميل ميزان العدل بين الناس. وقد رأى أبو بكر التمرد على الحكومة القرشية ينتشر بين القبائل، حتى كاد يتزعزع مركز الإسلام، وانكمش إلى مكة والمدينة والطائف وبنى عبد القيس.

بادر أبو بكر إلى تسيير الجيوش إلى المرتدين والمتنبيين ومانعي الزكاة، وعقد اللواء لقتالهم على أحد عشر قائداً في وقت واحد، وأرسل إلى جميع المرتدين كتاباً يدعوهم فيه للرجوع إلى حظيرة الدين، ويرد الشبهة التي نشأت عن موت الرسول، بأنه بشر يموت كما يموت كل إنسان، ثم هددهم بالقتل إذا لم يرجعوا. وبفضل شجاعة أبي بكر وما عرف عنه من حزم وغيره على الدين، كانت الغلبة للجيوش الإسلامية، وعلت كلمة الإسلام من جديد، ثم جعل أبو بكر من المسلمين جنداً، لبث الدعوة والجهاد في سبيل الله في خارج الجزيرة العربية، حتى أدب لهم من دولتي الفرس والروم العظيمين، وفتحوا ما فتحوا من بلادهم.

شرع الخليفة الرشيد الأول، أبو بكر الصديق، للمسلمين آداب الحرب، فأوصاهم بالضعفاء خيراً، وحثهم على أن يؤمنوا الناس على أموالهم وأرواحهم،

(١) النويري: نهاية الأرب ج ٧ ص ٢٢٩.

ولا يعرضوا الشعائرهم الدينية ، فقال لأسامة بن زيد حين سيره لغزو بلاد الشام :
لا تخونوا ولا تغدروا ، ولا تغلوا ولا تملوا ، ولا تقتلوا طفلا ولا شيخا كبيرا
ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلا وتحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مشمرة ، ولا تذبخوا
شاة ولا بقرة ولا بعيرا . وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع ،
فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له ، وسوف تقدمون على قوم قد فحصوا أوساط
رءوسهم وتركوا حولها مثل العصائب ، فأخفقوهم بالسيف خفقاً ، ثم اندفعوا
باسم الله .

كان أبو بكر لينا رحيما في مواضع اللين والرحمة ، قاسيا شديداً حيث تحسن
الشدّة وتصلح القسوة ، فقد روى أنه كان بين عائشة والنبي كلام ، فخيرها النبي أن
تحكم يديها من تشاء ، وذكر لها بعض الأسماء ، ومن سماهم «أبو عبيدة بن الجراح» ،
فقالت عائشة : «إنه رجل هين لئين ، هو اه معك وميله إليك ، فهو لا شك يقضى
لك» ، فقال الرسول : «أترضين أبا بكر حكماً بيننا؟» فرضيت ، وقالت : نعم ! فلما
قدم أبوها ، قال الرسول : قصي على مسامع ابن أبي قحافة قصتنا ، فتمنعت وقالت :
بل اقصص أنت ! فأخذ الرسول يسرد ما جرى بينهما من حديث ، وأفلتت كلمة من
أم المؤمنين عائشة لم تكن تقصدها ، وقالت : اقصد (أى اختصر في الكلام
ولا تزدد) ؛ فثارت نائرة أبي بكر ، ولطمها غاضبا ، وانتهرها ، وقال : يا بنت
أم رومان ! تأمرين الرسول بالقصد في الكلام ؟ ومن أبلغ من رسول الله
قصد حتى تجرئين على مقامه بمثل هذا ؟ وسال الدم من أنف عائشة من شدة اللطمة ،
والرسول عليه السلام يحول بينه وبينها ملطفا من حدة الموقف بقوله : ما لهذا
قصدنا ! ولم يزل بأبي بكر حتى انصرف بعد أن رضى رسول الله الذي عاد إلى
عائشة ، يعتب عليها ويداعبها بقوله : أرأيت كيف أنقذتك من أهلك ؟
فهذه قسوة الأب الرحيم على ابنته ، يوطئ لها في بيت زوجها مقاماً ، ويمهد
لها عيشاً سعيداً أساسه هناة الزوجة برضا الزوج .
وهذا مثل آخر من مشل الرحمة والعاطفة في موضع الحق والنصفة ، دون

أن يكون للصدقة والعاطفة شأن في حكمه وقضائه ؛ فقد روى أن عمر بن الخطاب لما أخذ ابنه عاصما من زوجته المطلقة ، اختصما إلى أبي بكر ليقضى بينهما في احتضان الولد ، فقضى أبو بكر بحضانة الأم للولد مخاطبا عمر : « ريجها وشمها ولطفها خير له منك » هكذا قضى أبو بكر بالحق دون أن يكثر بمكانة عمر ، وهو من هو عند أبي بكر مكانة وإعزازا ، ولكن شفقة أبي بكر جعلته يضع الرحمة في خير مكان ، دون مساس بالعدالة أو جور على الحق .

كانت زلة اللسان مها صغرت تؤلمه ألما يتملبل منه ضميره ، فلا يستريح من عذابه حتى يقتص من نفسه .

فقد أخرج أحمد بسند حسن عن ربيعة الأسلمي رضي الله عنه قال : جرى بيني وبين أبي بكر كلام ، فقال لي كلمة كرهتها وندم ، فقال : يا ربيعة ! رد علي مثلها حتى يكون قصاصا ! قلت : لا أفعل ! قال : لتقولن أو لأستعدين عليك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : ما أنا بفاعل . فانطلق أبو بكر ، وجاء أناس من أسلمة ، فقالوا لي : رحم الله أبا بكر ! في أي شيء يستعدى عليك وهو الذي قال عليك ما قال ؟ فقلت : أتدرون من هذا أبو بكر الصديق ؟ هذا ثاني اثنين ، وهذا ذو شيبة المسلمين إياكم ، لا يلتفت فيراكم تنصرونني عليه ، فيأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فيغضب لغضبه ، فيغضب الله لغضبهما فيهلك ربيعة . قال فتبعت أبا بكر وحدي حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحدثه الحديث كما كان ، فرفع الرسول رأسه ثم قال : يا ربيعة ! مالك والصديق ؟ فقلت : يا رسول الله ! كان كذا وكذا ، فقال لي كلمة كرهتها . فقال لي : قل كما قلت حتى يكون قصاصا ، فأبيت ، فقال رسول الله : أجل ، لا ترد عليه ولكن قل : قد غفر الله لك يا أبا بكر .

كان أبو بكر يؤدب الأمراء وينهاهم عن المثلة في الناس : ذكر السيوطي أن المهاجر بن أبي أمية كان أميرا على اليمامة ، فرفع إليه امرأتان مغنيتان ، غنت إحداهما بشتم النبي صلى الله عليه وسلم ، فقطع يدها وقطع ثديها ، وغنت الأخرى بهجاء المسلمين ، ففعل بها مثل ذلك ، فكتب إليه أبو بكر رضي الله

عنه : بلغني الذي فعلتَ بالمرأة التي تغنت بشتم النبي صلى الله عليه وسلم ، فلولا ما سبقته فيهِ لأمرتُك بقتلها، لأن حدّ الأنبياء ليس يشبه الحدود، فمن تعاطى ذلك من المسلمين فهو مرتد ، أو معاهد فهو محارب غادر. وأما التي تغنت بهجاء المسلمين؛ فإن كانت ممن يدعى الإسلام ، فأدب وتعزير دون المثلة، وإن كانت ذميمة، فلعمري لما صفحتَ عنه من الشرك أعظم . ولو كنتُ تقدمتُ إليك في مثل هذا لبلغتُ مكروها . فاقبل الدعوة، وإياك والمثلة في الناس، فإنها مأثم ومنفرة إلا في قصاص . كان أبو بكر كريم اليد سخيا، حتى لقد أنفق ثروته في سبيل الله ، قالت عائشة: إنه مات وما ترك درهما ولا دينارا ، فقد أنفق ثروته في سبيل الله ، وأعتق سبعة من المسلمين ، كان القرشيون يعذبونهم ليرتدوا إلى الوثنية، ومن هؤلاء بلال ، وعامر ابن فهيرة ، وجارية بنى المؤمل. وكان رضى الله عنه معروفا بين الصحابة بالعلم والفقہ في الدين والفصاحة .

ذكر النووي عن علي بن أبي طالب أنه قال : « قدّم رسول الله أبا بكر يصلي بالناس ، وأنا حاضر غير غائب ، وصحيح غير مريض . ولو شاء أن يقدمني لقدمني ، فرضينا لدينانا من رضى الله ورسوله عليه السلام لديننا . »

وإلى أبي بكر رضى الله عنه يرجع الفضل في جمع القرآن الكريم الذي نزل مُنَجِّمًا (١) في بضع وعشرين سنة . وكان بعض الصحابة رضوان الله عليهم يكتبون ما ينزل من الآيات من تلقاء أنفسهم ، أو بأمر الرسول صلى الله عليه وسلم على سعف النخل والرقاع وقطع الأديم وعظام ألواح الشاة والإبل وأضلاعها . فلما انتقل الرسول إلى جوار ربه، وقامت حروب الردة التي قتل فيها أكثر القراء من الصحابة ، ولا سيما في يوم اليمامة حيث قتل أكثر من سبعين من هؤلاء القراء (٢) ، شق هذا الأمر على عمر بن الخطاب، وخشى أن يضيع القرآن ، فقال لأبي بكر : إن القتل قد كثير واستحسّر بقراء القرآن يوم اليمامة، وإني

(١) يقال نجم المال تنجيمًا إذا أداه نجوما أي على أفساط .

(٢) قيل إنه قتل مثل هذا العدد في غزوة بدر معونة .

أخشى أن يستحر القتل بالقراء فيذهب من القرآن كثير، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن . فلم ير أبو بكر بدا من تلبية نداء مستشاره وساعده الأيمن عمر، أبتغاء مرضاة الله وحرصا على كتاب الله أن تذهب بسوره يد الضياع، فأمر زيد ابن ثابت فجمعه من الرقاع والعسب وصدور الرجال، وقد ضم أبو بكر إلى زيد سالم مولى أبي حذيفة — وكان يكتب الوحي للرسول — ليعاونه في جمع القرآن، على أن يقوم زيد بتدوينه .

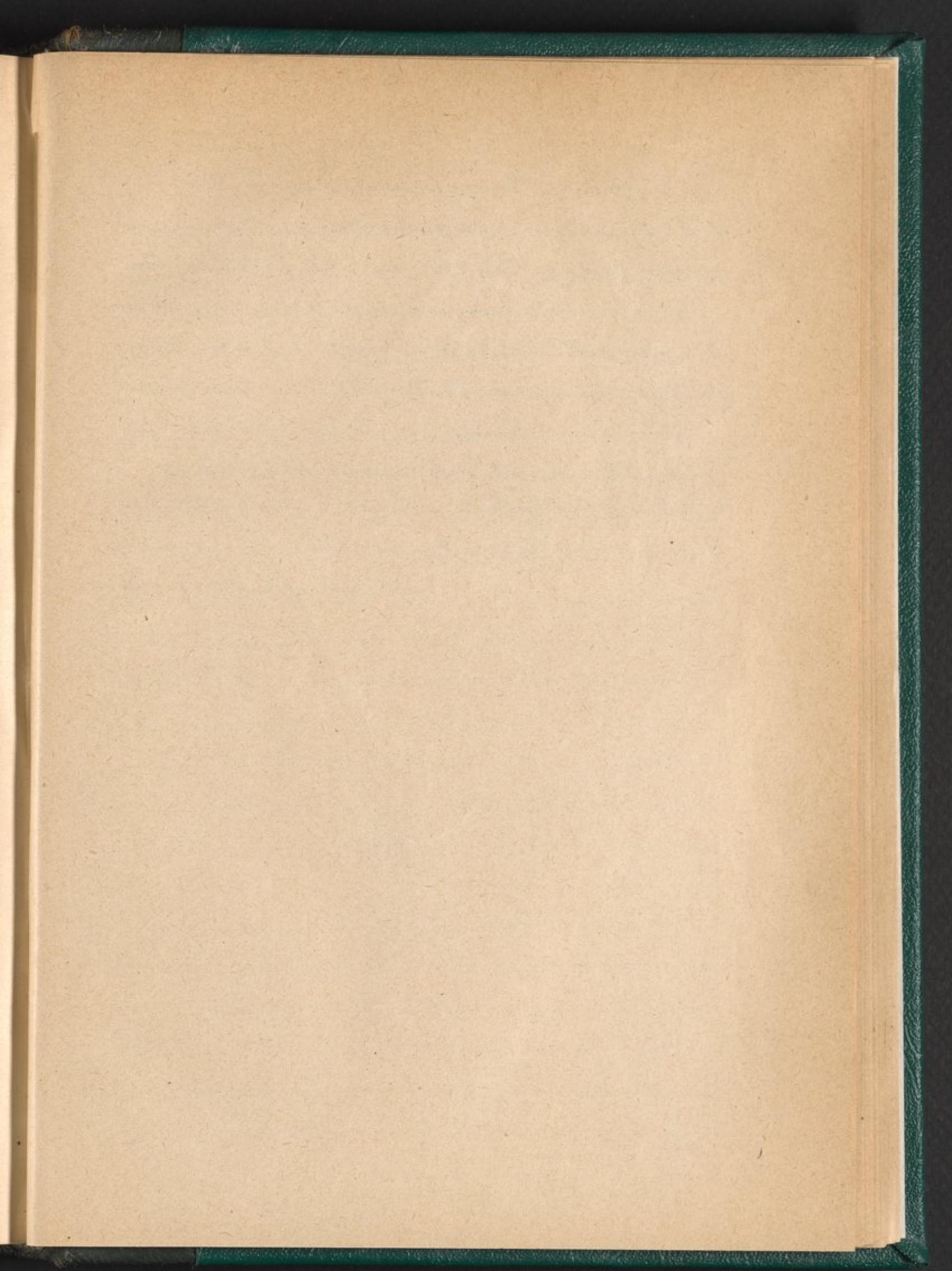
وقال أبو بكر لعمر وزيد: اقعدا على باب المسجد، فمن جاءكما بشاهدين على كتاب الله، فاكتباه. وشمر زيد عن ساعد الجد في جمع القرآن على هذا النحو، حتى وجد الآيتين الأخيرتين من سورة براءة (التوبة) مع أبي خزيمة بن ثابت، ولم يجدهما مع غيره، وهما: (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالؤمنين رؤوف رحيم فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم). وقد حفظت هذه الصحف عند أبي بكر، ثم عند عمر حتى مات، فحفظت عند ابنته حفصة بنت عمر حتى ولى عثمان الخلافة. وقد جمع القرآن في آخر سنة من حياة النبي صلى الله عليه وسلم. ولكن لم يضم بعضه إلى بعض، بل إن النبي علم بعض الصحابة ترتيب آياته، والناسخ منها والمنسوخ. وجماع القرآن على عهد النبي: علي بن أبي طالب، وسعد بن عبيد بن النعمان، وأبو الدرداء عويمر بن زيد، ومعاذ بن جبل بن أوس، وأبو زيد ثابت بن زيد، وأبي بن كعب بن زيد.

تزوج أبو بكر في الجاهلية: فتيلة بنت عبد العزى بن عبد بن أسعد بن جابر بن مالك بن لؤي، فولدت له ابنه عبدالله، وابنته أسماء ذات النطاقين، أم عبدالله بن الزبير. ثم تزوج أم رومان بنت عامر بن عميرة بن ذهل بن دهان ابن الحارث بن كنانة، فأنجب منها عبد الرحمن، وعائشة أم المؤمنين. أما في الإسلام فقد تزوج أسماء بنت عميس، فولدت له محمد بن أبي بكر، وكان محمد ربيبا في بيت علي الذي تزوج أمه بعد وفاة أبي بكر. وقد تزوج محمد والحسين بن علي ابنتي

يزدجرد الثالث آخر ملوك آل ساسان من الفرس . ولما آلت الخلافة إلى عليّ، وولاه مصر، فلما فتحها عمرو بن العاص في خلافة معاوية بن أبي سفيان، أحل الهزيمة بمحمد، وقتله، ووضع جثته في جيفة حمار . كذلك تزوج أبو بكر حبيبة بنت خارجة بن زيد بن أبي زهير، فولدت له بعد وفاته أم كلثوم .

لم تطل خلافة أبي بكر، فوافاه أجله المحتوم في السنة الثالثة عشرة للهجرة، بعد سنتين من خلافته . وقد ترك في تاريخ الإسلام صفحة مجيدة خالدة: دخل الإسلام موسرا، فأنفق ماله في سبيل الله، ومات فقيرا، وكانت حياته عبرة وعظة .

وفي عهد أبي بكر القصير، توطدت أركان الإسلام، وأصبح لا يخشى عليه من ضعاف القلوب والعقائد . كما تم فتح كثير من بلاد الشام والعراق قبل أن يلحق بربه راضيا مرضيا . وكان في الثالثة والستين من عمره، وودفن إلى جوار الرسول صلى الله عليه وسلم، فكان رفيقه في الدنيا والآخرة .



٢ - عمر بن الخطاب

« اللهم أعز الإسلام بأحد هذين الرجلين »
(عمرو بن هشام وعمر بن الخطاب)

من أعلام المسلمين الذين ملأت أسماؤهم بطون الكتب ، رجل فذ اتصف بصفات قلّ أن تجتمع في شخص ، وكان له أثر بالغ في رفع منار الإسلام ، واتساع رقعة الدولة الإسلامية وتنظيمها — ذلكم هو عمر بن الخطاب بن نُفَيْيْل بن عبد العُزَيّ بن رباح بن كعب بن لؤي القرشي . يرجع نسبه إلى بني عَدِيّ ، وهم بطن من بطون قريش اشتهروا بالشرف والمجد . ويجمع نسب عمر مع الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام في الجد السابع ، ويجمع معه من جهة أمه في الجد السادس . وقد كناه الرسول أبا حفص ، لما رآه فيه من الشدة في الحق .

ولد عمر بمكة قبل حرب الفجار الأعظم (١) بأربع سنين ، وفي رواية أخرى أنه ولد بعد الرسول بثلاث عشرة سنة ، أي في سنة ٥٨٤ ميلادية .

نشأ عمر نشأة عالية كغيره من فتيان الطبقة الراقية في قريش ، فكان مثال الفصاحة والبلاغة والصراحة في الحق . وكان في صغره يرعى الغنم لأبيه ، ثم احترف التجارة ، وكان يختلف فيها إلى بلاد الشام ، فاتسعت مداركه وتجاربه بما شاهده من أحوال هذه البلاد ، وطرق التعامل وأخلاق الناس .

(١) الفجار : هي حروب وقعت بين قبائل من عرب الحجاز ، في الأشهر الحرم وهي الشهور التي يحرم فيها القتال . وكان الفجار الأعظم قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم بست وعشرين سنة ، وقد شهدها النبي وهو ابن أربع عشرة سنة وقال : كنت أنبل عليّ أعمامى يوم الفجار وأنا ابن أربع عشرة سنة ، يعني أنا ولهم النبيل .

كان عمر رضى الله عنه يعارض الدعوة الإسلامية معارضة شديدة في مبدأ الأمر . فقد قيل إنه كان قبل إسلامه يمعن في تعذيب لُبيبة جارية بنى مؤمن (وهو حى بنى عدى بن كعب) حتى يمل ، ثم يدعها ويقول: إني لم أدعك إلا سامة . ولم تزل لبيبة على ذلك حتى اشتراها أبو بكر الصديق وأعتقها . وكان الرسول الكريم يعرف لعمر مركزه من قريش ، فدعا الله سبحانه وتعالى أن يعز الإسلام بعمر ، وأن يجعل إسلامه فتحاً ونصراً مبيناً للدعوة ، إذ كان يعتقد عليه أفضل الصلاة والسلام ، أنه لم يكن بين القرشيين من يجرؤ على معارضته ؛ فقد أثر عن الرسول أنه قال : اللهم أعز الإسلام بأحد هذين الرجلين : يعنى عمرو بن هشام ، وعمر ابن الخطاب . وقد استجاب الله سبحانه وتعالى لدعاء الرسول ، فلم يلبث عمر أن دخل في الإسلام ، وأصبح من أتباع الرسول في نشر هذا الدين . روى ابن هشام عن إسلام عمر :

« خرج عمر يوماً متوشحاً بسيفه يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم . . . فلقى نعيم بن عبد الله فقال له : أين تريد يا عمر ؟ فقال : أريد محمداً هذا الصابى ، الذى فرق أمر قريش ، وسفقه أحلامها ، وعاب دينها ، وسب آلهتها ؛ فأقتله . فقال له نعيم : والله لقد غرتك نفسك يا عمر ، أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمداً ؟ أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟ قال : وأى أهل بيتي ؟ قال : ختنك (١) وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو ، وأختك فاطمة بنت الخطاب ، فقد والله أسلموا وتابعا محمداً على دينه ، فعليك بهما . فرجع عمر عامداً إلى أخته وختنه وعندهما خباب بن الأرت ، معه صحيفة فيها «طه» يقرئهما إياها . فلما سمعوا صوت عمر ، اختفى خباب فى البيت ، وأخفت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة . . . وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خباب . فلما دخل قال : ما هذه الهينة التى سمعت ؟ قالوا له : ما سمعت شيئاً ، قال : بلى !

« والله لقد أخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه . وبطش بختنه سعيد بن زيد ،

(١) صهرك : يقصد زوج أخيه .

فقامت إليه أخته فاطمة بذت الخطاب لتكفّبه عن زوجها ، فضربها . فلما فعل ذلك قالت له أخته وخنته : نعم ! لقد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله ، فاصنع ما بدا لك . فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ، ندم على ما صنع ، فارعوى وقال لأخته : أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرءون آتفاً ، أنظر ما هذا الذي جاء به محمد ، فقالت له أخته : إننا نخشاك عليها ، قال : لا تخافي ! وحلف لها بألته ليردّها إليها إذا قرأها ، فقالت له أخته : يا أخى ! إنك نجس على شركك ، وإنه لا يمسه إلا الطاهر . فقام عمر فاغتسل ، فأعطته الصحيفة وفيها « طه » ، فلما قرأ منها سطرًا قال : ما أحسن هذا الكلام وأكرمه ! فلما سمع ذلك خبّاب ، خرج إليه فقال له : يا عمر ! والله إنى لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه ، فإنى سمعته أمس وهو يقول : اللهم أيد الإسلام بأبي الحكم بن هشام ، أو بعمر بن الخطاب ؛ فالله الله يا عمر ! فقال له عند ذلك عمر : فدلتنى يا خباب على محمد حتى آتبه فأسلم ، فقال له خباب : هو فى بيت عند الصفا (١) معه فيه نفر من أصحابه .

فأخذ عمر سيفه فتوشّحه ، ثم عمّد إلى رسول الله وأصحابه ، فضرب عليهم الباب . فلما سمعوا صوته ، قام رجل من أصحاب رسول الله ، فنظر من خلل الباب ، فرآه متوشحًا بالسيف ؛ فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فزع ، فقال : يا رسول الله ! هذا عمر بن الخطاب متوشحًا بالسيف ، فقال حمزة بن عبد المطلب : فائذن له ! فإن كان جاء يريد خيرًا بدلناه له ، وإن كان يريد شرا قتلناه بسيفه ، فقال رسول الله : ائذن له ! فأذن إليه الرجل ، ونهض إليه رسول الله حتى لقيه بالحجرة ، فأخذ بحجزته (٢) أو بمجمع رداءه ، ثم جبذه جبذة شديدة وقال : ما جاء بك يا ابن الخطاب ؟ فوالله ما أرى أن تنتهى حتى ينزل الله بك قارعة ، فقال عمر : يا رسول الله ! جئتك لأومن بالله وبرسوله ، وبما جاء من عند الله ، فكبّر الرسول تكبيرة عرف أهل البيت من أصحاب الرسول أن عمر قد أسلم .

(١) يريد بيت الأرقم بن أبي الأرقم وكان مقر الدعوة الإسلامية فى دور استنارها .

(٢) الحجزة : موضع تكة السراويل .

روى عن عبد الله بن مسعود أنه قال : « كان إسلام عمر فتحا ، وكانت هجرته نصرا ، وكانت إمارته رحمة ، ولقد رأيتنا وما نستطيع أن نصلي في البيت ، فلما أسلم عمر قاتلهم حتى تركونا فصلينا . وروى عن علي بن أبي طالب أنه قال : ما علمتُ أحدا من المهاجرين هاجر إلا محتفيا ، إلا عمر بن الخطاب ، فإنه لما همّ بالهجرة تقلد سيفه وتنكب قوسه ، وانتضى في يديه أسهما ، واختصر عنزته ، ومضى قبل الكعبة ، والملاً من قريش بفنائها ، فطاف بالبيت سبعا متمكنا ، ثم أتى المقام فصلى متمكنا ، ثم وقف على الخلق واحدة وقال لهم : شأهت الوجوه ، لا يرغم الله إلا هذه المعاطس ، من أراد أن تشكله أمه ويوتم ولده وترمل زوجته ، فليلقني وراء هذا الوادي . قال علي : فما تبعه أحد إلا قوم من المستضعفين عليهم وأرشدهم ومضى لوجهه .

كان عمر بعد إسلامه من المقربين إلى الرسول ، وكان كثيرا ما يشير على الرسول بالأمر ، فينزل القرآن الكريم موافقا لما أشار به عمر . فقد روى أنه لما انتصر المسلمون في بدر ، وأسروا عددا كبيرا من المشركين ، استشار الرسول أصحابه في مصير هؤلاء الأسرى ، كما استشارهم في الأنفال .

وقد اختلف المسلمون في النفل الذي جمعه بعضهم في غزوة بدر ، فقال من جمعوه : إنه لهم ؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم نفل كل امرئ ما أصاب . وقال الذين كانوا يقاتلون العدو ويطاردونهم : إنهم شغلوا العدو عنهم حتى أصابوا ما أصابوا من النفل ، وقال الذين كانوا يحرسون الرسول : إنهم ليسوا أحق منهم بالنفل ؛ لأنه لم يكن ثمة ما يحول دون استيلائهم عليه إلا خوفهم من أن يفاجئ العدو الرسول فيصيبوه بسوء . ومن المسلمين من عهد إليهم الرسول بأن يقوموا بأعمال تتصل بالقتال وليست منه ، أو من تخلفوا عن القتال لأعذار خاصة ، كعثمان ابن عفان الذي أبقاه الرسول مع أسامة بن زيد في المدينة لترضية بنت الرسول وزوجة عثمان التي دفنت حين اتصل بهم نبأ انتصار المسلمين في بدر .

والنفل أو الغنيمة هو ما أخذه المسلمون من الكفار قهرا بعد هزيمتهم في الحرب .

أما الفسَى فهو ما يؤخذ من الكفار ، ولكن عن طريق صلح و اتفاق . ويختلف النفل عن النية ، بأن أربعة أخماس النفل تقسم على المحاربين ؛ أما أربعة أخماس النية ، فإنها تترك للرسول أو لإمام المسلمين ، ليصرفها في مصالح المسلمين ومنها الجيش . وأما خمس النية أو الغنيمة ، فيقسم إلى خمسة أسهم : سهم للرسول (في حياته) ، ينفق منه على نفسه وأزواجه ، ويصرفه في مصالحه ومصالح المسلمين ، والسهم الثاني لذوى القربى ، والثالث لليتامى من ذوى الحاجات ، والرابع للمساكين ، والخامس لأبناء السبيل . فقد قال الله سبحانه وتعالى في سورة الأنفال (٨ : ٤١) : (واعلموا أن ما غنمتم من شيء فإن لله خمسته وللرسول ولذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) . ويدخل في الفسَى : الجزية أو الخراج والعشر من متاجر المشركين . (١) وهذا يختلف عن الصدقات التي تؤخذ من المسلم ، زكاة كان أو تطوعا ، كما جاء في القرآن الكريم (سورة التوبة : ٦٠) : (إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم) .

وكان من اختلاف المسلمين في النفل أن نزل قوله تعالى في سورة الأنفال (٨ : ١) : (يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين) . فلما سار رسول الله وأصبح على مقربة من المدينة ، ومعه النفل الذي أصابه المسلمون من المشركين ، قسمه على المسلمين على السواء .

روى الطبري أنه لما جرى بأسرى بدر ، وكانوا أربعة وأربعين ، وقيل سبعين ، قال الرسول لأصحابه : ماتقولون في هؤلاء الأسرى ؟ فقال أبو بكر : يارسول الله ! قومك وأهلك استبقهم واستأنهم ، لعل الله أن يتوب عليهم . فقال الرسول لعمر بن الخطاب : ما ترى يا ابن الخطاب ؟ فقال : لا والذي لا إله إلا هو ، ما أرى الذي رأى أبو بكر يا نبي الله ، ولكن أرى أن تمكننا منهم ، فتمكن عليا من عقيل

فيضرب عنقه ، وتمكن حمزة من العباس فيضرب عنقه ، وتمكن من فلان (نسيب لعمر) فأضرب عنقه ، فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديده.

وقال عبد الله بن رواحة : يا رسول الله ! انظر واديا كثيرا الخطب فأدخلهم فيه ثم أضرمه عليهم ، فقال له العباس : قطعتك رحمك ! فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يجبهم ، ثم دخل ، فقال ناس : يأخذ بقول أبي بكر ، وقال ناس : يأخذ بقول عبد الله بن رواحة . ثم خرج عليهم رسول الله فقال : إن الله عز وجل ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن ، وإن الله ليُشدّد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة . وإن مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم ، قال : « فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ كَافِرٌ بِي ». ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى ، قال : « إِنَّ تَعَدَّ بِهَمَّ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » ، ومثلك يا عمر مثل نوح قال : (رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا) ، ومثلك مثل موسى ، قال : (رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْتُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ) ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنتم اليوم عائلةٌ فلا يفلتن منهم أحدٌ إلا بفداء أو ضرب عنق . قال عبد الله بن مسعود إلا سهيل بن بيضاء فإني سمعته يذكر الإسلام ، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما رأيتني في يوم أخوف أن تقع على الحجارة من السماء من ذلك اليوم ، حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إلسهيل بن بيضاء فأنزل الله عز وجل في سورة الأنفال (٨ : ٦٧ - ٧٠) « مَا كَانَ لَنِي أَنْ يَكُونَ لِي أُسْرَى حَتَّى يُشْخِنَ فِي الْأَرْضِ ، تَرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ ! قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى : إِنَّ يَعْلَمُ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١) . »
وقد روى الطبري أن الرسول بعد أن فرق الأسرى على أصحابه قال لهم : استوصوا

(١) ابن هشام : سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ج ٢ ص ٢١٢ - ٢٢٤ .

بالأسارى خيرا . فكان أبو عزيز بن عمير بن هاشم أخو مصعب بن عمير أحد هؤلاء الأسرى ، وقد قال إن الأنصار كانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم خصوني بالخبز وأكلوا التمر لوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم إياهم بنا ، ما تقع في يد رجل منهم كسرة من الخبز إلا نفحنى بها ، فأستحى فأردّها على أحدهم ، فيردها على ما يمسّها . (١)

وهكذا نزل القرآن الكريم موافقا لرأى عمر رضى الله عنه ، بما يدل على ما كان يتمتع به من رأى صائب ، ونظر بعيد ، وفهم لروح الإسلام . وقد اعترف الرسول بما لعمر من صدق الرأى ونافذ البصيرة ، فإنه لما رآه قادما عليه ، ابتسم وقال : أبشر يا عمر ، فقد نزل الوحي برأىك . يقول عمر : لما كان من الغد (أى ثانى يوم استشار النبي أصحابه حيث كان هوى النبي مع أبى بكر) ، جئت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا هو وأبو بكر بيكيان ، فقلت : من أى شىء تبكى أنت وصاحبك يا رسول الله ؟ فقال الرسول : أبكى للذى عرض لأصحابى من أخذهم الفداء ، وقال رسول الله : لو عذّبنا فى هذا الأمر يا عمر ، مانجا غيرك ؛ إذ قال الله : (لا تعودوا تستحلون قبل أن أحلّ لكم) .

وإلى عمر بن الخطاب يرجع الفضل فى تولية أبى بكر الخلافة ، وحسم النزاع الذى أوشك أن يتفاقم بين المهاجرين والأنصار على أثر موت الرسول ، فقال لأبى بكر فى سقيفة بنى ساعدة بالمدينة : ألم يأمر النبي بأن تصلى أنت يا أبى بكر بالمسلمين ؟ فأنت خليفته ، ونحن نباعك ، فنباع خيرا من أحب رسول الله منا جميعا . وباعه ثم تتابع المهاجرون والأنصار يبايعونه ؛ وبذلك بويع أبو بكر بفضل ما أوتيه عمر من المهارة والشجاعة .

وكان أبو بكر يستشير عمر فى مهام الأمور ، فشاوره فيما كان من تخلف على ابن أبى طالب عن بيعة أبى بكر ، وما ترتب على ذلك من انقسام كاد أن يفرق كلمة المسلمين . فاستدعى أبو بكر أبى عبيدة بن الجراح وعهد إليه أن يذهب إلى على

(١) الطبري : الأمم والملوك ج ٢ ص ٢٨٥ - ٢٨٧ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ .

فبيلغه رسالته . وكان عمر — كعادته — قويا في مواقف ، حاسما في آرائه ، لا يحب أن تؤخذ الأمور باللين ، إنما تؤخذ بالحزم . فما كاد أبو عبيدة يتأهب للخروج حتى قال له عمر : كن لدى الباب هنيئة ، فلي معك دور من القول ، فوقف وقال لأبي عبيده : « قل لعلي : الرقاد محملة ، والهوى مقة حمة ، وما منا إلا له مقام معلوم ، وحق مشاع أو مقسوم ، ولا خير في معرفة مشوبة بنكر . وكل صال فبناره ، وكل سيل فالى قراره . وقد جدد الله بمحمد صلى الله عليه وسلم أنف كل ذى كبر ، وقصم ظهر كل جبار ، وقطع لسان كل كذوب . فماذا بعد الحق إلا الضلال . ماهذه الخنز وانه (الكبر) التى فى فراش رأسك ، وما هذا الذى لبرست بسببه جلد النسيم ، أتظن ظنا يا على أن أبا بكر وثب على هذا الأمر مفتاتا على الأمة ، خادعا لها ، أو متسلطا عليها ؟ . . . إنك أقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قرابة ، ولكنه أقرب منك قرابة (وسيلة) . والقرابة لحم ودم ، والقرابة نفس وروح ، وهذا فرق عرفه المؤمنون ، ولذلك صاروا إليه أجمعون ، فادخل فيما هو خير لك اليوم وأنفع غدا » (١) .

كان أبو بكر يحيل على عمر الفصل فى القضايا ، كما كان ساعده الأيمن فى حروب الردة . وإليه يرجع الفضل فى جمع القرآن وتدوينه .

وقد عرف أبو بكر اعمر شجاعته وكفايته وحسن سياسته وأثره فى نشر الإسلام ، فرشحته للخلافة من بعده ، وأثنى عليه الصحابة ، ووافقوا على اختياره ، لأنه كان بحق محل احترامهم وموضع ثقتهم جميعا . ولما ولى عمر الخلافة ، صعد المنبر وخطب الناس خطبة تبين السياسة التى عول على انتهاجها فى شئون دولته ، فقال : « إني قائل كلمات ، فأمنوا عليهن . فكان أول كلام قال حين استخلف : « إنما مثل العرب مثل جمل أنف ، اتبع قائده ، فلينظر قائده حيث يقوده . وأما أنا ، فورب الكعبة لأحملهم على الطريق » .

وقد تمت معظم الفتوح الإسلامية فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

ففتحت معظم بلاد فارس ، وفلسطين ، والشام ، ومصر ، وبرقة ، واتسعت رقعة الدولة العربية على حساب دولتي الفرس والروم .

وكان عمر رضى الله عنه أول من وضع النظام السياسى للدولة الإسلامية ، ونظم إدارتها . وكانت سياسته ترمى إلى تماسك بلاد العرب ، وإدخال القبائل بعضها فى بعض لتكون أمة واحدة هي الأمة العربية . ولما أثرت الدولة العربية بما ملكته من كنوز الأكاسرة ، رأى عمر توزيع هذه الأموال على المسلمين ، مراعى فى ذلك مراتبهم ومبلغ استحقاقهم ، فأدخل نظام الدواوين الذى سار عليه الفرس لضبط دخل الدولة وخرجها ، وعامل المسلمين وأهل الذمة معاملة قوامها العدالة المطلقة . وأنشأ عمر ديوان الجند لكتابة أسماء الجند وما يخص كلا منهم من العطاء . كما أنشأ ديوان الخراج أو الجباية ، لتدوين ما يرد إلى بيت المال ، وما يفرض لكل مسلم من العطاء .

وقد أراد عمر بن الخطاب أن يخلد ذكرى هجرة الرسول الكريم من مكة إلى المدينة ، باعتبارها أهم أحداث التاريخ الإسلامى وأبعدها أثرا فى تاريخ الدعوة المحمدية ، فامر باتخاذ الهجرة مبدأ للتاريخ العربى ، بعد أن كان المسلمون يؤرخون حوادثهم من مبعث الرسول صلى الله عليه وسلم . وقد جمع عمر بن الخطاب رضى الله عنه الناس ، وسألهم عن أى يوم يكتب التاريخ ، فقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه : من يوم هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وترك أرض الشرك . فلقى هذا رأى قبولا عند عمر ، وعمل على تنفيذه : لأن الهجرة قد أتاحت للرسول الفرصة لنشر الإسلام ، وتأسيس الدولة العربية ، والاضطلاع بالسلطتين الدينية والزمنية .

وقال ميمون بن مهران إنه رفع إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه صك محله شعبان ، فقال : أى شعبان هو ؟ أشعبان الذى نحن فيه أو الآتى ؟ ثم جمع وجوه الصحابة فقال لهم : إن الأموال قد كثرت ، وما قسمنا منها غير مؤقت ، فكيف التوصل إلى ما يضبط ذلك ؟ فقالوا : يجب أن يُعرف ذلك من

رسوم الفرس. فاستدعى عمر الهرمزان وسأله عن ذلك، فقال: إن لنا حسابا نسميه «ماه روز»، معناه حساب الشهور والأيام، فعربوا الكلمة وقالوا: مؤرّخ، ثم جعلوه اسم التاريخ، واستعملوه، ثم طلبوا وقتا يجعلونه أولا لتاريخ دولة الإسلام، فاتفقوا على أن يبدأ من سنة الهجرة.

ولما اتسعت الدولة العربية في عهد عمر، قسم البلاد أقساما إدارية كبيرة؛ ليسهل حكمها والإشراف على موارد ثروتها، وعين على هذه الولايات عمالا أو ولاة يستمدون سلطتهم من الخليفة الذي كان يجمع في يده السلطات التنفيذية والقضائية، واختار عمر الولاة من العرب، وسار على هذه السياسة من جاء بعده من الخلفاء الراشدين والأمويين.

وكان عمر يسأل الرعية إذا وفدت عليه في موسم الحج أو في غير مواسمه، عن حال امرأتهم وسيرتهم فيهم. فقد روى عن الأسود بن أبي يزيد أنه قال: «كان الوفد إذا قدموا على عمر رضى الله عنه، سألهم عن أميرهم، فيقولون خيرا، فيقول: هل يعود مرضاكم؟ فيقولون نعم! فيقول: كيف صنيعة بالضعيف؟ هل يجلس على بابك؟ فإن قالوا لخصلة منها: لا، عزله».

وكان عمر كثيرا ما يجوس خلال دور المسلمين، ويتفقد أحوال الرعية بنفسه، ويطوف في الأسواق وهو يقرأ القرآن، ويقضى بين الناس حيث أدركه الخصوم. من ذلك ما روى عن أنس بن مالك قال: بينا عمر يعس بالمدينة إذ مرّ برحبة من رحباتها، فإذا هو ببنت من شعر لم يكن بالأمس، فدنا منه، فسمع أنين امرأة ورأى رجلا قاعدا، فدنا منه، فسلم عليه، ثم قال: من الرجل؟ فقال: رجل من أهل البادية، جئت إلى أمير المؤمنين أصيب من فضله. فقال عمر: ما هذا الصوت الذي أسمع في البيت؟ فرد عليه قائلا: انطلق يرحمك الله لحاجتك! قال عمر: على ذلك، ماهو؟ قال: امرأة تمخض. قال: هل عندها أحد؟ قال لا! فانطلق أمير المؤمنين حتى أتى منزله، فقال لا مرأته أم كلثوم بنت علي رضى الله عنها: هل لك في أجر ساقه الله إليك؟ قالت: وما هو؟ قال: امرأة عربية

تمخض ، ليس عندها أحد ! قالت : نعم ! إن شئت . قال : نخذي معك ما يصلح للمرأة في ولادتها من الخرق والدهن ، وجيئيني ببرمة وشحم وحبوب . فجاءت به ، وقال لها : انطلقي ! وحمل أمير المؤمنين البرمة ، ومشى أم كلثوم خلفه حتى انتهى إلى البيت . فقال لها : ادخلي إلى المرأة ! وجاء حتى جلس إلى جانب الرجل فقال له : أوقدي ناراً ! فجعل ، فأوقد تحت البرمة حتى أنضجها . ووضعت المرأة فقالت أم كلثوم : يا أمير المؤمنين بشر صاحبك بسلام ! فلما سمع الرجل قولها يا أمير المؤمنين ؛ — هاب عمر فجعل يتنحى عنه ، فقال له عمر : مكانك كما أنت ! وحمل عمر البرمة فوضعها على الباب ثم قال لأم كلثوم : أشبعيها ! ففعلت ، وأخرجت له البرمة ، ثم قام عمر رضى الله عنه ، فأحضرها ووضعها بين يدي الرجل ، وقال له : كل ويحك ! فإنك قد سهرت من الليل ! ففعل . ثم قال عمر لامرأته : اخرجي ! وقال للرجل : إذا كان غد فأنتنا نأمر لك بما يصلحك ، ففعل الرجل ، وأجازته الخليفة ، وأعطاه ما يصلحه ويقوم بحاجته .

أى رحمة كهذه التي يرعى فيها عمر ربه ، فيعس ، لعله يجد مظلوماً أو بائساً أو محتاجاً أو مكروباً ؛ فيعمل على صيانة المجتمع من العوز والفاقة ، ويتقدم يد المعونة إلى من يرى أنه بحاجة إليها ، في عدالة اجتماعية نادرة . ثم هو إلى جانب ذلك كله متواضع بر رحيم تمتزج رحمته وبره امتزاجاً عجبياً بالتواضع ولين الجانب في أبهى صورها . هذا هو عمر الذي تهتز لشخصيته أكرم النفوس وتخشى لقاءه سادات العرب ، يرق قلبه ، ويلين جانبه ، وتنسبط أساريره أمام رجل عادي من البادية ، فينال من وقته وجهده ، بل من عناية زوج أمير المؤمنين وكرمها وتواضعها ، ما يجعل النفوس أسيرة لهذا الصنيع الكريم .

بل لقد عزم عمر على الطواف في الولايات الإسلامية ، ليقف بنفسه على أحوال الرعية فيها . فقد روى أنه قال : « لئن عشت إن شاء الله ، لأسير في الرعية حولاً ، فإني أعلم أن للناس حوائج تقطع دوني ؛ أما عمالهم فلا يرفعونها إلي ، وأما هم فلا يصلون إلي ، فأسير إلى الشام فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى الجزيرة فأقيم بها شهرين ، ثم

أسير إلى مصر فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى السكوفة فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى البصرة فأقيم بها شهرين ، والله انعم الحول هذا .

وكان عمر يشرف بنفسه على جباية الخراج ، ويحاسب الولاية وعمال الخراج حسابا عسيرا . وقد بلغ من شدة مراقبته لعماله ، أنه كان يحصى أدواهم قبل توليتهم ، فإذا انتهت ولايتهم ، أحصى ثروتهم من جديد ، وما زاد صادرهم فيه كله أو بعضه ، وردة إلى بيت المال ، إلا إذا اتضح له أن هذه الزيادة أتت إلى العامل بطرق مشروعة .

كان عمر يعس ليلة ، فمر بدار سمع فيها صوتا ، فارتاب ، وتساءر ، فرأى رجلا عنده امرأة وزق خمر ، فقال : يا عدو الله ! أظننت أن الله يسترك وأنت على معصيته ؟ فقال : لا تعجل يا أمير المؤمنين ! إن كنت أخطأت في واحدة ، فقد أخطأت في ثلاث . قال الله تعالى : (ولا تجسسوا) ، وقد تجسست ، وقال : (وأتوا البيوت من أبوابها) وقد تسورت ، وقال : (إذا دخلتم بيوتا فسلموا) ، وما سلمت ، فقال عمر : هل عندك من خير إن عفوت عنك ؟

وضع عمر لقواده الخطة التي يتبعونها في تسيير الجيوش ونظامها . فقد كتب إلى سعد بن أبي وقاص حين سيره لفتح بلاد الفرس : « ترفق بالمسلمين في سيرهم ، ولا تجشمهم مسيرا يتعبهم ، ولا تقصر بهم عن منزل يرفق بهم حتى يبلغوا عدوهم ، والسفر لم ينقص من قوتهم ، فانهم سارون إلى عدو مقيم حامى الأنفس والكراع . وأقم بمن معك في كل جمعة يوما وليلة حتى تكون لهم راحة يحيون بها أنفسهم ، ويرمون أسلحتهم وأمتعتهم . وإذا وطئت أرض عدوك ، فأذك العيون بينك وبينهم ، ولا يخف عليك من أمرهم شيء ، وليكن عندك من العرب أو من أهل الأرض من تظمن إلى نصحه وصدقه . . وليكن منك عند دنوك من أرض العدو ، أن تكثر الطلائع وتبث سرايا بينك وبينهم . .

كان عمر رضى الله عنه أول من عين القضاة في الولايات الإسلامية ، وسن لهم دستورا يسيرون على هديه في الأحكام ؛ فمن كتاب عمر إلى أبي موسى الأشعري :

« القضاء فريضة محكمة ، وسنة متبعة ، فافهم إذا أدلى إليك ، فإنه لا ينفع تكلم بحق لانفاذ له . . البينة على من ادعى ، واليمين على من أنكر ، والصلح جائز بين المسلمين ، إلا صلحا أحل حراما أو حرم حلالا . . الفهم الفهم فيما تلجج في صدرك ، مما ليس في كتاب ولا سنة ، ثم اعرف الأمثال والأشباه ، وقس الأمور بنظائرها . . » وقد بلغ من عدل عمر أنه ما كانت تؤثر في تصرفاته عواطفه الخاصة ونزعات قلبه . فقد روى أنه قال لرجل : « إني لا أحبك . قال : فتنقصني من حق شيئا ؟ قال عمر : لا ! قال الرجل : فما يفرح بالحب بعد هذا إلا النساء .

وكان حزم عمر رضى الله عنه من أظهر ما امتازت به خلافته ، فكان إذا أمر بشيء أو نهى عنه ، بدأ ذلك بأهله فجمعهم ، وقال لهم : « إني نهيت عن كذا وكذا ، وإن الناس ينظرون إليكم نظر الطير — يعنى إلى اللحم — وأقسم بالله لا أجد أحدا منكم فعله إلا ضاعفت عليه العقوبة . »

وبرغم هذه الشدة التي عرف بها عمر ، امتاز بالتواضع . وقد ظهر تواضعه في ملبسه ومظهره عند ذهابه إلى الشام ، وعند مقابله الهرمزان قائد الفرس الذي قصد إليه في المدينة ، وما كاد يعرفه لبساطة ملبسه وعدم اعتداده بنفسه . نعم ! لقد كان عمر متواضعا خشن الملبس ، وقد اتبعه عماله في سائر أفعاله وأخلاقه .

ولد عمر حاكما بطبيعته ، ورجلا فذا في كل خطوة من خطوات حياته . كان ورعا متقشفا ، لا يخشى في الحق لومة لائم . وكان شديد النزاهة نحو غيره ونحو نفسه ، شديد التعلق بالقرآن . وقد آثر عن الرسول أنه قال في مرضه الأخير : عمر معي وأنا مع عمر ، والحق بعدي مع عمر حيث كان .

وكانت شدة عمر في خلافته من أظهر ما امتاز به . وكان شديدا على ولاته ، يخشى أن يُرهبوا الناس فيذلوا نفوسهم ، ويعلموهم الجبن ، ويطبعوهم على الصغار . فكان يفتح صدره لأية شكاية في أحد عماله ، فيعلن ذلك لعامة المسلمين في خطبه . وقد بلغ من عدله أنه كان يحرص كل الحرص على دفع أعطيات المسلمين إليهم في مواعيدها ، لا فرق بين عامة وخاصة .

وقد بلغ من زهد عمر أن أصاب أرضا بخير؛ وأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: أصبت أرضا بخير لم أصب مالا قط أنفس عندي منه. فما تأمر به؟ وأجابه رسول الله: إن شئت حبست أصلها وتصدق بها، فتصدق بها في الفقراء والقربى وفي الرقاب وفي سبيل الله والضيف. فكانت هذه أول صدقة تصدق بها في الإسلام: وكان عمر رضى الله عنه عالما بالقرآن وتأويله، مجتهدا في دين الله، ذا رأى وفتيا. روى النووى عن ابن عمر أنه سئل: من كان يفتى الناس في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال: أبو بكر وعمر، لم أعلم غيرهما.

وكان عمر شديد التعلق بالقرآن، ولم تمنعه شدة حرصه على الوقوف عند أوامره ونواهيه من الاجتهاد برأيه وإنشاء ما تدعو إليه الضرورة، وإذا اقتضت أحوال الجماعة تأويل النص أو له.

تزوج عمر بأكثر من واحدة في الجاهلية وفي الإسلام. أما في الجاهلية، فقد تزوج زينب بنت مظعون بن حبيب بن وهب بن حذافة، فولدت له عبد الله، وعبد الرحمن الأكبر، وحفصة. ثم تزوج مليكة بنت جرول الخزاعى، فأنجبت له عبيد الله. ثم تزوج أم كلثوم بنت جرول، فأنجب منها محمد بن عمر، وعبيد الله الذى قتل يوم صفين. وقد فرّق الإسلام بين أم كلثوم وبين عمر.

أما في الإسلام فقد تزوج عمر: أم حكيم بنت الحارث بن هشام بن المغيرة ابن مخزوم، فولدت له فاطمة. وتزوج جميلة أخت عاصم بن ثابت، فولدت له عاصما، ثم طلقها؛ ثم تزوج لهية، وهى أم ولد من اليمن، فولدت له ابنه عبد الرحمن الأصغر. كما تزوج أم ولد أخرى تسمى فسكية، فرزق منها بزيب. وتزوج عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل فلم ينجب منها. فلما أراد أن يخطب أم كلثوم بنت أبي بكر الصديق، أبت أن تتزوجه وقالت: إنه خشن العيش، شديد على النساء. فأرسلت عائشة أم المؤمنين إلى عمرو بن العاص، فأخبرته، فقال: أكفيك، فأتى عمر أمير المؤمنين، فقال له: يا أمير المؤمنين! بلغنى خبر أعينك بالله منه قال: وما هو؟ قال: خطبت أم كلثوم بنت أبي بكر، قال: نعم! أفرغبت

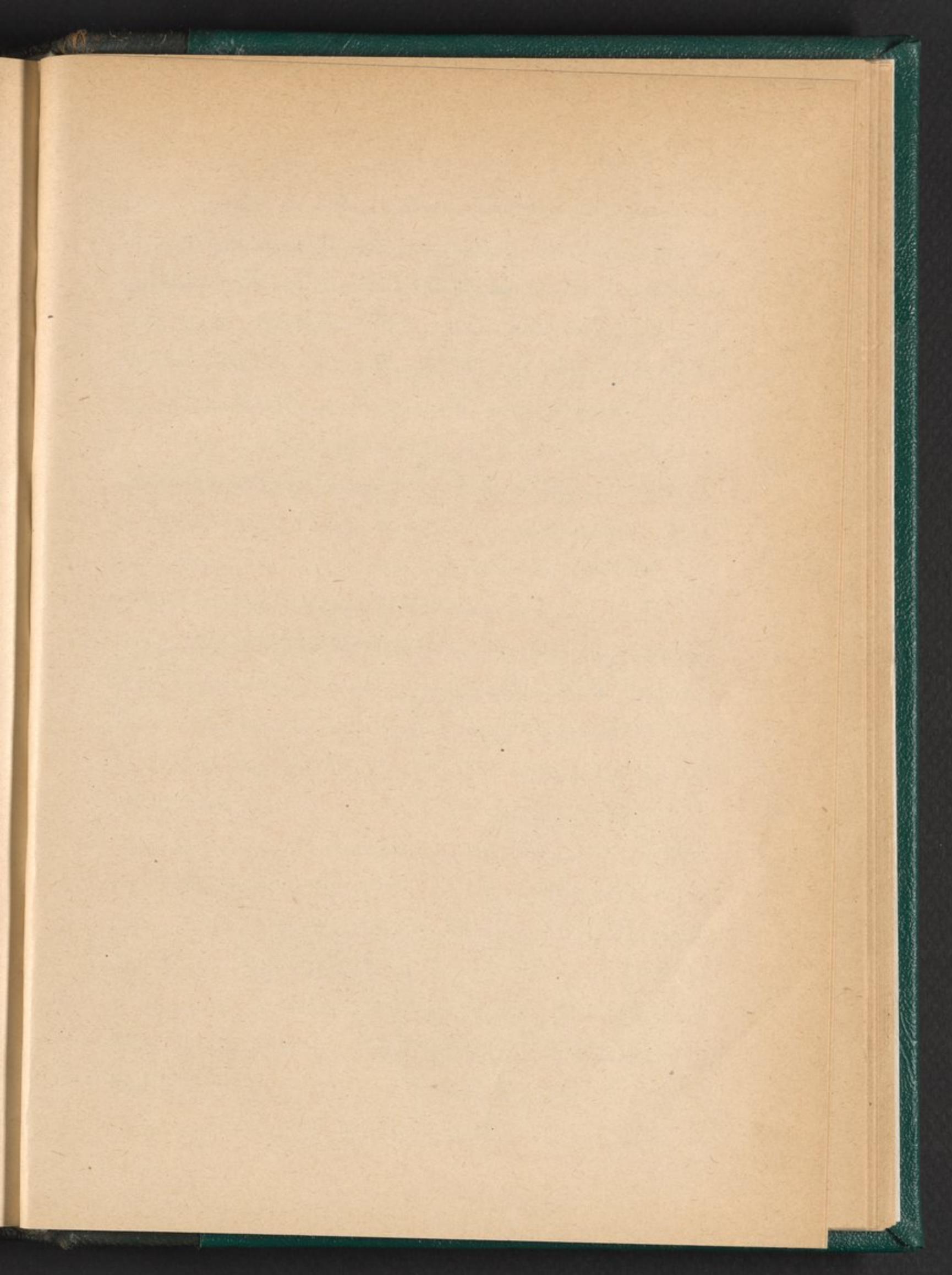
بني عنها أم رغبت بها عنى؟ قال: لا واحدة، ولكنها واحدة، نشأت تحت كنف أم المؤمنين في لين ورفق، وفيك غلظة، ونحن نهايك، وما نقدر أن نردك عن خلق من أخلاقك، فكيف بها إن خالفتك في شيء فسطوت بها؟ كنت قد خلقت أبا بكر في ولده بغير ما يحق لك. قال عمر: فكيف بعائشة فقد كلمتها، قال: أنا لك بها وأدلك على خير منها: أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب، فتزوجها عمر ابن الخطاب، وأصدقها أربعين ألف درهم، فولدت له زيدا ورقية.

كما خطب عمر: أم أبان بنت عتبة بن ربيعة، فكرهته وقالت: يغلق بابي، ويمنع خيريه، ويدخل عابسا ويخرج عابسا. وإن دل هذا على شيء، فإنما يدل على أن الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يعيش عيشة زهد وتقشف وتعب، لا يختص أهله بخيره، إنما يختص به من يستحقه من عامة المسلمين.

وبرغم هذه الكفاية الممتازة والصفات الحميدة، تعرض عمر لحقن الموالى من الفرس، الذين أضروا الكراهة والبغضاء للعرب، واعتقدوا أنهم استولوا على بلادهم وأزالوا سلطانهم؛ فعقدوا العزم على أن ينتقموا منهم في شخص عمر رضى الله عنه؛ فقتله أحد الموالى، واسمه فيروز، ويلقب أبا لؤلؤة، وكان غلام المغيرة ابن شعبة. قتله بخنجر له رأسان، وضربه به ست ضربات إحداها تحت سترته وهي التي قتلته.

وتوفي عمر رضى الله عنه في شهر ذى الحجة من سنة ثلاث وعشرين للهجرة، بعد أن ظل في الخلافة عشر سنين وستة أشهر، ومات وهو في الثالثة والستين من عمره، كما مات النبي وأبو بكر في هذه السن أيضا، ودفن إلى جوار الرسول الكريم وأبي بكر الصديق.

وفي عهد عمر رضى الله عنه توطدت دعائم الإسلام، واتسعت رقعة الدولة الإسلامية، ومهد بذلك السبيل لامتداد نفوذ العرب من حدود الصين شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا.



٣ - عثمان بن عفان

« اسكل نبى رفيق ورفيقي فى الجنة عثمان »

تحدث الى القارىء الكريم عن عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي ، ثالث الخلفاء الراشدين ، وصهر الرسول الكريم ، وأنيسه ، وموضع سره . ويكنى عثمان أباً عبد الله ، وأباً عمرو ، وذا النورين ، لزواجه من أم كلثوم ورقية ابنتى الرسول صلى الله عليه وسلم . وهو أول من جمع الأمة على مصحف واحد ، وأول من فتح إقليم خراسان وبلاد المغرب . وأمه أروى بنت كرز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس ، وأمها البيضاء بنت عبد المطلب عمه الرسول ، وكانت توأمة لعبد الله أبى الرسول .

ولد عثمان فى السنة السادسة بعد عام الفيل ، وقيل فى السنة الخامسة بعد ميلاد الرسول . ونشأ كما ينشأ أشرف مكة وسراتها ، إذ جمع مالا كثيراً من اشتغاله بالتجارة كأشرف قريش . ثم بعث الله محمداً برسالة إلى هذا العالم ، يعلمه الحقيقة الخالدة ، وهى أنه ليس هناك إلا إله واحد ، نبيه محمد ، الذى يدبر ويراقب أعمال الإنسان ، ويعاقب ويجازى الطيبين والأشرار بعد الموت ، كل بمقدار عمله ، كما دعاهم إلى نيل عبادة الأصنام والتسليم لإرادة الله .

ثم اعتنق هذا الدين البسيط السامى أول الأمر ، الأفراد المتصلون بالرسول ، ثم تعداهم إلى بعض رجالات قريش ، كأبى بكر الصديق ، الذى أسلم على يديه خمسة من المسلمين الأولين ، منهم عثمان بن عفان ، وكان لا يجاوز العشرين من عمره . وكان عثمان من السابقين الصائمين المنفقين فى سبيل الله .

ولما أسلم عثمان ، أحبه الرسول لطيبته ودماثة أخلاقه ، فقربه إليه وأدناه منه ووثق به ، فزوجه ابنته رقية . فلما ماتت ، زوجه ابنته أم كلثوم وقال له : إن كان عندى غيرهما لزوجتكها . وثبت عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال : سألت ربي عز وجل ألا يدخل النار أحدا صاهر إلى أو صاهرت إليه . وبلغ من مكانة عثمان عند الرسول ، أنه كان أحد العشرة المشهود لهم بالجنة . وروى أن الرسول بشره بالجنة ، وعده من أهلها ، وشهد له بالشهادة وقال : لكل نبي رفيق ، ورفيقي في الجنة عثمان .

ولما أمعت قريش في إيذاء المسلمين ، اتجهوا إلى بلاد الحبشة ، لما عرف عن ملكها من العدل والتسامح . فقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم : فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد ، وهى أرض صدق . وكان عثمان بن عفان من بين من خرج من مكة إلى الحبشة مهاجرا ، ومعه زوجه رقية بنت الرسول ؛ خرج غير مبال بما يصيب تجارته من بوار في سبيل رفع لواء الإسلام وإعلاء كلمته . ولما علم المهاجرون إلى الحبشة برضاء قريش عن الرسول بعد أن رأت أن مكايدها قد أخفقت ، عاد عثمان إلى مكة .

ثم هاجر عثمان إلى المدينة بعد أن هاجر الرسول صلى الله عليه وسلم مع صفية . أبى بكر . فلما حل عثمان بأرض المدينة ، بذل نفسه وماله فداء للرسول ونصرة الدعوة الإسلامية . فقد احتاج المسلمون إلى الاستسقاء من بئر رومة ، وكانت لليهودى يبيع المسلمون ماءها ، فقال الرسول : من يشتري رومة فيجعلها للمسلمين ، يضرب بدلوه في دلائهم ، وله بها مشرب في الجنة ؟ فأتى عثمان اليهودى فساومها بها ، فأبى أن يبيعه كلها ، فاشتري نصفها باثني عشر ألف درهم فجعله للمسلمين . ولما رأى اليهودى ذلك قال له : أفسدت عليّ بئزى فاشترى النصف الآخر ، فاشتراه بثمانية آلاف درهم . ولما أراد الرسول الكريم أن يوسع مسجد المدينة قال : من يزيد في مسجدنا ؟ فاشتري عثمان رضى الله عنه موضع خمس سوار فزاده في المسجد . كذلك اشترك عثمان في أغلب المشاهد التي شهدتها الرسول ، إذ لم يكتف ببذل

ماله في سبيل الله ، بل أراد أن يبذل دمه أيضا . ولم يكن أحب إليه من أن يشترك في يوم بدر ، لولا أنه تخلف رغما منه ؛ ليدهر على تمرير زوجته رقية ، فأذن له الرسول بالتخلف وقال له : ارجع ! وضرب له بسهمه وأجره ؛ فهو معدود في البدرين . وماتت رقية في السنة الثانية للهجرة حين أتى الخبر لرسول الله بما فتح الله عليه يوم بدر .

وكان الرسول يستعين بعثمان في كثير من أمور المسلمين ، فكان من كتاب الوحي ، وكان سفيره لدى قريش في السنة السادسة للهجرة ، حين حالت دون دخول الرسول مكة لأداء العُمرَة . فلما ذاع نبا قتلهم عثمان ، بايع المسلمون الرسول بيعة الرضوان ، في المكان المعروف بالحُدَيْيَة على مقربة من مكة . وبايع الرسول عن عثمان يا حدى يديه على الأخرى . فلما أتاه الخبر بأن عثمان لم يقتل قال : يدرسول الله صلى الله عليه وسلم لعثمان خير من يد عثمان لنفسه ، فهو أيضا معدود في أهل الحديية .

ولما تجهز المسلمون لغزوة تبوك في السنة التاسعة للهجرة ، بادر عثمان إلى بذل ماله في سبيل إعلاء كلمة الدين ؛ فقد كانت له اليد الطولى في جيش العُسرة حيث أمد المسلمين بتسعمائة بعير وخمسين فرسا وألف دينار . فلا عجب إذا كان عثمان من الذين توفى الرسول وهو عنهم راض .

ولما انتقل الرسول إلى جوار ربه ، اتخذ أبو بكر عثمان أمينا وكاتبا له ، يستشيره في مهام الأمور . فلما وقع اختيار أبي بكر على عمر ، دعا عثمان بن عفان فأمله كتاب عهده لعمر . ثم طعن عمر وأشرف على الموت ، وخشى الصحابة أن يموت دون استخلاف ، فألحوا عليه في أن يعهد ، فقال : عليكم بهؤلاء الرهط الذي مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض ، وقال فيهم إنهم من أهل الجنة : على بن أبي طالب ، وعثمان بن عفان ، وسعد بن أبي وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، والزيير بن العوام حوارى رسول الله وابن عمته ، وطلحة بن عبسيد الله ، وعبد الله بن عمر ، على ألا يكون له من الأمر شيء .

فلما مات عمر اجتمع هؤلاء النفر في بيت المسور بن مخرمة ، إلا طلحة فإنه كان غائبا . ولكن سرعان ما ظهر فيهم التنافس ، فقال لهم أبو طلحة الأنصاري : أنا كنت لأن تدفعوها أخوف من لأن تنافسوها . ولكن عبد الرحمن قال لهم : أيكم يخرج نفسه منها ويتقلدها على أن يوليها أفضلكم ؟ فلم يجبه أحد ، فقال : فأنا أخلع منها نفسي ، فرضى القوم بذلك . وأخذ عبد الرحمن يستشير الصحابة وأمراء الأجناد وأشرف الناس فيمن يصح أن يختار خليفة من بين هؤلاء . فكان بعض يشير بعلي ، وبعض آخر يشير بعثمان ، فقال لعلي : لو لم يكن لك هذا الأمر فمن ترضى ؟ فقال : عثمان . وسأل عثمان نفس السؤال ، فقال : علي . فانحصر استحقاق الخلافة في علي وعثمان ، وظهرت بوادر الانقسام بين أنصارهما ، إذ قام عمار بن ياسر فقال : إن أردت ألا يختلف الناس فبايع عليا ، فقال المقداد بن الأسود : صدق عمار ، إن بايعت عليا قلنا سمعنا وأطعنا ، فقام عبد الله بن أبي سرح وقال : إن أردت ألا تختلف قريش فبايع عثمان ، فقال عبد الرحمن : إني قد نظرت وشاورت ، فلا تجعل أيها الرهط على أنفسكم سبيلا ، ودعا عليا فقال له : عليك عهد الله وميثاقه لنعلمن بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفين من بعده ، قال : أرجو أن أفعل وأعمل ببلغ علمي وطاقتي ، ثم دعا عثمان وأعاد عليه ما قال لعلي ، فقال : نعم ! فبايعه . وبذلك نال عثمان الخلافة .

ولما تمت البيعة لعثمان خطب الناس فقال : إنكم في دار قلعة ^(١) ، وفي بقية أعمار . فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه ، فلقد أتيتم صبحتم أو مسيتم . ألا وإن الدنيا طويت على الغرور ، فلا تخربنكم الحياة ولا يغرنكم بالله الغرور . اعتبروا بمن مضى ، ثم جدوا ولا تغفلوا ، فإنه لا يُغفَل عنكم . أين أبناء الدنيا وإخوانها الذين أثاروها وعمروها وامتسعوا بها طويلا ؟ ألم تلتفظهم ؟ ارموا بالدنيا حيث رمى الله بها ، واطلبوا الآخرة فإن الله قد ضرب لها مثلاً فقال : (واضرب لهم ممثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به

(١) بضم القاف وتسكن اللام أو ضمها أو فتحها دار انقلاع ليست بمستوطن .

نباتُ الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقدراً .
المالُ والبنونَ زينةُ الحياةِ الدنيا والباقيات الصالحاتُ خيرٌ عند ربك ثواباً
وخَيْرٌ أَمْلاً (سورة الكهف ٨ : ٤٥) .

أرسل عثمان إلى الولاية والقواد وعمال الخراج وعامة المسلمين بالإنصار، كتباً
يحثهم فيها على الأخذ بالمعروف، والنهي عن المنكر، والعطف على أهل الذمة،
وجباية الخراج بالعدل والإنصاف، ونصح عمال الخراج في هذه الكلمات : « أما
بعد فإن الله خلق الخلق بالحق، فلا يقبل إلا الحق . خذوا الحق وأعطوا الحق
به، والأمانة الأمانة، قوموا عليها ولا تكونوا أول من يسلبها، فتكونوا شركاء
من بعدكم . الوفاء الوفاء ! لا تظلموا اليتيم ولا المعاهد فإن الله خصم لمن ظلمهم » .
أخذت الجيوش الإسلامية في عهد عثمان تتدفق على الأمصار التي لم يتم
فتحها في عهد عمر بن الخطاب، حاملة راية الإسلام، رافعة لواء كلمة التوحيد .
فقد فتحت بلاد أرمينية، وإفريقية، وقبرص، وواصل المسلمون العمل على توطيد
نفوذهم في بلاد الفرس التي انتقض بعضها . وفي عهده فتحت بلاد طبرستان .

وقد قيل إن جيش المسلمين كان يضم الحسن والحسين ابني علي، وعبد الله
ابن العباس، وغمرو بن العاص، والزبير بن العوام . كذلك اضطر ملك جرجان
إلى طلب الصلح، وفتحت بلاد خراسان من جديد، وأرغم الأحنف بن قيس
قائد عثمان أهل طخارستان على طلب الصلح، وفتح الجوزجان عنوة، ثم عبر نهر
جیحون، فصالحه أهالي بلاد ماوراء النهر . كما وجه عثمان عبد الله بن أبي سرح لغزو
بلاد النوبة، فبلغ دنقلة، وقاتل أهلها قتالاً شديداً . وفي عهده نشب القتال بين
عبد الله بن سعد وبين الروم تحت قيادة ملكهم قسطنطين بن هرقل في البحر
الأبيض على مقربة من الإسكندرية . وكان النصر للعرب في هذه الموقعة التي عرفت
بموقعة السوارى، لكثرة سوارى السفن التي اشتركت في المعركة، حتى قيل إنه
اشترك فيها ألف سفينة؛ منها مائتان للمسلمين . هكذا تمت في عهد عثمان الغلبة
للمسلمين في البر والبحر .

وإلى عثمان يرجع الفضل في تدوين مصحف يقرؤه المسلمون في كافة الأمصار. وقد لاحظ حذيفة بن اليمان قائد المسلمين في غزو أذربيجان اختلاف المسلمين في قراءة القرآن، فأشار على الخليفة عثمان بتدوين مصحف يقرؤه جميع المسلمين. فجمع عثمان الصحابة، وأخبرهم بما أشار به حذيفة، فوافقوه على هذا الرأي، وأرسل عثمان إلى حفصة بنت عمر أن تبعث إليه بالمصحف التي كتبت في عهد أبي بكر، ونسخت منها عدة نسخ لإرسالها إلى الأمصار الإسلامية. وقد قام بهذا العمل الجليل زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وأمرهم عثمان بأن يكتبوا ما يختلفون فيه بلسان قريش. وأرسل عثمان إلى أهالي الأمصار بأن يعتمدوا على المصحف الجديد، ليجمع الناس على وجه واحد في قراءة القرآن خشية ما قد يقع بينهم من التحريف فيضيع إعجازه. وقد لاقت هذه الفكرة قبولا في نفسه، فعول على نسخ المصحف تلافيا لما قد يجر إليه التهاون في هذا الأمر الخطير من العواقب السيئة. وسرعان ما أرسلت حفصة بنت عمر المصحف إلى عثمان، لتنسخ منها عدة نسخ، لإرسالها إلى الأمصار، وقام بهذا العمل زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وأمرهم عثمان بأن يكتبوا ما يختلفون فيه بلسان قريش.

وصفوة القول أن الله سبحانه شاء ألا تعبت بالقرآن الكريم يد التحريف والتبديل، فقال في كتابه العزيز: (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) (سورة الحجر ١٥: ١٩). وقد أحسن عثمان إلى المسلمين كل الإحسان؛ إذ لو لم يتدارك هذا الأمر بحكمته وبعد نظره لنال القرآن من التبديل والتحريف أكثر مما نال غيره من الكتب السماوية الأخرى.

ولا عجب فعثمان أفضل من قرأ القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم؛ روى عنه كثير من الصحابة منهم أبناءه عمرو وأبان وسعيد، ومولاه حمران، وأنس بن مالك، وأبو أمامة بن سهل، والأحنف بن قيس، وسعيد بن المسيب، وأبو وائل، وطارق ابن شهاب، وأبو عبد الرحمن السلمي، وعلقمة بن قيس، ومالك بن أوس، وغيرهم.

كان عثمان رضى الله عنه تقيا ورعا ، يحيى الليل بركعة يقرأ فيها كثير من القرآن ، ويحج بيت الله كل عام . كان وفيا للعهد ، أميناً على السر ، حتى وثق به الرسول . روى عن عائشة أنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ادعوا لى بعض أصحابى ، فقلت : أبا بكر ، قال : لا ! فقلت ، عمر ، قال : لا ! فقلت : ابن عمك على ؟ قال : لا ! فقلت : عثمان ! قال : نعم ! فلما جاء قال لى بيده ، فتنحيت ، فجعل الرسول يسارته ولون عثمان يتغير . فلما كان يوم الدار وحصر قيل له : ألا تقاتل ؟ قال : لا ، إن رسول الله عهد لى عهداً وأنا أصابر نفسى عليه .

وكان عثمان لا يقيم ولا يوقظ نائماً من أهله إلا أن يجده يقظان ، فيدعوه فيناوله وضوءه . وكانت الخصلة التى ميزه بها النبي فيما روى المحدثون وأصحاب السير : صدق الحياء . وكان النبي يقول : إن الملائكة لتستحي من عثمان . وكان النبي يلقي أصحابه متفضلاً غير متكلف . فإذا أذن لعثمان احتشم وقال : كيف لا نستحي من رجل تستحي منه الملائكة ؟ وكان الرسول يعلل احتشام عثمان حين يأذن له ، بأنه إن لم يفعل استحي أن يثبت بين يديه ، وأن يبلغه حاجته ، ويأخذ حظه من التحدث إليه .

كان عثمان ربعة ، ليس بالطويل ولا بالقصير ، حسن الوجه ، رقيق البشرة ، كبير اللحية عظيمها ، أسمر اللون ، كثير الشعر ، ضخم الكراديس ، (١) بعيد ما بين المنكبين ؛ وكان يصفر لحيته .

كان عثمان موسراً ينعم بما ينعم به الأغنياء ، فيسكن فى داره بالمدينة ، وقد بناها بالحجر والكلس ، وجعل أبوابها من الساج والعرعر (شجر السرو) . وقد امتلك الأموال والجنان والعيون بالمدينة وغيرها . وكان إذا حج ضرب له فسطاط يبنى . وكان يأكل ألين الطعام وأطيبه . وقد روى أنه كان يشد إسنانه بالذهب ، ويلبس أخف الثياب . وكان يحب التوسعة على الناس ، ولم يقتصر على إعطائهم الكفاف من العيش كما كان يفعل عمر بن الخطاب ، إذ لم يرض أن يأخذ الناس

(١) الكردوسة : كل عظمين التقيا فى مفصل .

بأكثر مما فرضه الله سبحانه وتعالى عليهم ، فلم يحجر على كبار الصحابة ، ولم يمنعهم من الخروج إلى الولايات ، فالتف الناس حوله ، وافتنوا به ، وشهدوا ألوان النعم ومظاهر الحضارة في البلاد التي خرجوا إليها . وهذا أخشى ما كان يخشاه عمر ، إذ منعهم من الخروج خشية أن يتركوا حياة التقشف والزهد ، فتفتنهم الأموال ويلهبهم عراض الدنيا . ولم يراقب عثمان ولاته كما كان يراقبهم عمر ، بل أطلق لهم العنان ، فجمعوا الثروات الضخمة ، واتخذوا الخدم والحشم ، وبدءوا يظهرن بمظهر البذخ والترف . فشيد الزبير بن العوام دورا فخمة في المدينة والكوفة والفسطاط والإسكندرية ، كما كان لسعد بن أبي وقاص قصر فخم في وادي العقيق بالمدينة . ولم يكن تساهل عثمان تهاونا في حقوق الله وإغضاء عن حرمانه ؛ فقد كان يبحث الناس على التمسك بالدين ، ويضرب على أيدي المستهترين ، وأرسل طائفا بالعصا يمنع الذين اعتادوا السكر ، وهدد بالنفي عن المدينة كل من عكف على البدع . ولكن عثمان كان سهلا لينا ، لم يكن له حزم أبي بكر ولا شدة عمر ، وهي صفات لا بد منها لإدارة دولة مترامية الأطراف ، وخاصة في دور انتقال العرب من البساطة والزهد إلى الغنى والاستمتاع بخيرات البلاد المفتوحة . وقد أثار عثمان بسياسته هذه سخط فريق من الصحابة المتزمين الحريصين على أن تظل التقاليد التي وضعها عمر على ما كانت عليه . فقد انتشر في المدينة بعض أنواع اللهو مما اضطر عثمان إلى الضرب على أيدي أصحابها ونفيهم من المدينة ، فتدمروا وتدمر ذوهم . وقد ذكر المؤرخون عدة أشياء استحدثها عثمان في الدين لم يسبق بها في عهد الرسول ، ولا في عهد أبي بكر وعمر . فهو أول من أقطع القطائع ، وخفض صوته بالتكبير ، وأمر بالأذان الأول يوم الجمعة ، وقدم الخطبة في العيد على الصلاة ، وفوض الناس إخراج زكاتهم ، وأخذ الزكاة على الخيل بعد أعنى الرسول الناس منها ، كما حمى الحمى (١)

(١) الحمى موضع فيه كلاب يحمي من الناس أن يرمى . قال الشافعي رضي الله عنه في تفسير قوله صلى الله عليه وسلم : لا حمى إلا لله ورسوله . وكان الشريف من العرب في الجاهلية إذا نزل بلدا في عشيرته استعوي كلبا فحماي لخاصته مدى عواء الكلب لا يتركه فيه غيره . وقد نهى الرسول أن يحمي على الناس حمى كما كانوا في الجاهلية يفعلون .

فيقال إنه حمى الحمى لإبل الصدقة وإبله وخيله وإبل بني أمية وخيلها .
ولما لامه المسلمون على ذلك ، كانت حجته ، أنه إنما أراد ألا يكون هناك اختلاف
بين الأفراد والدولة فيما يتصل بالمرامى .

ومما زاد في غضب الصحابة خاصة والقرشيين عامة على عثمان ، أنه آثر
فريقا من أهله بالخير ، واختصهم بالرعاية ؛ فأعاد عمه الحكم بن أبي العاص وأهله
إلى المدينة ، وكان الرسول قد أخرجهم منها بسبب إيذاء الحكم له . ولمامات
الحكم ، ضرب عثمان على قبره فسطاطا ، وولى ابنه الحارث سوق المدينة ، فأساء
السيرة ، وطمع في جمع المال . كما آثر مروان بن الحكم ، فاتخذ وزيراً ومشيراً :
فأنكر المسلمون ذلك ، وسعى إليه أعلام الصحابة فلاموه فيه ، ولكنه زعم لهم
أنه كلم النبي في رد الحكم ، فأطمعه في ذلك ، ثم توفي قبل أن يرده .

كما نقم المسلمون على عثمان ، أنه عزل ولاية عمر عن الأمصار ، وولى ذوى قرابه
ومن بينهم وبينه صلة . وقد غضب أهل الأمصار . كما غضب أهل المدينة . حين وجدوا
إلى جانب المنفيين المتدمرين من عثمان طابقتين من الشعب ، هما : طبقة موسرة
أو جدها عثمان ، وطبقة أخرى معدمة حقدت عليه ؛ وأثارت روح المعارضة لسياسته ،
وهيأت السبيل لأبي ذر الغفاري ذلك الصحابي الجليل ، الذى تحدى سياسة عثمان ،
كما هيأت السبيل لعبد الله بن سبأ ، الذى تحول من اليهودية إلى الإسلام ،
وأخذ يتنقل فى البلاد الإسلامية ، وحرص أباذر على معاوية ، وكان يلى بلاد الشام
من قبل عثمان ، فأعلن استيائه من سياسته ، وأخذ يحض الأغنياء على الرحمة
بالفقراء ، حتى لقد نفاه عثمان إلى الربذة لثلاثين يوماً ، ولم يكف
ابن سبأ عن إثارة الفتنة فى البصرة ، ثم فى الكوفة حيث لعن عثمان جهاراً ، وخاض
الناس فيما ارتكب من عظام الأمور . ثم رحل ابن سبأ إلى الشام . وأخذ يؤلب
الناس على حكومة عثمان . وكذلك غضب بنو غفار وأحلافها لما نال أباذر ، كما نقم
بنو مخزوم على عثمان ما صنعه بعمار بن ياسر ، فسارع هؤلاء إلى إجابة دعاة
الثورة .

وقد حقق ابن سبأ ما كان يرمى إليه من تأليب أهل الولايات الإسلامية على عثمان وولاته؛ فانضم إليه كثيرون من أصحاب النفوذ والجاه، من أمثال محمد بن أبي حذيفة، ومحمد بن أبي بكر، وعمار بن ياسر. وقد قام هؤلاء بتنفيذ الخطة التي رسمها ابن سبأ، فكتب أهل مصر أشياعهم من أهل البصرة والكوفة، وانفقوا على الشخوص إلى المدينة. وخرج كل منهم في ستائة رجل، وتوافوا خارج المدينة. وقد شعر عثمان بهذا الخطر المحقق به، فأجاب ودمصر إلى مطالبه، ففقل راجعا. وبنناهم في الطريق، رأوا راكبا يتعرض لهم تارة ويفارقهم أخرى، ففتشوه، فإذا هو يحمل كتابا عن لسان عثمان يأمره فيه بقتلهم؛ فعادوا إلى المدينة، ودخلوا على عثمان، فأنكر ما نسب إليه؛ وثبت أن مروان بن الحكم هو الذي بعث بهذا الكتاب دون أن يعلم عثمان؛ فحاصروا عثمان اثنين وعشرين يوما فقام فريق من الصحابة يدافعون عنه. ولما وجد الثوار أن موسم الحج قد انتهى، وأن المدد الذي طلبه عثمان من الولايات الإسلامية أوشك أن يباغتهم، اقتحموا عليه داره بعد أن حاصروه تسعة وأربعين يوما.

وبعد أن دار القتال بين الثائرين وبين من تصدى للدفاع عنه، كمحمد بن أبي بكر، والحسن والحسين ابني علي، وعبدالله بن الزبير، قال أحدهم لعثمان: علي أي دين أنت يا عثشل؟ فقال: علي دين إبراهيم حنيفا مسلما وما أنا من المشركين. قال: كذبت. وقد قتله الخافقي بحديدة كانت معه، وجاء غيره ليضربه بسيفه، فأكبت عليه زوجته نائلة، وتلقت السيف عنه بيدها، ففقطع إصبعها. وقد سقطت قطرات من دمه على المصحف على قوله تعالى (فسيكفيكم الله وهو السميع العليم). ثم نهب الثائرون بيت الخليفة الرشيد الثالث وهو عثمان بن عفان رضي الله عنه، كما نهبوا بيت المال، وكان ذلك في الثامن عشر من شهر ذي الحجة يوم التروية (١) سنة خمس وثلاثين للهجرة، بعد أن حكم اثنتي عشرة سنة، وكان قد ناهز الثمانين. ويظهر أن أهل المدينة قد تواكلوا في الدفاع عن عثمان، إذ يبعد أن

(١) يوم التروية: تامن ذي الحجة لأن الماء كان قليلا بمنى فكانوا يرتوون من الماء لا بعد.

يعجزوا عن نصرته وصد تلك الفئة الباغية عنه ، وهم الذين مروا على الحروب ، وبرهنوا في موافقهم مع رسول الله وأبي بكر وعمر عن شجاعة نادرة واستبسال لا يزال مضرب الأمثال . فلو أنهم نشطوا للدود عن عثمان ، لما تمكن الثوار مع قلة عددهم من قتله والاستبداد بالأمر والتمكن من المدينة ومن بها ، مع منافاة ذلك لما يقضى به الشرع من تحريم الخروج على الإمام إلا في معصية ، إنما ينبغي أن يسدى إليه النصح ، ويحذر في رفق ، حتى يسلك طريق الحق والصواب .

قالت عائشة لما بلغها قتل عثمان : قتلوه ، وإنه والله لأوصلهم للرحم وأتقاهم للرب ، ثم هو أحد العشرة المبشرين بالجنة . وقد وصفه عبدالله بن عباس فقال : رحم الله أبا عمرو ! كان والله أكرم الجعدة (١) ، وأفضل البررة ، هجادا بالأسحار ، كثير الدموع عند ذكر النار ، نهاضا عند كل مكرمة ، سباقا عند كل منحة ، حيا ، أيما ، وفيها ، فلا أعقب الله على من يلعنه ، لعنة اللاعنين إلى يوم الدين .

كان مقتل عثمان بعيد الأثر في تاريخ المسلمين . فإن هذه الفتنة التي أدت إلى قتله قد أثارت هذه الحروب الأهلية التي مزقت وحدة الإسلام شرمزق . وليس من شك في أن كثيرين من جلة الصحابة قد نفضوا أيديهم من تلك الفتنة ظنا منهم أن عثمان قد يخلع نفسه إذا اشتد عليه الحصار . على أن قتل عثمان لم يرض كثيرين من المسلمين ، بل لقد ساءهم ، فأنكروا موته ، وعولوا على الأخذ بثأره ، وورثاه الشعراء . من ذلك ما قاله حميد بن ثور الهلالي (٢)

إِنَّ الْخِلاَفَةَ لَمَّا أَظْمِنْتَ ظَمِنْتَ (٣)

عن أهل يَثْرِبَ إِذْ غَيْرَ الْهُدَى سَلَكَوا

صارت إلى أهلها منهم ووارثها (٤)

لما رأى الله في عثمان ما انتهكوا

(١) الحمد : الكريمة .

(٢) ديوان أبي ثور الهلالي طبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٥١ ص ١١٤ و ١١٥

(٣) أظمنت بالبناء للمفعول : أظمنتها لله أي صيرها إلى غيرهم .

(٤) وهم وورثها جزاء وفاقا على ما فعلوا بثمان .

السَّافِكِي دَمَهُ ظُلْمًا وَمَعْصِيَةً
 أَيَّ دِمٍّ — لَا هُدُوءًا — مِنْ غَيْبِهِمْ سَفَسَكُوا
 وَالْهَاتِكِي سِتْرَ ذِي حَقٍّ وَحَرَمَةَ (١)
 فَأَيَّ سِتْرٍ عَلَى أَشْيَاءِهِمْ هَتَكُوا
 وَالْفَاتِحِي بَابَ قَتْلِ لَا يَزَالُ بِهِ
 قَتْلٌ بِقَتْلِ إِلَى دَهْرٍ ، وَمُعْتَرِكُ (٢)
 وَالْخَيْلُ عَابِسَةٌ نَضَحُ الدَّمَاءَ بِهَا
 تَنْعَى ابْنَ أَرْوَى (٣) عَلَى أَبْطَالِهَا الشُّكَّكَ (٤)
 مِنْ كُلِّ أَيْبَضَ هِنْدِيٍّ (٥) وَسَابِقَةٍ (٦)
 تَغْشَى الْبِنَانَ لَهَا مِنْ نَسْجِهَا حُبُّكَ (٧)
 قَدْ نَالَ جُلَّهُمْ حَصْرٌ بِمَحْصَرَةٍ (٨)
 وَنَالَ فُتَّاكَهُمْ فَتَكَ بِمَا فَتَكُوا

وقال حسان بن ثابت يرثي عثمان بن عفان :

أَوْفَتْ بَنُو عَمْرٍو بِنِ عَوْفٍ نَذْرَهَا وَتَلَوْتُ غَدْرًا بَنُو النَّجَارِ (٩)

(١) المحرمة ، بفتح الواو وضمها ، مالا يحل انتهاكه . وهتكوا : قطعوا وخرقوا .

(٢) المعترك ومثله الممرك : موضع العراك والقتال .

(٣) أروى بنت كرز : أم عثمان .

(٤) الشكك : السلاح .

(٥) أبيض هندي : يريد السيف .

(٦) سابقة : يريد دورعا سابقة الى البنان .

(٧) الحيك : الطرائق .

(٨) الحصر : الحبس ، والمحصرة (بالفتح والضم) : مكانه . يقول : حبس أكثر وفتك

بالفتاك منهم .

(٩) قوله أوفت بنو عمرو نذرهما ، فذلك أنه لما حصر عثمان رضي الله عنه في داره جاء

بنو عمرو بن عوف إلى الزبير ، فقالوا : يا أبا عبد الله نحن نأتيك ثم نصير إلى ما تأمرنا به ، =

وتخاذاً يوم الحفيظة إنهم
ونسوا وصاة محمدي في صهره
أتركتموه مفرداً بمضيعة
لهفان يدعو غائباً أنصاره
هلا وفيتم عندها بعهودكم
جيرانه الأذنون حول بيوته
إن لم تروا مدداً له وكتيبة
ليسوا هنا لكم من الأخيار (١)
وتبدلوا بالعز دار بوار (٢)
تفتابه الغوغاء في الأمصار (٣)
يا ويحككم يامعشر الانصار
وقد يتم بالسمع والأبصار
غدروا ورب البيت ذي الأستار (٤)
تهدي أوائل جحفل جرار (٥)

== فبعث الزبير أباحبيبة الى عثمان ، وقال له : أقرئه السلام ، وقل له : يقول لك أخوك ان بنى عمر ابن عرف جاءوني ووعدوني أن يأتيوني ، ثم يصبروا الى ما أمرتهم به ، فان شئت أن آتيك ، فأكون رجلاً من أهل الدار يصيبني ما يصيب أحدهم فعلت ، وان شئت انتظرت ميعاد بنى عمرو ، فأدفع بهم عنك فعات . قال أبو حبيبة : فأبلغت عثمان رسالة الزبير ، فقال : الله أكبر . الحمد لله الذي عصم أخى . قل له : إنك انت تأت الدار تسكن رجلاً من المهاجرين ، حرمة حرمة رجل ، وعناؤك عنه رجل . ولسكن انتظر ميعاد بنى عمرو بن عرف ، فعسى الله أن يدفع بك . فبادر الذين قتلوا عثمان ميعاد بنى عمرو بن عرف ، فقتلوه .
وقوله : وتلونت : أي تططخت ، وقد كان الثائرون تسوروا دار عثمان من دار أحد بني النجار ، ولذلك تلوثوا بالقدر .

(١) قوله يوم الحفيظة : فالحفيظة . الغضب لحرمة تنمك من حرماتك ، أو جار ذى قرابة يظن من ذوبك ، أو عهد ينكث . وقال زهير :
يسوسون أحلاماً يعيدا أناسها

وان غضبوا جاء الحفيظة والجد
راجع : عبد الرحمن البرقوقي : شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصارى (القاهرة ١٣٤٧ هـ
١٩٢٩ م) س ١٨٣ - ١٨٤ .

(٢) قوله : ونسوا وصاة محمدي في صهره ، فقد روى عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : يا عثمان انه لعل الله يقمصك قيصاً ، فان أرادوك على خلقه ، فلا تخلمه لهم . والمراد الخلافة التي طالبه المحاصرون بالتنازل عنها ، فلم يقبل .
(٣) قوله : بمضيعة أى بدار ضياع ، وأصل الغوغاء الجراد حين يخف للطيران ؛ ثم استعير للسفلة من الناس والفسرعين إلى الشر .

(٤) جيرانه الذين تسور الثائرون الى دار عثمان من دار أحدهم بنو النجار .
(٥) ان لم تروا له جيشاً جراراً يأخذ بثأره ويبيح بصرار (هو جبل قريب المدينة عدت أهلها)

فَعَدِمْتُ مَوْلِدًا بِنُ عَمْرٍو مُنْذِرٍ حَتَّى يُنْبِخَ جَمْعُهُمْ بِحِرَارِ (١)
وَاللَّهِ لَا يُؤْفُونَ بَعْدَ إِمَامِهِمْ أَبَدًا وَلَوْ أَمْنُوا بِحِلْسِ حِمَارِ (٢)

تزوج عثمان بن عفان رضى الله عنه رقية وأم كلثوم ابنتى الرسول الكريم، فولدت له رقية: عبد الله. ثم تزوج فاخنة بنت غزوان بن جابر بن نسيب بن وهيب من قيس عيلان، فولدت له: عبد الله الأصغر. ثم تزوج أم عمرو بنت جندب ابن عمرو بن الحارث من دوس من الأزدي، فأنجب منها عمراً، وخالداً، وأباناً، وعمر، ومريم.

كما تزوج عثمان فاطمة بنت الوليد بن عبد شمس بن المغيرة، فأنجبت له: الوليد، وسعيد، وأم سعيد. ثم تزوج أم البنين بنت عينية بن حصن، فولدت له عبد الملك، وعتبة. وقيل إنه طلقها والثوار يحاصرون داره. وتزوج رملة بنت شيبه بن ربيعة، فولدت له عائشة، وأم أبان، وأم عمرو. ثم تزوج نائلة بنت الفرافصة بن الأحوص، فولدت له عنيسة، ومريم، وأم البنين التى تزوجت عبد الله بن يزيد بن أبى سفيان. ولما قتل عثمان كان فى عصمته ثلاث نسوة، هن رملة بنت شيبه، وفاخنة بنت غزوان، ونائلة التى اتقت السيف بيدها فقطع إصبعها.

(١) وعمرو ومنذر جدا حسان .

(٢) يقول : لو ائتمنوا بعد ذلك على حلس حمار ما وفوا به . والحلس كداء رقيق يكون تحت البردعة . أو كل شيء ولى ظهر الدابة تحت الرجل والقتب والسرجه والبردعة وهى بمزلة المرشحة تكون تحت اللبد .

٤ - علي بن أبي طالب

« أنت أخى فى الدنيا والآخرة »

علي بن أبي طالب ، هو ابن عم الرسول ، وزوج ابنته فاطمة الزهراء ، وأول عربى وأعجمى صلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان لواؤه معه فى كل زحف . وهو الذى غسله وأدخله قبره ، غير مبال بما كان يجرى فى سقيفة بني ساعدة حول اختيار خليفة للرسول . وهو قاضى الأئمة ، وفارس الإسلام . جاهد فى الله حق جهاده ، ونهض بأعباء العلم والعمل ، وقد شهد له النبي صلى الله عليه وسلم بالجنة فقال : من كنت مولاه فعلى مولاه ، ثم قال : لا يحبك إلا مؤمن ، ولا يبغضك إلا منافق .

وعلى كرم الله وجهه هو ابن أبي طالب بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبدمناف ابن قصي ؛ يكنى أبا الحسن . وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبدمناف ، وهى أول هاشمية ولدت لهاشمي ، وقد توفيت على الإسلام قبل هجرة الرسول إلى المدينة المنورة .

ولد على قبل البعثة بعشر سنين ، وكان أبوه أبو طالب كثير العيال . فلما أصاب مكة جرب ، سأل الرسول عمه العباس أن يخفف عن أبي طالب مشقة العيش بأن يعول بعض ولده ، وذهب الرسول والعباس إلى أبي طالب ، وعرضا عليه المساعدة فقبل ، فضم العباس إليه جعفرا وضم الرسول عليا . وقد نشأ على فى بيت الرسول الكريم ، وعاش فى كنفه ، ونعم بقربه ، وظفر بعطفه ، وكان أقرب الناس إلى

قلبه وأحبهم إلى نفسه .

ولما بعث الله سبحانه وتعالى محمداً إلى الناس مبشراً وهادياً ونذيراً ، كان علي ابن أبي طالب أول من اقتبس من ذلك النور الإلهي ، فأنشراح صدره بهذه الدعوة الكريمة ، ولما يناهز الثالثة عشرة من عمره . وقد قيل إن الرسول لما دعا العرب إلى الإسلام ، وأحجم القوم عن مناصرته ، صاح علي في حماسة الصبي قائلاً : « أنا يابني الله أكون وزيرك عليه » .

هكذا كان علي أول من أسلم بعد خديجة رضوان الله عليها . وقد روى عنه أنه قال : لقد عبت الله قبل أن يعبده أحد من هذه الأمة خمس سنين . فكان بذلك أول من صلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . روى عن انس بن مالك أنه قال : استنبيء النبي صلى الله عليه وسلم يوم الإثنين ، وصلى علي يوم الثلاثاء .

وروى يعقوب بن إبراهيم بن سعد قال : حدثنا يحيى بن الأشعث عن إسماعيل ابن إلياس بن عفيف الكندي عن أبيه عن جده قال : كنت امرأ تاجر افقدت الحج ، فأتيت العباس بن عبد المطلب لأبتاع منه بعض التجارة . وكان امرأ تاجر ، فوالله إنني لعنده بمنى ، إذ خرج رجل من خباء (١) قريب منه ، فنظر إلى الشمس ، فلما رآها قد مالت قام يصلي . ثم خرجت امرأة من ذلك المخبأ الذي خرج منه ذلك الرجل فقامت خلفه تصلي . ثم خرج غلام قد راهق الحلم من ذلك المخبأ فقام معها يصلي ، فقلت للعباس : من هذا يا عباس ؟ قال : هذا محمد بن عبد الله بن أخي ، قلت : من هذه المرأة ، قال : هذه امرأته خديجة بنت خويلد ، قلت : من هذا الفتى ، قال : علي بن أبي طالب ابن عمه ، قلت : ما هذا الذي يصنع ؟ قال : يصلي ، وهو يزعم أنه نبي ، ولم يتبعه فيما ادعى إلا امرأته وابن عمه هذا الغلام ، وهو يزعم أنه سيفتح عليه كنوز كسرى وقيصر .

نشأ علي في هذا البيت الذي ترفرف عليه أجنحة العناية الإلهية ، ويتضوع بأريج الدعوة المباركة ، ويشع منه نور الهداية المحمدية ، فنشأ علي الفضيلة

(١) الخباء اسم لما خفي ..

والتقى والورع وخشية الله تعالى ، وظل يشارك الرسول أفراحه وأتراحه ، ويقاسمه حلو العيش ومره : يفرح إذا رأى الدعوة الإسلامية مرفوعة اللواء ، ويبتسئ إذا أصاب الرسول ضرر قريش وإيذاؤها في هذه الدعوة الكريمة . . . ولما وصل نبأ تحالف الرسول مع أهل يثرب ، وتآمر القرشيون على اغتياله ، خرج هو وأبو بكر مهاجرين بعد أن أمر الرسول على بن أبي طالب أن يبيت في مكانه تلك الليلة . فقبل على عن طيب خاطر أن يبذل روحه فداء للرسول الكريم ، ضاربا أروع الأمثال في التضحية والإيثار .

ثم أدرك الرسول يثرب سالما على بركة الله ، وتتابع المسلمون إلى المدينة مهاجرين ، فهاجر على مع من هاجر من المسلمين . ثم آخى الرسول بين المهاجرين والأنصار وقال لعلي : أنت أخي في الدنيا والآخرة ، وأخي بينه وبين نفسه .

وبلغ من حب الرسول لعلي أن زوجه من ابنته فاطمة الزهراء سيدة نساء أهل الجنة ، بعد أن خطبها أبو بكر وعمر منه ، فاعتذر في رفق . وقد أشار بعض الصحابة على علي أن يخطب فاطمة من أبيها ، فقال لها الرسول : إن عليا يذكرك ، وقال له : أهلا وسهلا ! وكانت هذه علامة الرضا .

وكان صداق فاطمة خمسمائة درهم ، أي نحو اثنتي عشرة أوقية ونصف . وكان فيما جهزت به فاطمة سرير مشروط ، ووسادة من أدم حشوها ليف وتور (١) من أدم ، وقربة ومنخل ، ومشفة وقدح . وأهدت بعض النسوة إليها بردين من برود الأول عليها دملوجات من فضة مصفرات بزعفران . وقد تزوج منها علي في شهر رجب بعد مقدم النبي المدينة بخمسة أشهر ، وبني بها بعد أن عاد من غزوة بدر ، وكانت في الثامنة عشرة من عمرها .

كان علي للرسول الساعد الأيمن في المدينة المنورة ، كما كان الولد البار في مكة . فلما التقى المسلمون بالمشركين يوم بدر ، اشترك علي في القتال وهو في العشرين من عمره ، في ريعان الفتوة وعنفوان القوة ، ودفع الرسول إليه الراية ، فأبلى في القتال

(١) إناء يشرب فيه .

البلاء الحسن . ثم أقبل المحاربون بعد انتهاء القتال ، فافتقدوا الرسول فلم يجدوه ،
 فنادت الرفاق بعضها بعضا : فيكم رسول الله ؟ فوقفوا حتى جاء الرسول ودعه على
 كرم الله وجهه ، فقالوا : يا رسول الله ! فقدناك فقال : إن أبا الحسن وجد مغصا
في بطنه فتخلفت عليه . فانظر مبلغ حب الرسول عليا وإيثاره إياه وتضحيته
 بالتخلف عن الركب وهو يعلم أن الخطر محقق به إذا دهمهم المشركون .
 اشترك علي في المشاهد كلها : في أحد ، وفي الخندق ، وفي غيرهما ، فأبلى بلاء
 عظيما : اللواء في يده يخوض المنايا غير هياب ولا وجل . ولما كان يوم خيبر
 وقد أمعن المسلمون في قتال اليهود ، واستمر القتال ، ولم يكن بدمن أن يبذل المسلمون
 جهودا شاقة لاقتحام هذه القلعة وكسر شوكة اليهود ؛ قال الرسول : لأعطين
 الراية رجلا يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله ، فتناول المسلمون لها فقال :
 ادعوا لي عليا ! فأتاه وبه رمد فصق في عينيه ودفع الراية إليه ، ففتح الله عليه ،
 فنزلت هذه الآية : (قلل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم) ؛
 فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا وفاطمة وحسنا وحسينا فقال : اللهم هؤلاء
 أهلي ، وشد علي علي المشركين . وكان يضرب على الهامة ، فيسمع أهل العسكر صوت
 الضرب ، فترجع العدو وفتح الله على المسلمين . ومما روى عن شجاعة علي يوم خيبر ، أنه
 اجتذب باب الحصن فألقاه على الأرض ، ثم اجتمع عليه سبعون رجلا حتى أعادوه .
 وكان الرسول يختار عليا لصعاب الأمور التي تتطلب الشجاعة الفائقة والحكمة
 العالية . فقد بعث الرسول خالد بن الوليد إلى اليمن يدعو أهلها إلى الإسلام ،
 فأقام ستة أشهر لا يجيبونه إلى شيء ، فبعث عليا وأمره أن يعيد خالد . فلما انتهى
 علي إلى اليمن ، وبلغ القوم الخبر ، جمعوا له ، فصلى الفجر ، ثم تقدم بين أيدي
 الناس ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قرأ عليهم كتاب الرسول ، فأسلمت همدان كلها
 في يوم واحد ، وكتب علي بذلك إلى الرسول . فلما قرأ كتابه ، خر ساجدا ،
 ثم جلس الرسول فقال : السلام على همدان ، وتتابع أهل اليمن على الإسلام .
 ثم عهد إليه الرسول أن يقضى بينهم فقال : إني لا أدري ما القضاء . فضرب

الرسول بيده صدره وقال : اللهم اهد قلبه ، وسدد لسانه !
 خرج الرسول بعد فتح مكة لقتال مالك بن عوف ومن معه من هوازن وثقيف ،
 فشدوا على المسلمين ، فاختلفت صفوفهم ، ثم ولوا مدبرين . وأقام الرسول ينادى :
 أين أيها الناس ! هلموا إلي ! أنا رسول الله محمد بن عبد الله . ولم يبق حوله إلا
 نفر قليل من المهاجرين والأنصار وأهل بيت الرسول .

عند ذلك أمر الرسول عمه العباس بن عبدالمطلب — وكان جهورى الصوت
 بديننا — أن يصيح فى الناس : يا معشر الأنصار ! يا أصحاب السمره ! فأجابوه :
 لبيك لبيك ! واجتمع حوله مائة من الأنصار ، ونادى العباس : يا للأنصار !
 يا للخزرج ! فتكاثر الناس حوله . ولما أصبح الصباح ، خرج العدو ، وحمى القتال
 بينه وبين المسلمين ، وأهوى على بن أبى طالب إلى صاحب راية المسلمين ، فضرب
 عرقوبى جملة ، ووئب أحد الأنصار على الرجل فقتله . وتمت هزيمة المشركين
 وتفرقت فلولهم ، وخرج الرسول ظافرا منتصرا ، بفضل الله وشجاعة المسلمين ،
 وما أبداه على بن أبى طالب من إقدام وبسالة .

وفى غزوة تبوك استخلف الرسول عليا على المدينة ، وعلى من يعولهم من بعده
 وقال له : أنت منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدى .
 وإذا أردنا أن نبين كيف كان الرسول الكريم يحب عليا ، ويؤثره حتى على
 نفسه ، ويدنيه منه ، لأطلمانا فى القول . ويكفى أن نقول إن الرسول صلى الله عليه
 وسلم كان يقول : إن عليا وليى فى الدنيا والآخرة ، وأخذ رداءه ، فوضعه على على
 وفاطمة وقال : إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت .

ثم انتقل الرسول إلى جوار ربه ، واجتمع الأنصار فى سقيفة بنى ساعدة فى
 المدينة ، وجاء المهاجرون ، واحتدم الخلاف بين الفريقين . ولكن عليا كان مشغولا
 بذلك الخطب الجسيم الذى نزل بساحة المسلمين ، وهو وفاة الرسول عليه أفضل
 الصلاة والسلام . فأوى على إلى بيت فاطمة وقضى يومه فى تجهيزه ودفنه ، غير
 مبال بما كانت تموج به سقيفة بنى ساعدة : من تبادل رأى ، واحتدام الجدل فيمن

يخلف الرسول. ثم اختير أبو بكر خليفة للمسلمين ، وتخلف علي عن بيعته ، لا كرها
 لأبي بكر ، أو حطاً من قدره ، أو خروجاً عن جماعة المسلمين ، بل حزناً على الرسول
 صلى الله عليه وسلم ، ووفاء لذكراه ، ولو عته ؛ كما يبدو في العبارة المؤثرة التي رثى بها ابن عمه
 وصهره الذي رباه في بيته وحاطه بعطفه وزوجه من ابنته ، قال عليّ : « بأبي أنت
 وأمي يارسول الله ؛ لقد انقطع بموتك ما لم ينقطع بموت غيرك من النبوة والأنباء ،
 وأخبار السماء . خَصَصْتَ (١) حتى صرتَ مُسَلِّياً عَمَّنْ سِوَاكَ ، وَعَمَمْتَ
 حتى صار الناسُ فيك سواء . ولو لا أنك أمرتَ بالصبرِ ، وَنَهَيْتَ عن الجزعِ ،
 لَأَنْفَدْنَا عَلَيْكَ مَاءَ الشَّيْثُونَ (٢) ، وَلِكَانَ الدَّاءُ مِمَّا طَلَا ، وَالْكَمْدُ مِمَّا لَفَا ،
 وَقَلَّ لَكَ (٣) ، وَلَكِنَّهُ مَا لَا يُمْلِكُ رَدُّهُ (٤) وَلَا يُسْتَطَاعُ دَفْعُهُ : بِأَبِي أَنْتَ
 وَأُمِّي ، اذْكَرْنَا عِنْدَ رَبِّكَ ، وَاجْلَعْنَا مِنْ بَالِكَ . »

ولما ماتت فاطمة ، بايع عليّ أبا بكر راضياً غير مكره . فقد روى أنه قال
 لأبي عبيدة : « ما قعدت عن صاحبكم كارها له ، ولا أتيتته فرقا ، ولا أقول ما أقول
 تعلقة . وإني لأعرف منتهى طرفي ، ومحطاً قدمي ، ومنزع قوسي ، وموقع سهمي ؛
 ولكن قد أزممت (٥) علي فأسى ثقةً برني في الدنيا والآخرة . » ولكن أبا بكر لم
 يجد عليه بسبب تقاعسه عن بيعته أول الأمر ، بل أحبه وقربه إليه . وكيف لا

(١) خص النبي صلى الله عليه وسلم أقاربه وأهل بيته حتى كان فيه الغني والسلوة لهم عن جميع من
 سواه ، وهو برسالاته عام للخلق : فالناس في النسبة الي دينه سواء .

(٢) لأنفدنا : لأنفينا على فراقك ماء عيوننا الجاري من شئونه ، وهي منابع لدمع من الرأس .

(٣) مما طلا بالشفاء . والسكد بالحزن : ومخالفته : ملازمته . وقلا فعل ماضى متصل بألف التثنية ،

أى ماطلة الداء ، ومخالفة السكد ، قايلتان لك .

(٤) ما خبر لسن أي : لسنه الموت لا يملك رده الخ . وما حتم ونعمه لا يفهم الأسف عليه .

لأن الأسف وضع في النفوس لمداركة الغائب والحذر من الآتي

انظر محمد مجيب الدين عبد الحميد : شرح ديوان البلاغة للشريف أبي الحسن محمد الرضى بن

الحسن الموسوى من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ج ١ ص ٢٥٥ — ٢٥٦ .

(٥) أزم الفرس علي فأس اللجام : أي عض وأمسك ، يريد أنه كتم ما في نفسه من الشكوى .

يجب من أحبه الرسول، ويقرب من قربه الرسول؟ وكان عليّ - كما نعلم - من أعلام الصحابة وأولى الرأي فيهم، حتى كان أبو بكر يستشيره في مهام الأمور. ولما بويع عمر بن الخطاب لم يبخس عليا قدره، إنما أعلی ذكره، فأجلسه للقضاء بين الناس، وكان يقول عليّ أقضانا. وكان يستعين به في حل المعضل من الأمور، روى أنه كان يتعوذ بالله من معضلة ليس لها أبو حسن. من ذلك أن عمر رضی الله عنه أمر برجم امرأة وضعت لسته أشهر، فقال له عليّ: إن الله تعالى يقول: (وَحَمَلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا)، وقال له: إن الله رفع القلم عن المجنون، فقال عمر: لولا عليّ لهلك عمر.

وكان عمر إذا أعياه حل مسألة من المسائل أحالها على عليّ، وكان يقول للسائل: ما أجد لك إلا ما قال عليّ. وكان يقال إذا أشكل الأمر: «قضية ولا أبا حسن لها». ولما طعن عمر بن الخطاب خشي أصحاب الرسول أن يقضى نجه دون استخلاف: فلما ألحوا عليه، اختار ستة من الصحابة فيهم علي بن أبي طالب، وعبد الله بن عمر، وأوصى بأن تكون الخلافة للرجل الذي يقع عليه الاختيار. ولما اجتمع هؤلاء الصحابة ظهر التنافس بين عثمان وعليّ، أو بالأحرى بين بني هاشم وبني أمية، لأن الخلافة انحصرت فيهما تقريبا؛ إذ أن الناس كانوا لا يعدلون بهما أحدا غيرهما. وكاد الأمر يتم لعليّ، لولا أنه لم يتمش مع عبد الرحمن بن عوف بأن يسير على ماسنه أبو بكر وعمر، وأراد أن يعمل بمبلغ عليه، فصرفت عند الخلافة، برغم أنه المقدم في بني هاشم؛ لسبقه في الدين، وإخلاصه، وتضحيتته في سبيل نصرته الإسلام، ثم لأنه زوج فاطمة بنت الرسول.

ومما يدل على أن عليا كان يرغب في الخلافة، أن أهل الشورى لما اجتمعوا لم قال لهم: أنشدكم الله! هل فيكم أحد آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينه وبينه، إذ آخى بين المسلمين غيري؟ قالوا: اللهم لا! فقال: أنا عبد الله، وأخو رسول الله، لا يقوله أحد غيري إلا كذاب.

ولما آلت الخلافة إلى عثمان بايعه على ولازمه. ولكن محاباة عثمان بعض ذوى قرباه، غيرت رأى على فيه، فظن الناس أن العلاقة قد توترت بينهما. فلما قتل عثمان ظن بعض الناس أن لعل يدا في ذلك، ورموه بالهوادة في نصرته. والواقع أنه كان يجمل عثمان، لأنه كان من أقرب المقربين إلى الرسول صلى الله عليه وسلم. فلما حاصر الثوار داره بعث ابنه الحسن للدفاع عنه، وكان عثمان يسأله أن يكف، فكان يابى إلا أن يبذل نفسه في نصرته. ولما بلغه نبأ قتله قال: «من تبرأ من دين عثمان، فقد تبرأ من الإيمان، والله ما أعنت على قتله، ولا أمرت ولا رضيت.»

بويع على في المدينة بعد موت عثمان، وكان أكثر الصحابة متفرقين في الأمصار، ولم يكن بالمدينة منهم سوى عدد قليل، على رأسهم طلحة والزبير. وقد تردد بعض الصحابة في بيعته: كسعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمر، كما تردد بعض الأنصار: كحسان بن ثابت، ومسلمة بن مخرمة، وأبي سعيد الخدري، وكانوا يميلون إلى عثمان، وهرب بعض إلى الشام كالمغيرة بن شعبة، وتمت بيعته بالأغلبية على الرغم من تخلف بعض الصحابة الذين كانوا بالمدينة، وتخلف بنى أمية، ولحاق بعضهم بالشام، وبعض آخر بمكة. على أن انتخاب على كرم الله وجهه، وإن لم تكن بيعته عامة لتفرق أكثر الصحابة في الأمصار؛ فان مذهب ما لك برمته مبنى على رأى أهل المدينة الذين بايعوه.

وبعد أن آلت الخلافة إلى على، أراد أن يحكم وفق التقاليد التي سادت في زمن النبي صلى الله عليه وسلم وفي عهد أبي بكر وعمر، مع أن الأحوال كانت تستلزم شيئاً من الدهاء والسياسة، فبادر إلى عزل ولاية عثمان، برغم نصيحة بعض الصحابة له بإبقائهم حتى تهدأ الأحوال وتستقر الأمور، ونصح على الذين طالبوا بدم عثمان أن يترثوا، حتى إذا هدأت الأحوال، أجرى الحق بجره، وأنزل الجزاء بقتله عثمان. إلا أن نصائحه لم تجد أذناً مصغية، فقد عول معاوية على الأخذ بدم عثمان، وساء عائشة قتل الخليفة، وانضم إليها طلحة والزبير. وقد قيل إن طلحة كان يطمع

في ولاية العراق ، وأن الزبير كان يطمع في ولاية اليمن . فلما ولي على الولاية ، ولم يكن لها حظ في الولاية ، نقما عليه ، وندما على بيعتها له ، واستأذنا عليا في الخروج إلى مكة لأداء العمرة ، ولكنه فطن إلى ما اعتزما عليه ، فقال لهما : والله ما العمرة تريدان . وساء عائشة رضى الله عنها قتل عثمان - كما تقدم - وانضم إليها طلحة والزبير اللذان عملا على استمالة أهل البصرة . وسرعان ما خرج ثلاثتهم على رأس جيش من الساخطين إلى البصرة .

وفي منتصف شهر جمادى الآخرة من سنة ٣٦ هـ ، التقى الجيشان في مكان يقال له الخريبة على مقربة من البصرة ، حيث نشب القتال ، وعائشة راكبة في هودجها على جمل يسمى عسكريا ، واقتتل الناس ، حتى ضرب رجل عرقوب الجمل ، وهزم أصحاب عائشة وطلحة والزبير ، وأسرت عائشة وأسر معها مروان ، وقتل طلحة ، وانصرف الزبير إلى المدينة فقتل في الطريق .

وعلى الرغم مما كان بين عائشة وبين علي ، قابل الخليفة إساءتها إليه بالعفو ، وأحسن إليها وزارها في البيت الذي نزلت فيه ، وجعلها بكل ما تحتاج إليه في سفرها ، وأوفد أولاده ليشيعوها ، بل ودعها بنفسه ؛ ولذلك قالت عائشة يوم رحيلها لمشيعيها : « إنه والله ما كان بيني وبين علي في القديم إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها ، وإنه عندي - على معتبتي - من الأخيار ، تشير بذلك إلى حادثة الإفك التي وقعت في غزوة بني المصطلق ، ونزل القرآن بتبرئة عائشة ممارميت به ، وجعل حصانها قرآنا يُتلى .

خرج طلحة والزبير وعائشة على علي ، على الرغم من وعده إياهم بالنظر في أمر قتلة عثمان بعد أن تهدأ الفتنة وتستقر الأمور . ولم يكن لهؤلاء أن يخرجوا على إمام المسلمين الذي يقوم بحكم منصبه الخطير بإقامة الحدود . ولكن قبول علي في جيشه أعوان ابن سبأ الذين قتلوا عثمان ، في الوقت الذي يطالب فيه المسلمون بدمه :- يثير الشكوك في عدم اكترائه بما حدث للخليفة المقتول ، بل في اتهامه بالاشتراك في دمه المسفوك .

لم ينته النزاع بانتصار على في موقعة الجمل ، بل إنه استمر بين حزب عثمان وعلى رأسه معاوية بن أبي سفيان أعظم قرابة عثمان شأنًا والمطالب بدمه ، وحزب على ، رابع الخلفاء الراشدين وزعيم بني هاشم ، الذين كان العداء بينهم وبين بني أمية قديما باقى الأثر ، لم يزرده الإسلام إلا شدة وعنفًا. ولكن الخلاف كان على حد قول أم الخير بنت الجريش البارقية التي خطبت المسلمين وصورت هذا الخلاف في الخطبة التي ألقته في يوم صفين يرجع إلى أسباب قديمة . ومما قالته أم الخير : « هلموا رحمكم الله - إلى الإمام العادل ! والوصى الوفي ، والصديق الأكبر . إنها إحسن بدرية ، وأحقاد جاهلية ، وضغائن أحدية ، وثب بها معاوية ليدرك بها ثارات بني عبد شمس . . . فيالها وقائع زرعت في قلوب قوم نفاقا وردة وشقاقا . »

وقد أصرم معاوية على أن يقاتل عليا بجند الشام ، بعد أن أوغر صدورهم عليه . وفي شهر شوال من سنة ٣٦ هـ ، توجه على من الكوفة إلى صفين في تسعين ألفا ، وسار معاوية من الشام في خمسة وثمانين ألفا ، وتبودلت المراسلات بين معاوية وعلى الذي دعا خصمه إلى توحيد الكلمة والدخول في جماعة المسلمين . فاتفقا على المواجهة إلى آخر المحرم من سنة ٣٧ هـ . ثم اشتعلت الحرب بين الفريقين أياما متوالية . من ذلك كتاب معاوية بن أبي سفيان إلى على بن أبي طالب ، يرميه فيه بأنه أضمر الحسد لمن سبقه من الخلفاء الراشدين ، وبايعهم وهو كاره ، وأنه كان أشد حسدا لعثمان بن عفان ؛ فقبح محاسنه ، وألّب الناس عليه وآوى قتلته ، وطلب إليه أن يسلم إليه قتلة عثمان فيقتلهم به ، فإذا أبى على ، طاردهم معاوية « في الجبال والرمال ، والبر ، والبحر » حتى يقتلهم (١) . وقد رد على بن أبي طالب على معاوية ابن أبي سفيان بهذا الكتاب الذي يعد بحق من آيات البلاغة فقال :
« أما بعد ، فقد أتاني كتابك ، تذكرك فيه اصطفاء الله تعالى محمدا صلى الله عليه

وسلم لدينه ، وتأيدته إياه بمن أيده به من أصحابه . . . وزعمت أن أفضل الناس في الإسلام فلان وفلان ؛ فذكرت أمراً إن تم ، اعتزلك كله ، وإن نقص لم يلحقك قلمه . وما أنت والفاضل والمفضول ، والسائل والمستول ؟ وما الطلاق وأبناء الطلقاء ، والتمييز بين المهاجرين الأولين ، وترتيب درجاتهم ، وتعريف طبقاتهم ؟ هيات ! لقد « حنَّ قدحٌ ليس منها » (١) ، وطفق يحكمُ فيها من عليه الحكم لها . . . ألا ترى — غيرُ مخبر لك ، ولكن بنعمة الله أحدثت — أن قوما استشهدوا في سبيل الله من المهاجرين — ولكل فضل — حتى استشهد شهيدنا (وهو حمزة) قيل : سيد الشهداء ، وخصه رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبعين تكبيرةً عند صلواته عليه . ألا ترى أن قوما قُطعتْ أيديهم في سبيل الله — ولكل فضل — حتى إذا فُعل ما فعل بواحد قيل الطيار في الجنة ، وذو الجناحين (وهو جعفر) . ولولا ما نهى الله عنه من تزكية المرء نفسه ، لذكر ذا كره فضائل جمّة تعرفها قلوب المؤمنين . . . وأنى يكون ذلك كذلك ؟ ومنها النبي ومنكم المكذّب (٢) ، ومنها أسد الله (٣) ، ومنكم أسد الأحراف (٤) ، ومنها سيدا شباب أهل الجنة (٥) ، ومنكم صبئية النار (٦) ، ومنها خير نساء العالمين (٧) ومنكم حمالة الخطب (٨) ؛ فإسلامنا قد سُمع ،

(١) هذا مثل يضرب لمن يفتخر بقبيلة ليس منها ، أو يتمدح بما ليس فيه ، والأصل في ذلك أن الواحد من قدام الميسر إذا كان من غير جوهر أخوانه وآجاله المقيض خرج له صوت يخالف أصواتها .

(٢) المكذّب : أبو جهل .

(٣) أسد الله : حمزة بن عبد المطب .

(٤) أسد الأحراف : أبو سفيات بن حرب ، لأنه حزب الأحراب وحالفهم على قتال النبي

صلى الله عليه وسلم في غزوة الخندق .

(٥) سيدا شباب أهل الجنة : الحسن والحسين ابنا علي بن أبي طالب .

(٦) صبئية النار : هم أولاد مروان بن الحكم .

(٧) خير نساء العالمين : فاطمة الزهراء بنت الرسول رضى الله عنها .

(٨) حمالة الخطب : أم جميل بنت حرب .

وجاهلاً يتألا تدفع ، كتاب الله يجمع لنا ما شددنا ، وهو قوله سبحانه :
(وأولو الأرحام بغضهم أولى ببعض في كتاب الله) وقوله تعالى : (إن أولى
الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين).
فنحن مرة أولى بالقرابة وتارة أولى بالطاعة . . . وزعمت أني لكل الخلفاء
حسدت ، وعلى كلهم بغيت ، فإن يكن ذلك كذلك ، فليست الجناية عليك ،
فتكون المعذرة إليك . « وتلك شكاة ظاهره عليك عارها » (١)

ثم ذكرت ما كان من أمرى وأمر عثمان ، فلك أن تجاب عن هذه لرحمة منك ،
فأرئنا كان أعدى له ، وأهدى إلى مقاتله ؟ أم من بذل نصرته فاستشقه
واستكفه ، أم من استنصره فترأخى عنه ، وبث المنون إليه ، حتى أتى ندره
عليه ؟ . . . وما كنت أعذر من أنتى كنت أنقِم عليه أحداثا ، فإن كان
الذنب إليه إرشادى وهدايتى له « فرب مَلُوم لا ذنب له » .

« وقد يستفيد الظنة (٢) المتنصِّح » . . . وأنا مُرُّ قَلُّ نحوك في جحفل
من المهاجرين والأنصار ، والتابعين لهم بإحسان ، شديد زحامهم ، ساطع
قتامهم متسربلين سراويل الموت ؛ أحب اللقاء لقاء ربهم ، قد صحَّبتهم ذرية
بدرية ، وسيوف هاشمية ، قد عرفت مواقع نصالها في أخيك وخالك وجدك
وأهلك ، (٣) « وهامى من الظالمين ببعيد » (٤).

ولما قتل عمار بن ياسر استاء أصحاب علي لمقتله ، وهاجموا جيش معاوية ،
وأشرفوا على النصر ، وأظهر عمرو بن العاص من فنون الدهاء ما فرق بين جند
علي حين طلب إلى كل من معه مصحف - من جند معاوية - أن يرفعه على رمح ، فرفعت

(١) يقال ظهر عنه العار إذا لم يعلق به وبنا عنه ، وتوله : وتلك شكاة . . . الخ عجز بيت
لابي ذؤيب الهذلي ، وصدرة : وعيرها الواشون أني أحبها .

(٢) الظنة : التهمة . وصدر هذا البيت : وكم سقت في آثاركم من نصيحة .

(٣) أخوه حنظلة ، وخاله الوليد بن عتبة ، وجده : عتبة بن ربيعة .

(٤) انظر : القلقشندي : صبح الأعشى ج ١ ص ٢٢٨ - ٢٣١ . الزويري : نهاية الأرب

المصاحف؛ ورضى أصحاب علي أن يرضوا بكتاب الله حكما. وبذلك كسر عمرو من حدة جند علي، وفرق بينهم، وفت في عضدهم، فكفوا عن القتال. ولم تجد نصائح علي نفعا حين قال لأصحابه: إن ذلك لم يكن إلا خديعة أرادوا بها أن يقضوا علي وحدثكم.

ثم عقد التحكيم في شهر رمضان من سنة ٣٧ هـ بعد أن اختار أهل الشام عمرو بن العاص، واختار أهل العراق أبا موسى الأشعري، وخلع أبو موسى عليا ومعاوية وخلع عمرو وعليا وثبتت صاحبه معاوية، وأعطى هذا التحكيم الفرصة لجند الشام؛ ليستأثروا بالأمر بعد أن انقسم جند علي، واعتزله الخوارج الذين ساروا نحو «المدائن»، وانقسم المسلمون بذلك إلى ثلاثة أحزاب هي: شيعة بني أمية، وشيعة علي، والخوارج وهم أعداء الفريقين، يستحلون دماءهم ويرون أنهم خارجون على الدين، ولكل من هذه الأحزاب أتباع يدينون برأيه في الخلافة.

وعلى الرغم مما أحرزه علي من نصر على الخوارج في النهروان سنة ٣٨ هـ، انتزع معاوية بن أبي سفيان مصر من علي، فسار عمرو بن العاص على رأس جيش من أهل الشام، ودخل الفسطاط، واختفى محمد بن أبي بكر، وكان علي قد ولاه مصر في رمضان سنة ٣٧ هـ، فأساء إلى العثمانية وعلي رأسهم معاوية بن حديج، وهدم دورهم وجسهم، فبث ابن حديج العيون حتى اهدتوا إلى مكان ابن أبي بكر، فقتله ثم جعله في جيفة حمار، وأحرقه بالنار (صفر سنة ٣٨ هـ).

وبعد أن تمت البيعة لعلي، انتقل إلى الكوفة، فلم تغير الخلافة ما اتصف به من البعد عن الهوى والزهد في الدنيا والعمل للآخرة ابتغاء وجه الله، بل كان لا يلبس من اللباس إلا أخشنه. روى عن عبد الله بن أبي الهذيل قال:

« رأيت عليا عليه خرج وعليه قميص غليظ دارس؟ إذا مد كم قميصه بلغ إلى الظفر، وإذا أرسله صار إلى نصف الساعد». وروى أبحر بن جرموز عن أبيه قال: « رأيت علي بن أبي طالب يخرج من الكوفة وعليه قطريتان،^(١) متزرا

(١) قطر وقطرية: نوع من البرود.

بالواحدة مترديا بالأخرى ، وإزاره إلى نصف الساق ، وهو يطوف في الأسواق ،
ومعه درة يأمرهم بتقوى الله وصدق الحديث وحسن البيع والوفاء بالكيل والميزان .
كان علي الخليفة يسوي بين الناس ، لا يحب أن يرى بيت المال مالا إلا أنفقه
على الفقراء والمحتاجين . روى أنه إذا ورد عليه مال لم يبق منه شيئا إلا قسمه ،
ولا يترك في بيت المال منه إلا ما يعجز عن قسمته في يومه ذلك ، ويقول يادنيا
غري غيري . كان لا يفرق في العطاء بين عربي أو عجمي أو بين قريب أو بعيد .
« لم يكن يستأثر من الفسء بشيء ، ولا يخص به حميما ولا قريبا ، ولا يخص
بالولايات إلا أهل الديانات والأمانات » . إذا بلغه عن أحد خيانه كتب إليه :
« قد جاءكم وعظمة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان بالقسط ، ولا تبخسوا الناس
أشياءهم ، ولا تعثوا في الأرض مفسدين » .

وكان علي يكتب لعامله فيقول : « احتفظ بما في يديك من أعمالنا حتى نبعث
إليك من يتسلمه منك . ثم يرفع طرفه إلى السماء فيقول : اللهم إنك تعلم أني لم
أمرهم بظلم خلقك ولا بترك حقك .

وإلى علي بن أبي طالب يرجع الفضل في تنظيم الشرطة ، وهم الجنود الذين يعتمد
عليهم الخليفة في استتباب الأمن ، وحفظ النظام ، والقبض على الجناة والمفسدين .
ولما نظم علي الشرطة ، أطلق على رئيسها «صاحب الشرطة» .

اتصف علي بن أبي طالب بالخصال الحميدة ، فقد نشأ في بيت الرسول ،
فأدب بأدابه العالية ، وتخلق بصفاته التكريمة . وكان أول من أسلم من الصبيان كما
تقدم . وقد أحله الرسول من نفسه المحل اللائق به ، فعهد إليه بكثير من أمور
المسلمين ، فأبلى فيها بلاء حسنا ، وأخلص في نصرته الإسلام ، فعلا أمره ونبه ذكره ،
واشتهر بالشجاعة والبطولة . وليس أدل على ذلك من تعرضه للخطر في الليلة التي
هاجر فيها الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ إذ لبس ثوبه وبات في فراشه ، مع أنه كان
يعلم عزم المشركين على قتل الرسول في تلك الليلة . كما اختاره الرسول لحمل الراية
في غزوة خيبر .

وقد اشتهر علي بالمروءة والوفاء واحترام العهود، والحرص على مال المسلمين. يدل على ذلك ما نقله الطبري عن أبي رافع خازن بيت المال في عهد علي قال: دخل علي يوما وقد زينت ابنته، فرأى عليها لؤلؤة من بيت المال قد كان عرفها فقال: «من أين لها هذه؟ لله علي أن أقطع يدها، فلما رأيت جده في ذلك قلت: أنا يا أمير المؤمنين، زينت بها ابنة أخي، ومن أين كانت تقدر عليها لو لم أعطيها؟ فسكت»:

وذكر صاحب الفخرى أن عقيل بن أبي طالب أخا علي من أبيه وأمه طلب من بيت المال شيئا لم يكن له حق فيه، فمنعه علي وقال: «يا أخي! ليس لك في هذا المال غير ما أعطيتك، ولكن اصبر حتى يجيء مالي وأعطيك ما تريد، فلم يرض عقيلاً هذا الجواب، ففارق عليا وقصد معاوية بالشام. وكان علي لا يعطى ولديه الحسن والحسين أكثر من حقهما.

وقد عرف علي كرم الله وجهه بالزهد والتقشف؛ حتى لقد كان طعامه من أدنى أطعمة فقراء المسلمين. وقد ضرب المثل بالعسل والخبز النقي فقال في بعض كلامه: ولو شئت لاهتديت إلى مصفى هذا العسل بلباب هذا البر. ومن أحسن ما أثر عن علي أنه أعطى غلامه دراهم ليشتري بهانوبين متفاوتي القيمة. فلما أحضرهما، أعطاه أرقهما نسيجا وأغلاهما قيمة، وحفظ لنفسه الآخر، وقال له: أنت أحق مني بأجودهما، لأنك شاب وتميل نفسك للتجمل، أما أنا فقد كبرت.

وكان يرجع إلى علي في كثير من مسائل الدين، وتفسير القرآن، ورواية الحديث، ومسائل الميراث، والمشكل من القضايا. كان علي يقول: «سلوني سلوني عن كتاب الله تعالى، فوالله مامن آية إلا وأنا أعلم أنزلت بليل أم نهار في سهل أو جبل!»، وكان علي مضرب الأمثال في الفصاحة، كما كان أشعر الخلفاء الراشدين، أخرج السيوطي عن الشعبي قال: «كان أبو بكر يقول الشعر، وكان عمر يقول الشعر، وكان عثمان يقول الشعر! وكان علي أشعر الثلاثة.»

وقد ضرب علي بسهم وافر في العلم، حتى لقد لقب قاضي الأئمة. «كان إماما

عالمًا متحرِّيا في الأخذ، بحيث أنه يستحلف من يحدثه بالحديث. روى الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم، كما رواه عن أبي بكر وعمر. وكان عليّ يقدر العلماء وينزلهم من نفسه منزلة رفيعة. وقد بلغ من رجاحة عقله، وسعة اطلاعه، وإمامته بالثقافة الإسلامية، أنه عرّف العلم معرفة المتمكن منه، حين قال: الناس ثلاثة: فعالم ربّاني، وعالم متعلم، علي سبيل نجاة، وهمج رعاية أتباع كل ناعق، يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجئوا إلى ركن وثيق. العلم خير من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال، العلم يزكو على العمل، والمال تنقصه النفقة وصحبة العالم دين يُدان بها باكتساب الطاعة في حياته، وجميل الأحذوثة بعد وفاته، وصناعة نفقة المال تُولى بزوال صاحبه. مات خزان الأموال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة، ثم أشار بيده إلى صدره وقال: علما «لو أصبت له حملة، بلي! أصبته لقنا غير مأمون عليه، يستعمل آلة الدين للدنيا، يستظهر بحجج الله على كتابه وبنعمه على عباده».

وكان عليّ كرم الله وجهه من أئمة علماء المدينة، تشد إليه الرحال، ونضرب آباط الإبل التماسا لعلمه وفضله. روى عن قيس بن عباد قال: دخلت المدينة ألتبس العلم والشرف، فرأيت رجلا عليه بردان، له ضفيرتان، واضعا يده على عاتق عمر، فقلت: من هذا؟ فقالوا: علي بن أبي طالب. وقد عرّف عليّ الفقيه ووضع معالم رسالته خير توضيح حين قال: ألا أنبئكم بالفقيه حق الفقيه، من لم يُقتنط الناس من رحمة الله، ولم يُرخص لهم في معاصي الله، ولم يؤمنهم مكر الله. كما رسم عليّ الطريق لرواة الحديث فقال: حدّثوا الناس بما يعرفون، ودعوا ما ينكرون؛ أتحبون أن يُكذّب الله ورسوله؟ لذلك نهى عن رواية المنكر، وحث على رواية الحديث بالمشهور، وهذا أصل كبير في أصول رواية الحديث.

وبينما كان عليّ كرم الله وجهه يعاني الشدائد من الخوارج الذين انفضوا من حوله، استولى معاوية بن أبي سفيان على مصر، وأخذ يدعو إلى نفسه بالخلافة،

فجمع عليّ جيشا لقتال معاوية . ولم يكد هذا الجيش يتحرك حتى طعن عبدالرحمن ابن ملجم الخارجي عليا بسيف مسموم .

اجتمع ابن ملجم برجلين من الخوارج ، وتذاكروا إخوانهم الذين قتلهم علي في موقعة النهروان ، وانفقوا على أن يقتل كل منهم واحدا من ثلاثة اعتقدوا أنهم كانوا مصدر ما حلّ بالمسلمين من الفرقة والخلاف ، وهم علي بن أبي طالب ، ومعاوية بن أبي سفيان ، وعمرو بن العاص ، فقال ابن ملجم : أنا أكفيكم عليا ، وقال الآخر : أنا أكفيكم معاوية ، وقال الثالث : أنا أكفيكم عمرا . وقد قيل إن ابن ملجم رأى امرأة جميلة من بنات الخوارج وأغرم بها وخطبها ، فطلبت إليه فيما طلبت أن يقتل علي بن أبي طالب ، فقال لها : ماجئت إلا لقتله ، ووعدتها بأن يقتله . وأما الخارج الآخر فإنه مضى إلى معاوية ، فقعد له حتى خرج فضربه بالسيف على فخذه ، ولكن معاوية برىء من جرحه وقتل هذا الخارج . وأما الخارج الثالث فإنه مضى إلى مصر لقتل عمرو بن العاص الذي لم يخرج لمرضه ، وأتاب خارجة ابن حذافة لإمامة الناس في صلاة الصبح ، فقتله هذا الخارج ، فقتله عمرو .

كان عليّ كرم الله وجهه يحسن إلى ابن ملجم . فلما جاء شهر رمضان من سنة أربعين للهجرة ، كان عليّ يفطر ليلة عند الحسن ، وليلة عند الحسين ، وليلة عند ابن أخيه عبد الله بن جعفر الطيار . وقد أثر عنه أنه كان إذا أكل لا يزيد على ثلاث لقيمات ويقول : إنما هي ليلة أو ليلتان ويأتى أمر الله وأنا خميص . ولما أقبل وقت صلاة الفجر خرج عليّ من داره ومضى إلى المسجد وجعل ينادى : الصلاة يرحمكم الله . فضربه ابن ملجم بالسيف على رأسه وقال : الحكم لله لالك يا عليّ . وصاح الناس وماجوا وهرب ابن ملجم ، فقال عليّ : لا يفوتكم الرجل ، وضيق الناس على ابن ملجم وقبضوا عليه ، وأتاب عليّ بعض أصحابه ليصلي الصبح بالناس ، وأدخل أمير المؤمنين داره ، وأحضر ابن ملجم عنده ، فقال له : يا عدو الله ! ألم أحسن إليك ؟ قال : بلى ! قال فما حملك على هذا ؟ قال : شحذته أربعين صباحا ، وسألت الله أن يقتل به شر خلقه ، فقال عليّ : لا أراك إلا مقتولا به ولا أراك

٥- أسامة بن زيد

أصغر قائد في الإسلام

إلى القارىء نسوق مثلاً من أروع الأمثلة التي ضربها الإسلام للحربة والإخاء والمساواة، حين سَوَّى بين العبد والحر، وبين الأبيض والأسود، وظفر الموالي في صدر الإسلام بأسمى الرتب، وتسنموا أعلى المناصب. وكان منهم أسامة بن زيد، الذي ولي إمرة الجند، ولما يناهز الثامنة عشرة من عمره.

كان زيد بن حارثة أبو أسامة، من أحرار العرب، ينتهي نسبه إلى لوئى بن كعب. ومن عجيب الصدف، أن أمه سعدى خرجت به لزيارة قومها بني معن، وبينما هم في الطريق، انقضت عليهم خيل بني القنن بن جسر فأسروا زيدا، وساقوه إلى سوق عكاظ، فاشتراه حكيم بن حزام لعتمته خديجة بنت خويلد بأربعمائة درهم. وظل زيد في خدمة خديجة إلى أن تزوجت من الرسول صلى الله عليه وسلم، فوهبت له زيدا، وهو في الثامنة من عمره. وقد وجد أبوه عليه وجداً شديداً، وبكاه بقوله:

بَكَيْتُ عَلَى زَيْدٍ وَلَمْ أَذِرْ مَا فَعَلَ
أَحَى يَرْجِي أُمَّ أْتَى دُونَهُ الْأَجَلَ
تُذَكِّرُنِيهِ الشَّمْسُ عِنْدَ طُلُوعِهَا
وَيَعْرِضُ ذِكْرَاهُ إِذَا قَارَبَ الطُّفْلَ

وقد حج قوم من كليب، فرأوا زيدا، فعرفهم وعرفوه، فقال: أباغوا أهلى أنى:

أَحْنُ إِلَى قَوْمِي وَإِنْ كُنْتُ نَائِباً
بِأَنِّي قَطِينُ الْبَيْتِ عِنْدَ الْمَشَاعِرِ

فانطلقوا ، فأعلموا أباه ، ووصفوا له موضعه ، فقدم مكة ، فسأل عن النبي عليه الصلاة والسلام ، فقيل هو في المسجد ، فدخل عليه ، فقال : يا ابن عبد المطلب ! يا ابن سيد قومه ! أنتم أهل حرم الله ، تفكّون العاني ، وتطعمون الأسير : جنّالك في ولدنا عندك ، فامن علينا ، وأحسن في فدائه ، فإننا سنرفع لك . قال : وما ذلك ؟ قالوا : زيد بن حارثة . فقال : أو غير ذلك ؟ ادعوه ، فخيروه ؛ فإن اختاركم فهو لكم بغير فداء ، وإن اختارني ، فوالله ما أنا بالذي أختار على من اختارني فداء . فدعاه ، فقال : هل تعرف هؤلاء ؟ قال : نعم ! هذا أبي ، وهذا عمي . قال : فأنا من قد علمت ، وقد رأيت صحبتي لك ، فاخترني أو اخترهما . فقال زيد : ما أنا بالذي أختار عليك أحدا ، أنت مني بمكان الأب والعم ! فقالوا : ويحك يا زيد ! أنتختار العبودية على الحرية ؟ قال : قد رأيت من هذا الرجل شيئا ما أنا بالذي أختار عليه أحدا . فلما رأى الرسول ذلك ، أخرجته إلى الحجر ، فقال اشهدوا أن زيدا ابني يرثني وأرثه . فلما رأى ذلك أبوه ، طابت نفسه وانصرف . ثم بعث الرسول ، وأخذ ينشر تعاليم الإسلام السمحة ، التي تسوي بين الناس على اختلاف أجناسهم ، وتجعل المؤمنين إخوة ، لا تفاوت بينهم إلا بقدر ما يتفاضلون به من الحق .

وكان زيد من المسلمين الأولين ، حتى لقد قيل إنه كان رابع أربعة دخلوا الإسلام أول من دخل . وقد شهد زيد غزوة بدر الكبرى ، وكان البشير الذي حمل إلى أهل المدينة أنباء انتصار الإسلام على الكفر . وشاء الرسول أن يعبر لزيد عن محبته له ، وحدّ به عليه ، فزوجه من مولاته وحاضنته أم أيمن ، فولدت له ابنة أسامة . بل لقد خصه الرسول بعطفه ، فزوجه من ابنة عمته زينب بنت جحش . قالت عائشة : ما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة في سرية إلا أمره عليها ، ولو بقي لاستخلفه بعده . وروى الزهري أن الرسول استخلف زيدا في بعض أسفاره .

فلا عجب إذا ظفر زيد ، وهو أحد موالى الرسول ، بعطف مولاه ، وغدا

موضع ثقته ومحل رعايته ، حتى لقد أطلق عليه المسلمون : زيد بن محمد ، فأنزل الله عز وجل : (ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله) ، فسمى زيد بن حارثة .
شب أسامة في كنف الرسول ، فكان أبوه زيد وأمه أم أيمن من موالى الرسول ، فأفعم قلبه بحب النبي ، وظفر بعطفه ومحبه كما كان أبوه من قبل . روى عبد الله ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن أسامة بن زيد لأحب الناس إلي ، وأنا أرجو أن يكون من صالحكم ، فاستوصوا به خيرا .

كان أسامة بن زيد من المسلمين الذين تخلفوا عن غزوة بدر الكبرى لأعذار خاصة ، فقد أبقاء الرسول صلى الله عليه وسلم مع عثمان بن عفان ، لتمريض رقية بنت الرسول وزوجة عثمان التي دفنت في اليوم الذي أحرز فيه المسلمون النصر على المشركين ، فعدهما الرسول من البدرين وأفرد لكل منهما سهمه من النفل .
وقد أراد أسامة أن يشترك في غزوة أحد ، ولكن الرسول ردّه لصغر سنه .
وفي السنة الثامنة للهجرة ، صحب الرسول حين غزا مكة ، ودخل معه الكعبة ، وقاتل بشجاعة في غزوة حنين .

وكان أسامة حين استشهد أبوه في الخامسة عشرة من عمره . فماكاد يبلغ الثامنة عشرة ، حتى رأى الرسول ، تكريما لذكرى أبيه ، أن يعقد لابنه اللواء ، ويسيره لقتال الروم ؛ ليأخذ بثأر أبيه وثأر من استشهد معه من المسلمين ، ويؤدب الروم الذين سخروا من دعوة الرسول ، واعتدوا على رسله ، وقتلوا أصحابه .

ثم مرض الرسول ، وانتقل إلى جوار ربه ، فرأى أسامة أن ينزل عن إمرة الجيش ليترك للخليفة الجديد حرية الاختيار . ولكن أبابكر خليفة رسول الله أبي إلا أن تنفذ رغبة الرسول ، فسير أسامة إلى مشارف الشام ، لأنه رأى في ذلك مناورة حربية وسياسية ، تشعر أعداءهم في الداخل والخارج بقوة الحكومة العربية وثبات مركزها ، وقال العرب : لو لم يكن بهم قوة لما أرسلوا هذا الجيش ، فكفوا عن كثير مما كانوا يريدون أن يفعلوا .

ولكن تأمير أسامة في حياة الرسول لم ينل رضا بعض الصحابة ، ومن بينهم

عمر بن الخطاب ، وذلك لصغر سنه ، وحادثة عهده بفن الحرب والقتال . ولما علم الرسول الكريم بهذا الاعتراض ، غضب أشد الغضب ، وقال : قد بلغنى أن أقواما يقولون في إمارة أسامة ، ولعمري أن قالوا في إمارته ، لقد قالوا في إمارة أبيه من قبله . وإن كان أبوه خليقا للإمارة ، وإنه خليق لها .

ثم ثقل المرض على الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام ، وانتقل إلى جوار ربه ، وجيش أسامة لم يبرح المدينة المنورة . وكان أسامة يعرف موقف بعض الصحابة من تأميره على الجيش ، فطلب إلى عمر أن يستأذن أبا بكر ، وكان قد بويع له بالخلافة ، فقال : « معى وجوه الناس وخدمهم ، ولا آمن على خليفة رسول الله وثقل رسول الله ، وأثقال المسلمين أن يتخطفهم المشركون » . ويبدو أن الأنصار كانوا يعارضون في إمارة أسامة ، ويرون أن يولى على الجيش من هو أكبر سنا وأكثر تجربة . وكان عمر بن الخطاب يظاھرهم ويؤيدهم في هذا الرأي ، ويرى أن أسامة لم يبلغ بعد السن ، ولم تحنك التجارب الاضطلاع بهذا الأمر الخطير . ولكن أبا بكر كان حريصا على تنفيذ أوامر الرسول ، فمكاد عمر ينهى إليه رغبة أسامة في اعتزال الإمرة ، حتى غضب غضبا شديدا ، ووثب على عمر ، فأخذ بلحيته ، وقال له : « ثكثك أمك وعدمتك يا ابن الخطاب ! استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتأمرنى أن أنزعه ؟ لو خطفتنى الكلاب والذئاب لم أرد قضاء قضى به رسول الله صلى الله عليه وسلم : فخرج عمر إلى الناس ، فقالوا له : ما صنعت ؟ فقال : امضوا ، ثكثكم أمهاتكم ما لقيت فى سببكم من خليفة رسول الله . هكذا نفذت إرادة الرسول . وبقى أسامة أميرا على الجيش برغم اعتراض المعترضين ، وأسرع المسلمون إلى الانضواء تحت لوائه ، مجاهدين فى سبيل الله ونصرة دينه ، ومن بينهم عمر بن الخطاب نفسه .

وقد أراد أبو بكر أن يبالغ فى برأسامة وإكرامه وفاء لذكرى الرسول ، فخرج يشيخ جيشه وهو ماش ، وأسامة راكب ، فقال له أسامة : يا خليفة رسول الله ! اتركبن أو لأنزلن فقال : والله لا نزلت ولا أركب ، وما على إلا أن أغبر قدمى

ساعة في سبيل الله . فإن للغازی بكل خطوة يخطوها سبعمائة حسنة تكتب له ،
وسبعمائة درجة ترفع له ، وسبعمائة سيئة تمحى عنه . وبلغ من إكبار أنى بكر
لأسامة أن قال له : إن رأيت أن تعينى بعمر ، فافعل . فأذن له ، ثم وصاه أبو بكر
فقال : لا تخونوا ولا تغدروا ، ولا تغلوا ولا تمشلوا ، ولا تقتلوا طفلا ولا شيخا
كبيرا ، ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلا وتحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مشمرة ، ولا
تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا . وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في
الصوامع ، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له ، وسوف تقدمون على قوم قد فخصوا
أوساط ربهم وسهم ، وتركوا حولها مثل العصائب ، فاخفقوهم بالسيف خفقا . اندفعوا
باسم الله ! وأوصى أسامة أن يفعل ما أمر به رسول الله .

هكذا شرع أبو بكر - وهو الخليفة الرشيد الأول للمسلمين - آداب القتال ؛
فأوصاهم بالضعفاء خيرا ، وحثهم على أن يؤمنوا الناس على أموالهم وأرواحهم ،
ولا يتعرضوا لشعائرهم الدينية . وكان أسامة ، ذلك الفتى اليافع ، والقائد الشاب ،
والمسلم الورع ، خير من يقوم على تنفيذ هذه السياسة التي تتفق وما جاء به
الكتاب والسنة . وهو بحق يعتبر مثالا رائعا ، ضربه ذلك الدين السمح ، وذلك
النبي العربي الكريم ، وقام على تنفيذه خلفاء المسلمين وقوادهم المبرزون .
كانت غيبة أسامة في هذه الغزوة أربعين يوما ، عاد بعدها ظافرا منتصرا ،
ليخف إلى نجدة الخليفة أنى بكر في حروب الردة الطاحنة ، حتى استرد الإسلام
هيئته ؛ فخارب قبائل قضاة ، وأغار على آبل ، وقضى أربعين يوما في حربه وجهاده .
وقد بعث انتصار أسامة البشر في نفوس أهل المدينة ، بعد أن أحزنتهم حروب
الردة . واعتبرت حملته هذه فاتحة للحملة التي وجهت لغزو بلاد الشام .

ولما عاد أسامة إلى المدينة المنورة . استخلفه أبو بكر عليها حين خرج إلى
ذى قبيصة حيث عقد أحد عشر لواء لقتال المرتدين .

ولما ولي عمر بن الخطاب رضى الله عنه الخلافة ، أكرم من أكرمه رسول
الله ، وخليفته أبو بكر ، ففرض لأسامة بن زيد خمسة آلاف درهم ، وفرض لابنه

عبدالله بن عمر أنفين ، فقال عبدالله : فضلتَ عليَّ أسامة ، وقد شهدت ما لم يشهدا .
فقال عمر : إن أسامة كان أحب إلي رسول الله منك ، وأبوه أحب إلي رسول
الله من أبيك .

ولما ولي عثمان الخلافة ، قرب أسامة إليه ، ووثق به . فلما اضطرب أمر
الأمصار وأخذت الفتنة التي انتهت بقتل عثمان تُطلُّ برأسها ، أرسل عثمان
أسامة بن زيد إلى البصرة ، ومحمد بن مسلمة إلى الكوفة ، وعبدالله بن عمر إلى
الشام ، وعمار بن ياسر إلى مصر ، ليجتثوا عن أسباب هذا الاضطراب ، ويقفوا
على حقيقة الحال في البلاد الإسلامية .

ويظهر أن حب أسامة لعثمان ، وحزنه لمصرعه ، قد حمله على الامتناع عن
البيعة لعلي بن أبي طالب فاعتزل السياسة ، ورحل إلى دمشق ، ثم عاد إلى المدينة .
وقد قيل إن عليا لام أسامة على تخليه عن نصرته ، فقال له : لو أدخلت يدك في
فم تنين لأدخلت يدي معها ، ولكنك قد سمعت ما قال لي رسول الله صلى الله
عليه وسلم حين قتلت ذلك الرجل الذي شهد أن لا إله إلا الله .

كان أسامة يحفظ كثيرا من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم . روى عنه
من الصحابة : أبو هريرة ، وعبد الله بن عباس ، ومن كبار التابعين : أبو عثمان
النهدى ، وأبو وائل .

وتوفي أسامة في آخر أيام معاوية سنة ثمان وخمسين ، وقيل سنة تسع وخمسين ،
فكان أول قائد تأمر على جيش المسلمين وهو في هذه السن المبكرة .

٦- صُهَيْبُ بْنُ سِنَانٍ

« صُهَيْبُ سَابِقِ الرُّومِ »

كان العالم قبيل الإسلام يتطلع إلى ظهور خاتم الأنبياء والمرسلين . ودلت الكتب، التي أرسلها الرسول الكريم إلى الملوك والأمراء ، دلالة واضحة على ما تردد ذكره في القرآن الكريم ، من مطالبة الناس جميعا بقبول الإسلام . فقد قال الله تعالى في سورة ص : (إِنَّهُ هُوَ الْإِلَهَ الَّذِي ذَكَرْتُمْ لِلْعَالَمِينَ ، وَلَسْتَ عَلَيْهِمْ بِنَبِيٍّ) ، وقال في سورة سبأ : (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا) ، وقال في سورة آل عمران : (وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ) .

وكان إسلام صُهَيْبٍ مع من أسلم من غير العرب ، دلالة واضحة على أن الإسلام لم يكن مقصورا على الجنس العربي ، قبل أن يدور بخلد العرب أي شيء يتعلق بحياة الفتح والغزو بزمن طويل . يؤيد ذلك ماورد في القرآن الكريم من الآيات البيّنات ، وما أثر عن الرسول صلى الله عليه وسلم .

كان سنان بن مالك أبو صهيب (١) من أحرار العرب ، ينتهي نسبه إلى زيد مناة . وكان سنان وأخوه يليان الأبلّة من قبيل كسرى فارس ، وكانت منازلهم على نهر دجلة بنواحي الموصل . وأمه من بني مالك بن عمرو بن تميم . على أن صهيبا قد أسر على أيدي الروم وهو صغير ، فنشأ ببلادهم ، وتعلم لغتهم ، حتى كاد أن ينسى لغته العربية ، وصار ألسكن لا يستطيع أن يعبر عن آرائه في عبارة عربية صحيحة ، ولذلك سمي الرومي . وقيل إن اسمه عمـيـيرة ، فسماه الروم صهيبا ، لأنه كان

(١) وقيل خالد بن عمرو بن عقيل ، وقيل طفيل بن عامر بن جندلة بن سعد بن جديم ابن كعب بن سعد بن أسلم بن أوس بن زيد مناة بن النمر بن قاصد .

أحمر ، شديد الصهوبة أشوبه حمرة . وكان كثير شعر الرأس ، يخضب بالحناء .
ثم دارت الأيام بصهيب ، فاشتراه رجل من قبيلة كلب ، ثم باعه بمكة ،
فاشتراه عبدالله بن جُدعان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تميم الذي عقدت
قريش في داره حلف الفضول الذي حضره الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام
قبل بعثته ، وقد تحالفت قريش على أن تنتصف لكل من يفد على مكة متظلماً من
أذى أحد القرشيين . وفي رواية أخرى أن صهيباً هرب من الروم ، فقدم مكة ،
فخالف ابن جُدعان .

ثم بعث الرسول الكريم ، وأخذ ينشر تعاليم الإسلام التي تسوّى بين
الناس على اختلاف أجناسهم ، وتجعل المؤمنين إخوة ، لا اختلاف بينهم إلا بقدر
ما يتفاضلون به من الحق . وكان صهيب من المسلمين الأولين ، أسلم هو وعمار بن
ياسر على يد الرسول في دار الأرقم بن أبي الأرقم ، الذي اتخذت داره مركزاً
للدعوة الإسلامية سرا ، ولا تزال بمكة إلى اليوم . وكانت هذه الدار على جبل
الصفا يومها الحجيج والغرباء . قال الرسول الكريم : السُّبَّاقُ أَرْبَعَةٌ :
أنا سابق العرب ، وصُهَيْبُ سابق الروم ، وبلال سابق الحبشة ، وسلمان سابق
الفرس . روى ابن عسائنة أن أول من أظهر إسلامه سبعة ، منهم صُهَيْبُ .
كان المسلمون يستخفون من قريش في صلاتهم ، وفي الدعوة إلى الإسلام .
وكان المشركون كلما رأوهم في صلاتهم سخروا منهم ومن عبادتهم ، ونال صهيباً
من السخرية مانال غيره من المسلمين .

كذلك كان صهيب من المستضعفين الذين أوذوا وعُذِّبوا في سبيل الله ، فلم
يزده ذلك إلا تمسكاً بالإسلام وإخلاصاً له . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم
إذا جلس في المسجد ، جالس إليه المستضعفون من أصحابه : خباب ، وعمار ،
وأبو فكيهة يسار مولى صفوان بن أمية بن محرز ، وصهيب وأشباههم من
المسلمين ، هزأت بهم قريش ، فقال بعضهم لبعض : دؤلاء أصحابه كما ترون ،
أهؤلاء من الله عليهم من بيننا بالهدى والحق ؟ لو كان ماجاء به محمد خيراً

ما سبقنا هؤلاء إليه ، وما خصهم الله به دوننا . فأنزل الله تعالى في هؤلاء ، ومن
 بينهم صهيب (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي
 يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم
 من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين . وكذلك فتتنا بعضهم ببعض
 ليقولوا هؤلاء من الله عليهم من بيننا ، أليس الله بأعلم بالشاكرين وإذا
 جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلامٌ عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه
 من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفورٌ رحيم)
 (سورة الأنعام ٦ : ٥٢ - ٥٤) .

وقف صهيب مع الرسول في الوقت الذي قدمت له قريش بكل طريق ، تصدق
 الناس عن دعوته ، وتحقروا من شأن المسلمين وتستهزئ بهم ؛ وكان صهيب من
 هؤلاء النفر القليل الذين آمنوا به وصدقوه .

ولما رأى الرسول ما أصاب أصحابه من البلاء ، أشار عليهم بالهجرة إلى الحبشة ،
 وظل الرسول يجد في نشر الدعوة الإسلامية ، حتى أصبح بقاؤه في مكة محفوفاً
 بالمخاطر ؛ ففكر في الهجرة إلى يثرب التي رحب أهلها بمقدمه . وبينما الرسول
 بقية في طريقه إلى يثرب ، لحق به علي بن أبي طالب بعد أن رد الودائع التي
 كانت عند الرسول لأصحابها من أهل مكة ، وهاجر صهيب إلى المدينة مع علي .

وقد روى أن صهيباً لما أراد الهجرة قال له كفار قريش : « أتيتنا صلوكا
 (أي فقيراً) حقيراً ، فكثير مالك عندنا ، وبلغت الذي بلغت ، ثم تريد أن تخرج
 بمالك ونفسك ، والله لا يكون ذلك . فقال لهم صهيب : يا معشر قريش إني من
 أركم ، ولا تصلون إليّ حتى أرميكم بكل سهم معي ، ثم أضربكم بسيفي . » « رأيتم
 إن جعلت لكم مالي أتخجلون سبيلي ؟ قالوا : نعم ! قال : فإني جعلت لكم مالي .
 فلما بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ربح صهيب ، ربح صهيب ! »
 فأنزل الله عز وجل على نبيه الكريم : (ومن الناس من يشتري نفسه ابتغاء
 مرضاة الله) .

دخل صهيب في دين الله وحسن إسلامه ، وأصبح من كبار الصحابة رضوان الله عليهم . وكان من أكثر المسلمين صحبة للرسول ، وأعلاهم مكانة عنده . وقد شهد المشاهد كلها مع الرسول . وكان من أحذق المسلمين في رمي السهام . روى عنه أنه قال : « لم يشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم مشهدا قط إلا كنتُ حاضره ، ولم يبايع بيعة قط إلا كنتُ حاضره ولم يسر سريرة قط إلا كنتُ حاضرها ، ولا غزا غزاة قط إلا كنتُ فيها عن يمينه أو شماله ، وما خافوا أمامهم قط إلا كنتُ أمامهم ، ولا ماوراءهم إلا كنتُ وراءهم ، وما جعلت رسول الله صلى الله عليه وسلم بيني وبين العدو قط ! » .

ولما انتقل الرسول إلى جوار ربه ، ظل صهيب على ولائه للدعوة الإسلامية ، ووقف إلى جانب أبي بكر وعمر . روى البغوي عن زيد بن أسلم عن أبيه قال : « خرجت مع عمر حتى دخلت على صهيب بالعالية ، فلما رآه صهيب قال : يا ناس يا ناس ! فقال عمر : ماله يدعو الناس ؟ قلت : إنما يدعو غلامه يحنس ، فقال له : « يا صهيب ! ما فيك شيء أعيبه إلا ثلاث خصال : أراك تنتسب عربيا ، ولسانك أعجمي باسم نبي ، وتبذر مالك » . قال : أما تبذيري مالي ، فما أنفقه إلا في حق ، وأما كنيتي ، فكنايتها النبي صلى الله عليه وسلم ، وأما انتمائي إلى العرب فإن الروم سببتني صغيرا فأخذت لسانهم » .

ولما ضرب أبو لؤلؤة عمر بن الخطاب رضى الله عنه بخنجره ، أوصى عمر صهيبا بأن يصلي بالناس إلى أن يجتمع المسلمون على إمام . وكان عمر قد عين ستة من الصحابة الذين عرفوا بأهل الشورى ، ليختجوا من بينهم خليفة . وظل صهيب يصلي بالمسلمين حتى قضى عمر ، واستخلف عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وصلى صهيب على عثمان عمر تنفيذاً لوصيته . وإن إمامة صهيب المسلمين في الصلاة لتدل على مكانته من نفس الرسول ونفس عمر من بعده ، كما تدل على علو منزلته في الدين . والصلاة - كما نعلم - من أهم أركان الدين ، حتى إن الخليفة كان يؤم المسلمين بنفسه . كان صهيب من كبار الصحابة رضوان الله عليهم ، الذين لازموا الرسول

في المدينة ، وشهدوا معه المشاهد كلها . وقد اشتهر برواية الحديث . وروى عنه أولاده : حبيب ، وحمزة ، وصالح ، وصيفي ، وعباد ، وعثمان ، ومحمد ، وروى عنه حفيده زياد بن صيفي .

وكان عمر بن الخطاب يقدر صهيبا ويعرف مكانته من نفس الرسول . فلما أحس بدنو أجله ، قال لصهيب : صل بالناس ثلاثة أيام ، وأدخل عليا ، وعثمان ، والزبير ، وسعدا ، وعبد الرحمن بن عوف ، وطلحة ، وأحضر عبد الله بن عمر ، وقم على رؤوسهم . فان اجتمع خمسة ورضوا رجلا ، وأبي واحد ، فاشدخ رأسه (أو اضرب رأسه بالسيف) . وإن اتفق أربعة ، فرضوا رجلا منهم ، وأبي اثنان ، فاضرب رأسيهما ، فإن رضى ثلاثة رجلا منهم ، وثلاثة رجلا منهم ، فحكم عبد الله ابن عمر ، فأبى الفريقين حكم له ، فليختاروا رجلا منهم . فان لم يرضوا بحكم عبد الله بن عمر ، فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف ، واقتل الباقيين إن رغبوا عما اجتمع عليه الناس .

وهذا يدل على هذه المكانة السامية التي كان يتمتع بها صهيب ، حتى وثق به الخليفة ، وأتابه عنه في إمامة المسلمين في الصلاة ، وهي — كما نعلم — أهم أركان الدين ، حتى لقد اتخذ المسلمون من ندب الرسول أبا بكر ليصلي بالناس ، دلالة على ترشيحه للخلافة عن الرسول في حكم المسلمين . وكذلك اختار عمر صهيباً لتنفيذ السياسة التي رسمها لا انتخاب الخليفة خشية أن ينقسموا على أنفسهم ويتفرق شملهم ، فقوض إليه أن يقتل من يخرج على رأي الجماعة ، وأن يحسم هذا الخلاف ويحول دون الفرقة بين المسلمين . فانظر كيف رفع الإسلام من شأن المستضعفين من غير العرب ، من أمثال صهيب بن سنان الذي احتل هذه المكانة الرفيعة من نفس الرسول ومن نفوس خلفائه رضوان الله عليهم .

ويظهر أن صهيباً قد تقدمت به السن ، فأثر الدعة والهدوء ؛ فلم يشترك في الحركات السياسية في عهد عثمان وعلي . ولا غرو ، فقد أسلم قبل الهجرة بثلاث عشرة سنة .

ذكر المؤرخون أن صهيبا مات في عهد علي بن أبي طالب ، وذلك في السنة الثامنة والثلاثين للهجرة ، وقيل في السنة التاسعة والثلاثين .
وهكذا عاصر صهيب الإسلام خمسين سنة أو تزيد ، وأدرك ما أصابه الرسول من نصر وظفر في سبيل نشر هذا الدين الحنيف ، ووقف على مدى اتساع رقعة الدولة الإسلامية .

٧- عمار بن ياسر

« صَبْرًا آلِ يَاسِرٍ مَوْعِدِكِ الْجَنَّةُ »

أسلم عمار بن ياسر بن عامر بن كنانة بن قيس المذحرجي من عنس من عرب اليمن القحطانيين مع صهيب بن سنان في وقت واحد ، ونال من أذى قريش ما نال غيره من المستضعفين الذين أوذوا وعذبوا في سبيل الله . وكان هو وأبوه من السابقين الأولين .

قدم ياسر أبو عمار مكة مع أخويه الحارث ومالك في طلب أخ رابع ، فرجع الحارث ومالك إلى اليمن ، وأقام ياسر بمكة وحالف أبا حذيفة بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، وتزوج أمة له يقال لها سميّة ، فولدت له ابنه عماراً ، فأصبح عمار حليف بني مخزوم .

والحليف والجار والمعتق من الموالي . فإذا خلع شخص من قبيلته لجريمة اقترفها ، اتصل بقبيلة أخرى ، فأصبحت له حقوق وعليه واجبات ، منها أن يحمي المجير جاره ، ويراعى مركزه في القبيلة . ويجرى على الحليف ما يجري على الجار . وقد أصبح عمار بولائه لبني مخزوم حليفا لهم ، كما فعل كثير من الأسر الفارسية التي أبرمت بينها وبين الأسر العربية عقود الموالاة ، للاحتماء بهم والانتفاع بشرفهم وجاههم ، بعد أن دخلت بلادهم الفرس في حوزة العرب .

لما ظهر الإسلام ، كان عمار بن ياسر من السابقين الأولين : أسلم هو وصهيب على يد الرسول الكريم في دار الأرقم بن أبي الأرقم . قال عمار : لقيت صهيب ابن سنان على باب دار الأرقم ورسول الله صلى الله عليه وسلم فيها ، فقلت : ما تريد ؟ فقال : وما تريد أنت ؟ فقلت : أردت أن أدخل على محمد وأسمع كلامه ، فقال : وأنا أريد ذلك ، فدخلنا عليه ، فعرض علينا الإسلام فأسلمنا وقد روى أن

أول من أظهر إسلامه سبعة: رسول الله، وأبو بكر، وبلال، وخبّاب (بن الأرت)،
وَصُهَيْب، وعمار، وأمه سُمَيَّة .

كان عمار من المستضعفين، الذين سخر المشركون منهم ومن عبادتهم، والذين أوذوا
في سبيل الله . وكان مشركو قريش إذا حميت الرضاه يخرجون عمار بن ياسر وأباه
وأمه إلى الأبطح، وهي أرض مستوية بين مكة ومدينة، ويعذبونهم بجرها، فيمر
بهم الرسول فيقول: صبراً آل ياسر موعدكم الجنة! وكان أبو جهل إذا سمع بإسلام
رجل من ذوى الشرف، أنه وقال: تركت دين أبيك وهو خير منك، لنسفهن
حلمك، ولنفيلن أى لنقبحن وانخطئن رأيك ولنضعن شرفك، وإن كان تاجر اقال له:
لنكسدن تجارتك ولنهلكن مالك، وإن كان ضعيفاً ضربه . ثم أمعن المشركون في
تعذيب عمار، بالحر تارة، وبوضع الصخر على صدره تارة ثم بالتفريق تارة أخرى .
نعم! كان المشركون يعذبون المسلم ويضربونه ويعطشونه، حتى إنه كان لا
يقدر على أن يستوى جالسا من شدة العذاب فيقولون له: اللات والعزى إلهك
من دون الله، فيقول: نعم! وقد مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بعمار بن
ياسر وهو يبكي، فقال له الرسول: مالك؟ أخذك الكفار فغطوك في الماء؟
فقلت: كذا وكذا؟ قال فإن عادوا فقل كما قلت . وكان الرسول يرق لعمار
ولأبويه، فيمر بهم وهم يعذبون، فيرحمهم ويستغفر لهم ويبشرهم بالجنة، حتى إنه
قال يوماً: اللهم اغفر لآل ياسر وقد فعلت . روى ابن سعد قال: كان عمار بن
ياسر يعذب حتى لا يدرى ما يقول، وكذا صهيب، وأبو قائد، وعمار بن فهيرة،
وفيهم نزلت هذه الآية: (والذين هاجروا في الله من بعد ما فتنوا) .

لم يحتمل ياسر هذا العذاب، فمات من شدته، ولم تطق امرأته سمية صبرا،
فأغلظت القول لأبي جهل، فطعنها بحربة فماتت، فكانت أول شهيدة في الإسلام .
وهكذا لقي آل ياسر ما لا يقوا من صنوف الأذى وألوان العذاب في سبيل نصرته
الإسلام وإعلاء شأنه بين العرب .

ولما اشتد إيذاء المشركين للمسلمين، أشار الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام

على أصحابه بالهجرة إلى الحبشة . وقد قيل إن عمارا هاجر مع من هاجر إلى أرض الحبشة . ولما هاجر الرسول إلى يثرب ، سبقه عمار إليها ، وبني وهو في طريقه مسجد قباء . وقد روى أنه قال : ما لرسول الله صلى الله عليه وسلم يد من أن نجعل له مكانا إذا استظل من قائلته ليستظل فيه ويصلي ، فجمع حجارة ، فكان أول مسجد بني في الإسلام ، وهو مسجد قباء .

وكذلك شارك عمار في بناء مسجد الرسول بالمدينة . وكان كل واحد من المسلمين يحمل كعبته . أما عمار فكان يحمل لبنتين لبنتين ، فقال : يا رسول الله ! قتلوني ، يحملون عليّ ما لا يحملون . قالت أم سلمة زوج الرسول : فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ينفذ وفرته بيده ، وكان رجلا جعدا ، وهو يقول : ويح ابن سمية ! ليسوا بالذين يقتلونك ، إنما تقتلك الفئة الباغية ، وارتجز على بن أبي طالب كرم الله وجهه :

لا يستوى من يعمر المساجدا يدأب فيها قائما وقاعدا

ومن يرى عن الغبار حائدا

فأخذها عمار بن ياسر وصار يرتجز وهو يحمل اللبن . كما كان عمار يتغنى أثناء بناء المسجد : نحن المسلمين نبنتي المساجد ، فيرجع عليه الرسول بعض غنائه فيقول : المساجد كما شارك عمار في حفر الخندق حول المدينة حتى كان الرسول يمسح التراب عنه .

كان عمار بن ياسر من المهاجرين الأولين ، الذين هجروا ديارهم وتركوا أموالهم في سبيل الله . وقد عمل الرسول الكريم على تخفيف وطأة الهجرة عن هؤلاء المهاجرين ، فأخى بينهم وبين الأنصار ، وأخى فيمن أخى بين عمار بن ياسر حليف بني مخزوم وحذيفة بن اليمان أخى بني عبس حليف بني عبد الأشهل . وقيل إن الرسول أخى بين عمار بن ياسر وثابت بن قيس بن الشماس أخى بلحدرث الخزرجي خطيب الرسول .

وقد اشترك عمار في الغزوات والسرايا ، وشهد المشاهد كلها مع الرسول عليه

أنبضل الصلاة والسلام . روى أنه شهد بذرا وأحدا والخندق ، كما شهد بيعة الرضوان التي بايع فيها المسلمون الرسول بالحُدُبية — على تسعة أميال من مكة — حين شاع بينهم أن قريشا قتلت عثمان بن عفان . وقد نوه الله تعالى بشأن هذه البيعة في قوله عز وجل في سورة الفتح : (لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزا حكيما) .

وكان لعمار أثر كبير في غزوة ذات الرقاع ، (١) التي خرج فيها الرسول يريد بني محارب وبني ثعلبة في السنة الرابعة للهجرة . فلما انصرف الرسول من هذه الغزوة ، أصاب أحد المسلمين امرأة رجل من المشركين . فلما انصرف الرسول أتى زوجها — وكان غائبا — ولما علم ، حلف ألاّ ينتهي حتى يهريق في أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم دما . وخرج يتبع أثر الرسول — وكان قد نزل في مكان — فقال : من رَجُلٌ يَكُونُنا (٢) ليلتنا هذه ؟ وطلب رجلا من المهاجرين هو عمار بن ياسر ، ورجلا من الأنصار هو عبادة بن بشر ، فقالا : نحن يا رسول الله ! قال : فكونا بفم الشعب ، وكان الرسول وأصحابه قد نزلوا إلى شعب من الوادي . فلما خرج عمار وعبادة إلى فم الشعب ، قال عبادة لعمار : أيّ الليل تحب أن أكفيك أوله أو آخره ؟ قال : بل أكفي أوله . فاضطجع عمار فنام ، وقام عبادة يصلي ، وأتى الرجل فضرب عبادة بسهم فنزعه عبادة ، واستمر في صلاته ، ثم رماه الرجل بسهم آخر ، فنزعه عبادة وأخذ في صلاته كذلك ، ثم رماه الرجل بسهم ثالث ، فنزعه عبادة ثم ركع وسجد . فلما رأى عمار الدم يسيل من جسم عبادة ، قال : سبحان الله ! أفلا أهبتني أول مارماك ؟ قال عبادة : كنت في سورة أقرؤها ، فلم أحب أن أقطعها حتى أنفذها ؛ فلما تابع على الرمي ، ركعت ، فأذنتك وأيم الله ، لولا أن

١ — من منازل بني ثعلبة على مرحلتين من المدينة . وقد عرفت هذه الغزوة بذات الرقاع بشجرة كان يعبدها العرب في هذه الناحية . ذكر الطبري (ج ٣ ص ٣٩) أن هذه الغزوة سميت ذات الرقاع باسم جبل به سواد وبياض وحمرة .

٢ — أي يجرسنا ويحفظنا .

أضيق ثغرا أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم يحفظه ، لقطع نفسي قبل أن أقطعها أو أنفذها .

كان عمار بن ياسر من الصحابة الذين صحبوا الرسول في غزوة تبوك ، التي دعا المسلمين فيها إلى غزو الروم في السنة التاسعة للهجرة ، وخرج بالجيش في طريق الشام . ولكن المنافقين أخذوا يشنون العرب عن قتال الروم ، وقال بعضهم لبعض : أتحسبون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضا ؟ والله لكأننا بكم غدا مقرنين في الجبال إرجافا وترهيبا للمسلمين . ووثق الرسول بعمار بن ياسر ، فأمره أن يلحق بالمسلمين ويستطلع رأيهم ، فانطلق إليهم عمار وثناهم عن رأيهم ، فأتوا الرسول يعتذرون إليه بفضل تدخل عمار في الأمر .

وكان عمار موضع تقدير الرسول ومحل ثقته ، لصدق إيمانه وإخلاصه للرسول وتمسكه بدعوته ، وحسن بلائه في نصرة الدين . روى أن خالدا بن الوليد أغلظ لعمار ، فانطلق عمار يشكو إلى الرسول ، وجاء خالد وهو يشكو ، وأخذ يغلظ له القول ، والرسول ساكت لا يتكلم ؛ فبكى عمار وقال : يا رسول الله ألا تراه ؟ فرفع الرسول رأسه وقال : من عادى عمارا عاداه الله ، ومن أبغض عمارا أبغضه الله ! قال خالد : فخرجت ، فما كان شيء أحب إلي من رضا عمار فلقيته فرضي . ولما انتقل الرسول إلى جوار ربه ، كانت لعمار مواقف مشهورة في عهد الخلفاء الراشدين ، فقاتل يوم اليمامة أروع قتال ، وراه بعض الصحابة على صخرة وهو يصيح : يا معشر المسلمين ! أمن الجنة تفرون ؟ إلى ! إلى ! أنا عمار بن ياسر . هلموا إلى ! ومما يثير الدهش أن عمارا كان ينادى في المسلمين ويحثهم على قتال مسيئمة الكذاب وأنصاره من المرتدين ، وقد قطعت أذنه وتدلّت من رأسه ، وهو يقاتل أشد قتال وأعنفه .

عرف عمر لعمار إخلاصه وكفايته ، فولاه الكوفة وكتب إلى أهلها : « . . أما بعد فإني قد بعثت إليكم عمارا أميرا ، وعبد الله بن مسعود وزيرا ومعلما ، وهما من نجباء أصحاب محمد فاقتدوا بهما » .

ولكن أهل الكوفة ضايقوه وشكوه إلى عمر ، فعزله عنها . قيل إن عمر قال لعمار : أساءك عزلنا إياك؟ فقال له : أما إذ قلت ذلك ، فقد ساءني حين استعملتني وساءني حين عزلتني .

وكان عمار ممن بايعوا عثمان بن عفان ، وكان موضع ثقة عثمان في مبدأ عهده . فلما اشتد استياء أهل الأمصار الإسلامية من عثمان ، ندب أربعة من الصحابة ليبحثوا أسباب هذا الاستياء ، ويقفوا على حقيقة الحال في هذه الأمصار ، فندب محمد بن مسلمة إلى الكوفة ، وأسامة بن زيد إلى البصرة ، وعبد الله بن عمر إلى الشام ، وعمار بن ياسر إلى مصر .

وعاد هؤلاء الذين ندبهم الخليفة إلا أعمارا الذي استماله الثائرون في مصر ، وساعد على ذلك ما كان من عثمان لعمار ، حيث أدب به لقتل حصل بينه وبين عباس ابن عتبة بن أبي لهب . ويروى المؤرخون أن أعمارا أخذ على عثمان أمورا ، وأنه اشترك مع ليف من الصحابة في كتاب بعثوا به إلى عثمان يلومونه فيه ، وأقبل أعمار على عثمان ، وقدم إليه الكتاب ، فقرأ عليه صدرا منه ، فشمته عثمان وضربه برجليه . وكان عمار شيخا ضعيفا قد تقدمت به السن .

ولما قتل عثمان وطلب معاوية بدمه ، انضم أعمار إلى علي ، واشترك في موقعة الجمل ، ثم صحبه في موقعة صفين ، وأبلى بلاء حسنا ، حتى إن الصحابة كانوا يتبعونه كأنه علم لهم . وقد روى أنه كان يقول لهاشم بن عتبة بن أبي وقاص ، وقد أحس بدنو أجله : ياهاشم ! تفر من الجنة؟ الجنة تحت البارقة ، اليوم ألقى الأجنة محمدا وحزبه ، والله لو ضربونا حتى يبلغوا بنا شعاب هجر لعلمت أنا على حق وأنهم على الباطل . وقال أعمار : اتوني بشربة لبن ! إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : آخر شربة تشربها من الدنيا شربة لبن ، وشربها وقاتل حتى قتل . وكان عمره يومئذ أربعاً وتسعين سنة ، (وقيل ثلاث وتسعون ، وقيل إحدى وتسعون) . ولما ضرب أعمار قال : ادفنوني في ثيابي فايني مخاصم . وكان ذلك في شهر ربيع الأول سنة سبع وثلاثين ، ودفنه علي بن أبي طالب في ثيابه ولم يغسله .

روى أهل الكوفة أنه صلى عليه وهو مذهبهم في الشهيد أن يصلى عليه ولا يغسل .
وقد حزن على بن أبي طالب وأصحابه على قتل عمار حزنا شديدا وثار تائرتهم ،
وأدى ذلك إلى اشتداد القتال بين جند علي وجند معاوية .

كان عمار بن ياسر من جلة أصحاب الرسول ، وكان من السابقين إلى
الإسلام . وقد اشتهر برواية الحديث . روى عنه علي بن أبي طالب ، وابن عباس ،
وأبو موسى ، وجابر ، وأبو أمامة ، وأبو الطفيل ، وغيرهم من الصحابة . كما روى
عنه من التابعين ابنه محمد ، وعمار ، وابن المسيب ، وأبو بكر بن عبد الرحمن ،
ومحمد بن الحنفية ، وأبو وائل ، وعلقمة وغيرهم . قال الرسول صلى الله عليه
وسلم : اقتدوا باللذين من بعدي : أبي بكر وعمر ، واهتدوا بهدي عمار . وروى
عن عائشة رضی الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما خُصَّيرَ عمار
بين أمرين إلا اختار أَرشدهما .

٨- سلمان الفارسي

« سلمان منا أهل البيت »

رحب الفرس بالعرب حبا في الخلاص من ظلم حكامهم ، ورغبة في إعفائهم من الخدمة العسكرية ، وأملا في تمتعهم بالحرية الدينية ، لأن الإسلام كان يبيح لغير المسلمين من يهود ومسيحيين ، ومن زرادشتيين وصابئة وعبدة الأوثان والنار والحجارة ، أن يتدينوا بما يرضون لأنفسهم من دين ، على أن يدفعوا الجزية للمسلمين . كما رحب سكان المدن ، وخاصة الصناع وأهل الحرف في فارس ، الذين كان ينظر اليهم نظرة احتقار وازدراء ، بالدين الإسلامي ، لأنه يبيح لهم أن يتمتعوا بالحرية الدينية ، التي تكفل لهم المساواة التامة مع غيرهم في الحقوق ، وقد وجدوا السبيل إلى الإسلام سهلا ميسورا ، لأن الفارسي يستطيع أن يجد في القرآن الكريم كثيرا من التعاليم الأساسية في دياناته القديمة ، وإن كان ذلك بصورة مختلفة كثيرا . وثمة ناحية اجتماعية حبيبت إلى كبار الفرس ، وخاصة الدهاقين ، وهم كبار الملاك ، اعتناق الإسلام ، لأن الأرض ، وإن كانت قد أصبحت ملكا للفتاحين من العرب لاستيلائهم عليها عنوة ، قد تركوها للأهالي يزرعونها ، على أن يؤدوا جزءا من غلتها ضريبة عقارية تسمى الخراج . وكان هذا من أهم العوامل التي ساعدت الفرس على اعتناق هذا الدين .

كان سلمان من أهالي فارس ، من إحدى قرى أصبهان يقال لها « جسي » . وكان أبوه « دهقان » هذه القرية ، وكان يحبه حبا جما ، حتى لقد بلغ من محبته إياه ، وإيثاره له ، وخوفه عليه ، أن حبسه في داره كما تحبس الجارية . على أن هذا الفتى المدلل لم يضيع وقته وينصرف إلى حياة اللهو واللعب ، بل عكف على دراسة المجوسية دين آبائه وأجداده ، حتى كان سادن النار الذي يوقدها ، ولا يتركها تجبو ساعة .

وكان لأبي سلمان بناء في داره ، فقال له يوما : يا بني ! قد شغلني ماترى ، فانطلق إلى الضيعة ولا تحتبس فتشغلني عن كل ضيعة بهمى بك .

وخرج سلمان ، فمر بكنيسة للنصارى وهم يصلون ، فأعجب بصلاتهم ، وسألهم عن أصل دينهم فقالوا : بالشام . وظل مع النصارى حتى غابت الشمس ، فاستبطأه أبوه وبعث رسلا في طلبه . فلما عاد سلمان قال له أبوه : يا بني ! قد بعثت إليك رسلا ، فقال : مررت بقوم يصلون في كنيسة ، فأعجبني ما رأيت من أمرهم ، وعلمت أن دينهم خير من ديننا ، فقال له : يا بني ! دينك ودين آبائك خير من دينهم ! فساورت أباه الهواجس ، وخشى أن يفتن ابنه عن دينه ، فقيده وحبسه في داره . لكنه احتال حتى اتصل بهؤلاء النصارى ، وطلب إليهم أن يعلموه إذا قدم عليهم من الشام ركيب من تجار النصارى ، وعولوا على العودة إليها . فلما أخبروه بقرب رحيل هذا الركب ، ألقى القيد من رجله ، وخرج معهم حتى أتى الشام ، والتقى بأحد أساقفتها .

لكن سلمان لم يعجب بسيرة هذا الأسقف ، لأنه كان يكتنز الصدقة لنفسه ولا يعطيها المساكين ، حتى جمع سبع قلال مملوءة ذهباً . ولما مات هذا الأسقف خلفه أسقف آخر كان زاهداً في الدنيا راغباً في الآخرة . فألقى الله حبه في قلب سلمان ، فبقي معه حتى حضرته الوفاة ، فقال له : أوصني ! فذكر له رجلاً بالموصل . فلما مات ذلك الأسقف ، لحق بها سلمان ، ولقى ذلك الرجل ، وكان زاهداً متعبداً ، فسكث معه حتى حضرته الوفاة ، فقال له سلمان : أوصني ! فدلّه على رجل بعمشورية ، فبقي معه ، وأخذ منه غنماً وبقرات . فلما حضرت ذلك الرجل الوفاة ، سأله سلمان أن يرصيه ، فقال : « لا أعلم أحدا اليوم على مثل ما كنا عليه ، ولكن قد أظلك نبي يبعث بدين إبراهيم الحنيفية ، مهاجرة (مكان هجرته) بأرض ذات نخل ، وبه آيات وعلامات لا تخفى ، بين كتفيه خاتم النبوة ، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة . فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل . » ولاعجب في ذلك ، فقد بشر بعض رجال الدين في الشام بظهور نبي جديد . فلما

ذهب الرسول عليه الصلاة والسلام مع عمه أبي طالب إلى بَصْرَى بالشام ، وكان في الثانية عشرة من عمره ، لمح فيه راهب يدعى بَحْيِرًا ، علامات النبوة ، بعد أن سأله عن أمور في نومه ويقظته ، ورأى في بدنه علامات النبوة على ما جاء في كتب النصارى . وكتب هرقل إمبراطور الروم إلى صاحب إيلياء — وكان مرجعا في علم النجوم — يخبر ، بأنه رأى من علم النجوم أن نبى آخر الزمان قد ظهر ، ويسأله رأيه في ذلك .

رحل سلمان إلى جزيرة العرب مع ركب من قبيلة كلب ببادية الشام ، وفي وادى القرى باعوه لرجل يهودى ، فأقام عنده حتى اشتراه يهودى آخر من بنى قريظة قدم به إلى يثرب ، فظل يتعهد نخله حتى سمع بهجرة الرسول عليه الصلاة والسلام إلى المدينة .

يقول سلمان : « فإني لفي رأس نخلة ، إذ أقبل ابن عم لصاحبي ، فقال : إى فلان ! قاتل الله بنى قيلة (أم الأوس والخزرج) ، مررت بهم أنفا ، وهم مجتمعون على رجل قادم عليهم من مكة يزعم أنه نبى ، فوالله ما هو إلا أن سمعتها ، فأخذنى القُرُورَ وَرَجَفَتِ بى النخلة حتى كدت أن أسقط ، ونزلت سريرا وقلت : ما هذا الخبر ؟ فلكمنى صاحبي لكمة وقال : وما أنت وذاك ؟ أقبل على شأنك ، فأقبلت على عملى حتى أمسيت ، فجمعت شيئا ، فأتيته به وهو بقُبَّاء عند أصحابه ، فقلت له : إنه قد بلغنى أنك رجل صالح ، ومعك رجال من أصحابك ذوو حاجة ، فرأيتكم أحق به ، فوضعت بين يديه ، فكف يده وقال لأصحابه . كلوا ، فأكلوا ، فقلت : هذه واحدة ورجعت .

« ولما دخل الرسول المدينة ، جمع سلمان شيئا وذهب به إليه ، وقال له : أحببت كرامتك ، فأهديت لك هدية وليست بصدقة ، ومد يده ، فأكل وأكل أصحابه ، فقلت : هاتان اثنتان ؛ ورجعت فأتيته ، وقد تبع جنازة في بقيع الغرقد ، وحواله أصحابه ، فسلمت وتحولت أنظر إلى الخاتم في ظهره ، فعلم ما أردت ، فألقى رداءه ، فرأيت الخاتم فقبلته وبكيت ، فأجلسنى بين يديه ، فحدثته بشأنى كله . . .

فأعجبه ذلك وأحب أن يسمعه أصحابه ، ففصاني معه بدر وأحد لبقائي في الرق ، فقال لي كاتب (١) يا سلمان عن نفسك ! فلم أزل بصاحبي حتى كاتبته علي أن أغرس له ثلثمائة ودية (٢) وعلى أربعين أوقية من الذهب . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أعينوا أخاكم بالنخل ! فأعانوني بالخمس والعشر حتى اجتمع لي ، فقال لي : نقر لها ، (٣) ولا تضع منها شيئاً حتى أضعه يدي . ففعلت فأعاني أصحابي حتى فرغت فأتيته ، فكنت آتته بالنخلة فيضعها ويسوي عليها تراباً ، فأصرف . والذي بعثه بالحق فما مات منها واحدة ، وبقي الذهب ، فبينما هو قاعد ، إذ أتاه رجل من أصحابه بمثل البيضة من ذهب أصابه من بعض المعادن ، (٤) فقال اذع سلمان المسكين الفارسي المكاتب ! فقال : أذ هذه ! (٥) فقلت يا رسول الله ! وأين تقع هذه بما علي ؟

دخل سلمان الفارسي في دين الله ، وحسن إسلامه ، وأصبح من كبار الصحابة رضوان الله عليهم . وشهد غزوة الخندق ، تلك الغزوة التي كان لها أثر بعيد في نصره الدين ونشر الدعوة ، بعد أن أخذ اليهود الذين أجلاهم الرسول عن المدينة ، بعد أن أفسدوا عليه كل شيء في حياة أهل المدينة بنفاقهم وعدم وفائهم بالعهود ، وألبوا عليه سائر القبائل العربية . وكانت قريش قد خرجت من غزوة أحد منتصرة ، وخيل إليها أنها هزمت المسلمين ، ولم يبق إلا أن تشن على الرسول

١ - أجمع فقهاء المسلمين على أن مكاتبه العبد مستحبة . وللإمام أحمد بن حنبل في رواية أنها واجبة متى دعا العبد سيده إليها . وان للعبد التجارة ليحصل على ما يدهه من نجوم (أقساط) الكتابة ، وأن على سيده أن يتركه يشتغل أين شاء وفيما شاء . وإذا امتنع المكاتب عن الأداء ومعه ما يبق من المال المتفق عليه ، فالحنيفة تجبره على الأداء حرصاً على تحريره . ويشترط الفقهاء أن تراعى في عقد الكتابة حال الرقيق ، ولم يترك الإسلام فرصة من فرص التحرير إلا انتهزها ، فسن طريقة التدبير وهي أن يوصى السيد بأن يكون عبده حراً بعد موته .

٢ - يفتح الواو وكسر الدال وتشديد الياء : الفديلة فاتت اليد طويلاً ، تنقل من منبتها لأولى لغرض في مكان صالح لها .

٣ - ابحت لها في الأرض مواضع لتفوس فيها .

٤ - المعادن : المناجم .

٥ - ادفع هذه مما عليك لمن كاتبك .

عليه الصلاة والسلام غارة أخرى فتقضى عليه نهائياً، وعولوا على أن يحاصروا الرسول وجيشه في داخل المدينة وفي خارجها، وتهيأت الأحزاب للخروج إلى المدينة المنورة.

ولما اتصل بالرسول ما عزم عليه المشركون، أشار عليه سلمان الفارسي بحفر خندق شمالي المدينة، وكانت الجهات الأخرى محصنة بالجبال والنخيل والأبنية، ليحولوا دون وصول العدو إليهم. فلما أمر رسول الله بحفره، أعجب المهاجرون والأنصار برأي سلمان، فقال المهاجرون: سلمان منا، وقال الأنصار: سلمان منا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: سلمان منا أهل البيت.

ولم يكن العرب ذوى دراية بهذا النوع من الأعمال الحربية، التي وقف عليها سلمان في بلاد الفرس قبل ظهور الإسلام. حتى إن قريشا قد دهشت عندما رأته وقال قائلهم: والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تسكيدها. ولا عجب في ذلك، فقد كان أطول أمد الحصار أسوأ الأثر في نفوس الأحزاب المتحالفة مع قريش، كما كان لإخفاقها ورجوعها تجر أذيال الخيبة، وتندب الآمال التي كانت تحلم بها، أثر كبير في سرعة انتشار الإسلام بين القبائل العربية. كما كان من أثر حفر هذا الخندق، أن قريشا لم تعد تفكر في غزو المدينة مرة أخرى، وبلغ من اطمئنان الرسول عليه الصلاة والسلام إلى مناعة المدينة بعد حفر الخندق وانتصاره على المشركين، أنه قال: «اليوم نغزوهم ولا يغزونا».

ولاريب أنه كان لتلك المشورة التي أشار بها سلمان على النبي صلى الله عليه وسلم، أكبر الأثر في قوة الإسلام وانتشاره، وضعف روح المقاومة في قريش، مما جعل الدعوة الإسلامية تتجه إلى الاستقرار وتخرج من نصر إلى نصر.

كان إسلام سلمان في السنة الأولى للهجرة، مبشراً بانتشار الإسلام في خارج الجزيرة العربية، قبل أن يدور بخلد العرب أي شيء، يتعلق بفتح ما وراء هذه الجزيرة؛ فقد صرح الرسول في وضوح وجلاء، بأن دعوة الإسلام ليست مقصورة على الجنس العربي، فقال مؤيداً دعوى عموم الرسالة للجنس البشري:

إن بلالا أول ثمار الحبشة ، وصهيبا أول ثمار الروم ، وسلمان أول ثمار الفرس .
عرف سلمان بالمتفقه في الدين ، وروى عن الرسول كثيرا من الأحاديث ،
لأنه كان من أكثر المسلمين صحبة وأعلام مكانة عنده . عن أبي ظبيان قال :
« كنا مع سلمان الفارسي في غزاة ، فر رجل وقد جنى فاكهة ، فجعل يقسمها بين
أصحابه ، فرب سلمان نسبه ، فرد على سلمان وهو لا يعرفه ، فقيل له : هذا سلمان ،
فرجع فجعل يعتذر إليه ، ثم قال له الرجل : ما يحل لنا من أهل الذمة يا أبا عبد الله ؟
قال : ثلاث : من عماك إلى هداك ، ومن فقرك إلى غناك . وإذا صحبتك صاحب
منهم ، تأكل طعامه ويأكل طعامك ، ويركب دابتك وتركب دابته ، في أن لا تصرفه
عن وجه يريده . »

روى سلمان عن الرسول قال : « من اغتسل يوم الجمعة ، فتنظفها ربما استطاع
من الطهر ، ثم ادهن من دهنه أو من طيب بيته ، ولم يفرق بين اثنين ، فإذا خرج
الإمام أنصت غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى . »
لم يتأثر سلمان بطيب أرومته وتدل عليه وترفه حين كان في ميسرة الصبا .
فقد تقلبت به الأحوال ، فأصبح عبدا نصرانيا بالمدينة ، ثم تحول إلى الإسلام ،
فكان أول ثمار الفرس أو سابق الفرس كما تقدم ، وحسن إسلامه ، وحسنت
صحبته للرسول حتى عده من آل البيت . فلما تقدمت به السن وأثقلت أعباء إمارة
« المدائن » كاهله في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنهما ، زاد تقشفه وزهده في
الدنيا ، حتى كان يلبس الصوف ويركب الحمار ببردعته بغير إكاف (ركاب) ،
ويأكل خبز الشعير . ولا عجب فقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر
وعمر رضوان الله عليهما ، لا يتأقنون في ملبسهم ؟ فحذا عمالهم حذوهم مع ما فتح
الله عليهم من البلاد وأوسعهم من الأموال .

وكان سلمان من المضعفين ، حتى ذهب بعض إلى القول بأنه عاش مائتين
وخمسين سنة بل ثلثمائة وخمسين . وهو قول بعيد عن التصديق . فليس من السهل
إذن تحديد سنة ولادته . كذلك اختلاف المؤرخون وأصحاب السير في سنة وفاته

فقيل إنه توفي في خلافة عمر بن الخطاب ، وقيل في خلافة عثمان سنة خمس
وثلثين ، وقيل في خلافة عليّ سنة ست وثلثين ، بيد أن وفاته في خلافة عمر
أقرب إلى الصواب .

وهكذا انتهت حياة سلمان في غموض كما بدأت في غموض ؛ فلم يذكر لنا
المؤرخون شيئاً ذاغناء عن حياته بعد الرسول ، برغم صحبته له ، وعلو مكانته
عنده ، واشتراكه في نشر الدعوة وتفقيهه في الدين ، وكفايته في الإدارة . ومات
سلمان وقد ترك ثلاث بنات ، أقامت إحداهن بأصبهان ، وأقامت اثنتان بمصر .

٩- سعد بن عبادة الأنصاري

سيد الخزرج

ينتهي سعد بن عبادة بن دليم بن حارثة بن أبي حزيمة (١) بن ثعلبة بن طريف - ابن الخزرج بن ساعدة بن كعب بن الخزرج الأنصاري الساعدي ، إلى قبيلة الخزرج التي ترجع في أصلها إلى عرب الجنوب ، ويكنى أبا ثابت ، وقيل أبا قيس . كان أهل يثوب من الأوس والخزرج قد ألفوا أفكار اليهود الدينية ، وما فيها من بَغْث وحساب وما بعدهما من جنة ونار وغير ذلك ، حتى أصبحوا أكثر استعدادا لفهم معنى نبوة الرسول الكريم من أهل مكة الوثنيين . وعرف أهل يثوب مبلغ الشبه بين تعاليم الرسول ، وبين من توعدهم به اليهود من بعث الرسول : يقومون بنصرته ، ويستأثرون به على خصومهم . لذلك بادر أهل يثوب من العرب إلى تصديق الرسول ، حتى لا يسبقهم هؤلاء اليهود إلى اتباعه ، فيقتلوهم قتل عاد وإرم .

ووجد الأوس والخزرج في شخصية الرسول أمّيتهم ، لأنه كان من أكرم بيوتات قريش وساداتها ، ثم هو ابن آمنه التي تنتسب إلى بني النجار ، أحد بطون الخزرج ، وهو نبي كريم ، يستطيعون أن يطاولوا به اليهود بما ينزل عليه من وحى ، كما يستطيع هو أن يجمعهم تحت لوائه .

كان الأوس والخزرج يتنازعان الرياسة ، وقد وقعت بينهما الحروب بسبب المنافسة : فلما حلت الهزيمة بالخزرج يوم بُعث ، أصبحوا أكثر استعدادا لقبول الإسلام . ومن ثم كانوا ينشدون حليفا يوحد كلمتهم هم والأوس ، أو يساعدهم

(١) بفتح الحاء المهملة وكسر الزاي وبعدها ياء ثم ميم وهاء ، وقيل : حارثة بن حزام بن حزيمة .

على التغلب على منافسيهم . فلما أقبل جماعة من الخزرج إلى مكة للحج في الموسم التالي ليوم بعث ، لقيهم الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام عند العقبة (١) ، فأجابوا دعوته . ولما عادوا إلى يثرب ، دعوا قومهم إلى الإسلام ، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله .

وفي السنة الثانية عشرة من النبوة ، قدم مكة اثنا عشر رجلا من أهل يثرب ، لقوا الرسول بالعقبة ، وبايعوه على ألا يشركوا بالله شيئا ، ولا يسرقوا ، ولا يزنوا ، ولا يقتلوا أولادهم ، ولا يأتوا بهتان ، ولا يعصوه في معروف . وفي السنة الثالثة عشرة من النبوة ، قدم مكة ثلاثة وسبعون شخصا من أهل يثرب الذين أسلموا حديثا ، وقد عقدوا العزم على أن يدعوا الرسول الكريم للهجرة إلى بلدهم ، ويبايعوه على النبوة والزعامة عليهم ، فطلب منهم الرسول أن ينتخبوا من بينهم اثني عشر نقيبا ، فانتخبوا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس .

كان سعد بن عباد سيد بني ساعدة ونقيبهم ، وكان من النقباء الذين اختارهم قومهم ، لعلو مكانتهم فيهم ، وارتفاع شأنهم بينهم ، ولأنهم يستطيعون أن يحملوا قومهم على قبول الدعوة وحماية الرسول ودفن أذى المعتدين عنه .

وكان سعد بن عباد من أشد أهل يثرب تمسكا بدعوة الرسول ، وأكثرهم استعدادا لنصرته والترحيب بمقدمه . بل لقد حرص على أن يكون له شرف استقبال الرسول في داره ، فلقيه مع المنذر بن عمرو في رجال من بني ساعدة ، فقالوا : يا رسول الله ! هلم إلينا ! إلى العدد والعدة والمنعة ! فقال : خلوا سبيلها (يعني ناقته) فإنها مأمورة ! فخلوا سبيلها ، فانطلقت ، حتى إذا بلغت دار بني مالك ابن النجار ، بركت على مرءٍ بد لغلامين يتيمين من بني النجار ، فنزل عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونزل في دار أبي أيوب بن خالد بن زيد الأنصاري .

على أن سعدا ، وإن لم ينل شرف نزول الرسول بداره ، حرص الحرص كله على إكرام وفادته ، والتعبير عن ولائه له ومحبته إياه ؛ فكان يحمل إليه كل

(١) هي منزل في طريق مكة على مقربة من منى .

يوم جفنه مملوءة ثريداً أولحماً ، يبعث بها إليه في المكان الذي يسير إليه . ولا
عجب فقد ضربت الأمثال بسعد بن عباد وأهل بيته ، في الجود والكرم ، وقال
رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قيس بن سعد بن عباد : إنه من بيت جود .
وقيل إن قريشا سمعوا صائحاً يصيح ليلاً على جبل أبي قبيس عن سعد بن
مُعَاذٍ وَسَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ :

فَإِنْ يَسْلَمِ السَّعْدَانِ يُصْبِحُ مُحَمَّدٌ

بِمَكَّةَ لَا يَخْشَى خِلَافَ مَخَالِفِ

فزعوا أنه يعني سعد بن زيد مناة بن تميم وسعد هذيم من قضاة ، فسمعوا
في الليلة التالية قائلاً يقول :

أَيَا سَعْدَ سَعْدِ الْأَوْسِ كُنْ أَنْتَ نَاصِراً

وَيَاسَعِدَ سَعْدَ الْخَزْرَجِيِّنَ الْغَطَارِفِ

أَجِيئَا إِلَى دَاعِيِ الْهُدَى وَتَمَنِّيَا

عَلَى اللَّهِ فِي الْفِرْدَوْسِ مُنِيَّةَ عَارِفِ

وَإِنَّ ثَوَابَ اللَّهِ لِلطَّالِبِ الْهُدَى

جَنَّانٌ مِنَ الْفِرْدَوْسِ ذَاتِ زَخَارِفِ

فَقَالُوا : هَذَا سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ وَسَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ .

اشتهر سعد وأبوه وجده وابنه بالجود والكرم ، وقد بلغ من تقدير الرسول
لسعد بن عباد وآله أن قال : اللهم اجعل صلواتك ورحمتك على آل سعد بن عباد .
وروى ابن سيرين : كان أهل الصفة إذا أمسوا ، انطلق الرجل بالواحد ، والرجل
بالاثنين ، والرجل بالجماعة ؛ فأما سعد فكان ينطلق بثمانين . لذلك لانعجب إذا
رأينا الأنصار يلقبون سعد بن عباد : الكامل . كذلك اشتهر عن سعد أنه كان
يحسن العوم والرمي .

كان سعد بن عباد من رؤساء الأنصار وساداتهم ، وكان سيد الخزرج غير منازع ،
حتى كان يحمل راية الأنصار في الحروب ، وأبلى البلاء الحسن في الجهاد . ذكر

ابن الكلبي والمدائني والواقدي أنه شهد بدرا ، وإن كان ابن إسحق لم يذكره بين البدرين .

وكذلك اشترك سعد بن عبادة مع الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام في غزوة الأحزاب . وقد بلغ من شدة ثقة الرسول بسعد بن عبادة واعتماده عليه في أوقات الحرج ، أنه بعث بسعد بن عبادة سيد الخزرج ، وسعد بن معاذ سيد الأوس ، وعبد الله بن رواحة ، إلى بني قريظة من اليهود ليوافقوه بأخبارهم ، بعد أن نمي إليهم نقضوا ماتعاهدوا عليه مع المسلمين ، وقال لهم الرسول : انطلقوا حتى تنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا ! فإن كان حقا فالحنوا (١) لي لحننا أعرفه ، ولا تفتوا في أعضاء الناس (٢) ، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم ، فاجهروا به للناس . ولما رأوا الغدر من اليهود ، عادوا وأخبروا الرسول ، فقال : الله أكبر ! أبشروا يامعشر المسلمين !

ولما اشتد خوف المسلمين من انضمام بني قريظة إلى قريش وحلفائها الذين حاصروا المدينة ، فاوض الرسول قائدي غطفان في قبول ثلث غلة المدينة ، على أن يكفوا عن الحصار ، فقبلا . وتحدث الرسول إلى سعد بن معاذ سيد الأوس ، وسعد بن عبادة سيد الخزرج ، عن أمر ذلك الاتفاق ، فقالا ! يا رسول الله ! إن كنت أمرت بشيء فافعله ، وإن كان غير ذلك ، فوالله مانعطيهم إلا السيف . فقال رسول الله : لم أؤمر بشيء ، وإنما هو رأي أعرضه عليكم ، فقالا : يا رسول الله ! ما طمعوا بذلك منا قط في الجاهلية ، فكيف اليوم وقد هدانا الله بك ؟ فسر النبي صلى الله عليه وسلم بقولهما .

وكذلك اشترك سعد بن عبادة في غزوة الفتح ، وأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم رايته ، فمر بها على أبي سفيان ، وكان قد أسلم ، فقال له سعد : اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمه ، اليوم أذل الله قريشا . فلما مر رسول الله

(١) اللحن ، التورية أو الرمز ، بمعنى أن يخالف ظاهر الكلام معناه .

(٢) نت في عضده اذا ضعفه وأوهنه .

في كتيبة من الأنصار ، ناداه أبو سفيان : يا رسول الله ! أمرت بقتل قومك !
زعم سعد أنه قاتلنا ، فقال عثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف : يا رسول الله !
ما نأمن سعدا أن تكون منه صولة في قريش . فقال رسول الله : يا أبا سفيان !
اليوم يوم المرحم ، اليوم أعز الله قريشا ! ثم أخذ اللواء من سعد ، وأعطاه ابنه
قيسا ، فأخذ اللواء ودخل به مكة . (١)

كان سعد بن عبادَةَ غيوراً شديداً الغيرة على الإسلام والضرب على أيدي
المشركين . روى عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال : إن سعدا لغيور ، وإني
لأغبر من سعد ، والله أغبر منا ، وغيره الله أن تؤتى محارمه .

كان لسعد بن عبادَةَ مواقف مشهودة في حياة الرسول ، تدل على صدق إيمانه
رشدة إخلاصه للرسول ، وتمسكه بدعوته . وقد ظهر هذا الإخلاص حين نزل
الرسول عما كان له من بني هوازن وأموالهم ، وظن الأنصار أنه أصبح في غنى
عنهم ، فأمر سعد بن عبادَةَ أن يجمع له الأنصار ، وخطبهم خطبة بليغة ، أكد لهم
فيها محبته إياهم ، وإيثارهم على غيرهم ، ودعا لهم ولأبنائهم وأبناء أبنائهم ، فبكى
الأنصار وعلى رأسهم سعد ، وطابت نفوسهم برضاء رسول الله عليهم ، وعدوا
ذلك غنماً عظيماً .

على أن التنافس على الرياسة ، الذي ساد بين الأوس والخزرج قبل هجرة
الرسول إلى المدينة ثم خبا في حياة الرسول ، لم يلبث أن بعث إثر وفاته ، وطمع
سعد في الخلافة ، وجلس في سقيفة بني ساعدة حيث اجتمع الأنصار ، ورشح
الخزرج سعد بن عبادَةَ ، فقام فيهم خطيباً وقال : « ياه عَشْرَ الأنصار ! لكم سابقة
في الدين وفضيلة في الإسلام ليست لقبيلة من العرب . . . استبدوا بهذا الأمر
دون سائر الناس » .

ولما اتصل نبأ هذا الاجتماع بعمر بن الخطاب ، أسرع مع أبي بكر وأبي عبيدة
إلى السقيفة ، وقام أبو بكر خطيباً ، وأخذ يبرر موقف المهاجرين وأحققتهم

(١) وقيل أعطاه الزبير بن العوام وقيل أمر علياً .

بالخلافة ، وقال : وأنتم يامعشر الأنصار ، من لا ينكر فضلهم ولا سابقتهم العظيمة في الإسلام ، رضيكم الله أنصارا لدينه ورسوله ، وجعل إليكم هجرته ، فيكم جلة أزواجه وأصحابه ، فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا بمنزلتكم . فنحن الأمراء وأنتم الوزراء ، لا تفتنون بمشورة ، ولا تقضي دونكم الأمور .

هنا تجلت النفس العربية والطبيعة القبليّة : فالأنصار يخشون قريشا ، والمهاجرين إن استأثروا بالأمر دونهم ، وهم جميعا فيما بينهم يتوجسون ، وتخشى كل من الأوس والخزرج صاحبها . وخشيت الأوس أن ينفرد الخزرج بالأمر ، فانضمت إلى المهاجرين . ثم قام عمر فبايع أبا بكر بالخلافة ، وتخلف سعد عن بيعته . ويظهر أنه انصرف عن السياسة والحرب ، وآثر الحياة الهادئة ، ورحل إلى الشام ، وأقام بحوران .

احتل سعد بن عبادة منزلة رفيعة في قلب الرسول ، الذي كان يزوره في داره ، ويؤمّنني عليه من مظاهر التقدير ما هو خليق به ؛ لسبقه إلى قبول الدعوة ، وأثره في الجهاد . وقد روى عنه بعض كبار الصحابة كعبد الله بن عباس . وروى سعد بن عبادة عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما من رجل تعلم القرآن ثم نسيه ، إلا لقي ربه وهو أجذم ، وما من أمير إلا أتى يوم القيامة مغاولا حتى يطلقه العدل » .

وقد روى عنه أولاده : قيس وسعيد وإسحاق ، وحفيده شريك بن سعيد ، ومن الصحابة : عبد الله بن عباس ، وأمامة بن سهل .

مات سعد بن عبادة بحوران في السنة الخامسة عشرة ، وذلك في عهد عمر بن الخطاب ، وقيل إنه مات في السنة الرابعة عشرة ، وقيل في السنة السادسة عشرة . وقد روى أنه وجد ميتا على مغتسلة وقد اخضر جسده ، ولم يعلموا بنأ موته ، حتى سمع بعض الغلمان قائلا يقول من برئ :

نَحْنُ قَتَلْنَا سَيِّدَ الْخَزْ

رَجَ سَعْدَ بْنَ عَبَّادَةَ

قَرَمِينَاهُ

بِسْمِهِ

ن فَم نَحْط فُوَادِه

فلما سمع الغلمان ذلك ذعروا ، فحفظوا ذلك اليوم ، ثم وجدوا أنه اليوم
الذي مات فيه سعد بالشام . وقيل إن قبره بمكان يقال له المنبحة ، وهي قرية
من غوطة دمشق ، ولا يزال المسلمون يفتنون إلى هذا المكان لزيارة قبر
سعد بن عبادة .

١٠ - سعد بن معاذ

سيد الأوس

كان سعد بن معاذ سيد الأوس ، من الأنصار الذين رحبوا بقدوم الرسول على بلدهم يثرب ، واجتمعوا تحت لوائه ، وكان لهم أثر ملحوظ في نشر الدعوة الإسلامية .

ينتسب سعد بن معاذ بن النعمان بن امرئ القيس بن زيد بن عبد الأشهل ابن جشم بن الحارث بن الخزرج بن الثبيت (١) إلى قبيلة الأوس ، التي هاجرت من بلاد اليمن على أثر انكسار سد مأرب . وأمه كبشة بنت رافع من صحابة الرسول وأنصاره .

كان الأوس والخزرج من عرب يثرب ، أكثر استعدادا لقبول الدعوة الإسلامية والإيمان بنبوة الرسول ، من قريش الوثنيين ، لأنهم ألفوا أفكار أهل الكتاب من بني قريظة وبني النضير . لذلك سارع أهل يثرب من العرب إلى الدخول في الإسلام ، حتى لا يسبقهم هؤلاء اليهود .

ولما حلت الهزيمة بالخزرج يوم بعاث ، أقبل جماعة منهم للحج ، فيهم ستة من سادتهم . وكانوا يندشون حليفا لتوحيد كلمتهم مع الأوس ، أو للتغلب عليهم ؛ إذ كان كل منهما يريد أن تكون له الرياسة ، فلقبهم الرسول عليه الصلاة والسلام عند العقبة ، فسمعوا لدعوته وأجابوا .

ولما حل الموسم التالي ، وافى مكة اثنا عشر رجلا من أهل يثرب ، لقوا الرسول بالعقبة ، وبايعوه في تلك الليلة . وقد سميت تلك البيعة بيعة النساء ، وبيعة العقبة الأولى . ثم أرسل الرسول مع أهل يثرب مصعب بن عمير ،

١ - واسمه عمرو بن مالك بن الأوس الأنصاري الأوسي .

وكان قد عاد أخيراً من الحبشة ، يقرئهم القرآن ، ويعلمهم الإسلام ، ويؤمهم في المسجد . وفي السنة الثالثة عشرة من النبوة ، اجتمع مصعب برسول الله بالعقبة بعد الحج ، واتخذ دار أسعد بن زرارة مقاما له ، وكان يجمع المسلمين للصلاة وقراءة القرآن في تلك الدار أحيانا ، وأحيانا أخرى في دار بني ظفر في حى من أحياء يثرب ، حيث كانت تقيم هذه الأسرة مع أسرة بني عبد الأشهل .

كان سعد بن معاذ (ابن خالة أسعد بن زرارة) وأسيّد بن حُضَيْرُ شَيْخِي بِنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ فِي ذَلِكَ الْحِينِ ، وَقَدْ حَدَّثَ ذَاتَ يَوْمٍ أَنَّ كَانَ مَصْعَبُ جَالِسًا مَعَ أَسْعَدِ بْنِ زُرَّارَةَ فِي دَارِ بَنِي ظَفَرٍ ، وَكَانَا مَشْغُولَيْنِ بِنَشْرِ تَعَالِيمِ الْإِسْلَامِ بَيْنَ مَنْ دَخَلُوا فِيهِ حَدِيثًا ؛ إِذْ قَدِمَ عَلَيْهِمُ سَعْدُ بْنُ مِعَاذٍ لِيَعْرِفَ مَكَانَهُمْ ، وَقَالَ لِأَسِيدِ بْنِ حُضَيْرٍ : لَا أَبَالِكُ ! انْطَلِقْ إِلَى هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ اللَّذَيْنِ قَدِ أَتَيَا دَارَنَا لِلسَّفْهَاءِ ضَعْفَاءَنَا ، فَازْجِرْهُمَا وَأَنْتَهُمَا أَنْ يَأْتِيَا دَارَنَا ، فَإِنَّهُ لَوْ لَا أَنَّ أَسْعَدَ بْنَ زُرَّارَةَ مَنَى مَا قَدِ عَلِمْتَ ، لَكَفَيْتَكَ . عِنْدَ ذَلِكَ تَنَاوَلَ أَسِيدُ حَرْبَتَهُ ، وَانْطَلَقَ إِلَى أَسْعَدٍ وَمَصْعَبٍ ثُمَّ صَاحَ بِهِمَا : مَا جَاءَ بِكُمَا إِلَيْنَا ؟ أَسْفَهَانِ ضَعْفَاءَنَا ؟ اعْتَزَلْنَا إِنْ كَانَتْ لَكُمَا فِي نَفْسِكُمَا حَاجَةٌ ، فَأَجَابَ مَصْعَبُ فِي هَدْوٍ : أَوْ تَجْلِسُ فَتَسْمَعُ ؟ فَإِنْ رَضِيَتْ أَمْرًا قَبْلَتَهُ ، وَإِنْ كَرِهَتْهُ فَكَفَّ عَنْهُ . فَرَكَّزَ أَسِيدُ حَرْبَتَهُ فِي الْأَرْضِ ، وَجَلَسَ إِلَيْهِمَا يَسْمَعُ ، وَمَصْعَبُ يَشْرَحُ لَهُ قَوَاعِدَ الْإِسْلَامِ الْأَسَاسِيَّةِ ، وَيَقْرَأُ بَعْضَ آيَاتِ مِنَ الْقُرْآنِ ، وَصَاحَ بَعْدَ بَرَهَةٍ مَا خُوذَا : كَيْفَ تَصْنَعُونَ إِذَا أَرَدْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا فِي هَذَا الدِّينِ ؟ فَأَجَابَهُ مَصْعَبُ : تَغْتَسِلُ فَتَطَهَّرُ ثَوْبَكَ ، ثُمَّ تَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنْ مُحَمَّدًا رَسُولَ اللَّهِ . فَاسْتَجَابَ أَسِيدٌ لِسَاعَتِهِ ، وَرَدَّدَ شَهَادَةَ الْإِسْلَامِ ، ثُمَّ قَالَ : إِنْ وَرَأَيْتُ رَجُلًا - يُشِيرُ إِلَى سَعْدِ بْنِ مِعَاذٍ - إِنْ اتَّبَعْتُمَا لَمْ يَتَخَلَّفْ أَحَدٌ مِنْ قَوْمِهِ ، وَسَأَرْسَلُهُ إِلَيْكُمَا الْآنَ .

عند ذلك انصرف أسيد بن حضير ، ولم يلبث أن جاء سعد بن معاذ نائراً حنقاً على أسعد بن زرارة لما قدّمه لدعاة الإسلام من تأييد ، فرجا منه مصعب ألا يحكم على هذا الدين قبل أن ينظر فيه . عندئذ رضى أن يصغى إلى كلام مصعب .

وسرعان ما أثر فيه ، وحمل الإقناع إلى قلبه ، فدخل في الدين ، وأصبح من أعلام المسلمين . ثم رجع إلى قومه يلهب حماسة وقال لهم : يا بني عبد الأشهل ! كيف تعلمون أمرى فيكم ؟ قالوا : سيدنا ، وأفضلنا رأيا ، وأيمتنا نقيية . فقال سعد كلمته المأثورة : فإن كلام رجالكم ونسائكم على حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله . ومنذ ذلك اليوم أسلم كل آل عبد الأشهل . وسرعان ما أصبحت السيادة إلى سعد بن معاذ على الأوس والخزرج جميعا ، وأسلم كثير من أهل يثرب ، حتى لم يبق دار من دورها إلا وفيها مسلمون ومسلمات . فلا عجب إذا قيل إن سعد بن معاذ كان من أعظم الناس بركة في الإسلام .

من ذلك تتجلى مكانة سعد بن معاذ بين قومه ، وحسن أثره في نشر الدين بينهم ، كما تتجلى قوة إيمانه وصدق عقيدته في نبوة محمد صلى الله عليه وسلم . ولا عجب في ذلك ، فهو سيد بني عبد الأشهل ، بل سيد الأنصار غير منازع . وهو أفضلهم رأيا وأبعدهم أثرا ، في نصرته الإسلام ، وحماية الرسول ، ودفع أذى المعتدين عنه . ولا غرو فقد أصبح الرسول بعد إسلام سعد بن معاذ وسعد بن عبادة على حد قول الشاعر :

فإن يسلم السعدان يصبح محمد

بمكة لا يخشى خلاف مخالفا

أبلى سعد بن معاذ البلاء الحسن في الجهاد ، فشهد بدرا وأحدا والخندق . فان الرسول لما سار إلى بدر ، وأتاه خبر قدوم قريش ، استشار الناس ، فقال المقداد بن الأسود فأحسن ، وكذلك أبو بكر وعمر . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد الأنصار ، لأنهم كثيرون ، فقال سعد بن معاذ : والله لكأنك تريدنا يا رسول الله ، قال : أجل ! قال سعد : فقد آمننا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به الحق ، وأعطيناك موثيقنا على السمع والطاعة . فامض يا رسول الله ! أما أردت فنحن معك ، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا .

انا لصبر عند الحرب صدق عند اللقاء ، لعل الله يريك فينا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله . . . فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم لقوله وشجعه .
 قام سعد مع نفر من الأنصار على حراسة الرسول في غزوة بدر ، وكان يخاف أن يفاجئه المشركون ، فبالغ في تشديد الحراسة عليه ، وظهر الجسد على وجهه ، فقال له الرسول : والله لكأنك ياسعد تكره ما يصنع القوم ، قال : أجل يا رسول الله ! كانت أول وقعة أوقعها الله بأهل الشرك ، فكان الإثخان في القتل أحب إلى من استبقاء الرجال . وكأنما أحب سعد بن معاذ أن يشترى المسلمون أرواحهم ابتغاء الجهاد في سبيل الله والقضاء على المشركين .

كذلك اشترك سعد بن معاذ مع الرسول في غزوة الخندق — وتُعرف أيضا بغزوة الأحزاب . وبلغ من ثقة الرسول بسعد بن معاذ واعتماده عليه في أوقات الحرج والشدة : أن يبعث به — وهو يومئذ سيد الأوس — ، وبسعد بن عباد سيد الخزرج ، وعبد الله بن رواحة ؛ — إلى بني قريظة من اليهود ؛ ليوافقوه بأخبارهم بعد أن اتصل به أنهم نقضوا العهد الذي أخذوه على أنفسهم مع المسلمين . ثم أقبل سعد بن معاذ ومن معه إلى رسول الله ، فسلموا عليه وقالوا . عَضَلُ والقارة . (١)
 ولما اشتد خوف المسلمين من انضمام بني قريظة إلى قريش وحلفائها لم أراد الرسول أن يُبْرَم الصلح مع قائدي غطفان في قبول ثلث غلة المدينة على أن يكفوا عن الحصار ، قال سعد بن معاذ وسعد بن عباد : يا رسول الله ! أمرنا تحبه فنصنعه ؟ أم شيئا أمرك الله به لا بد لنا من العمل به ؟ أم شيئا تصنعه لنا ؟ قال : بل شيء أصنعه لكم ، والله ما أصنع ذلك إلا لأنني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم (٢) من كل جانب ، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمرنا . فقال له سعد بن معاذ : يا رسول الله ! قد كنا نحن وهؤلاء القوم على

(١) يعني كقدر عضل والقارة بأصحاب الرجيع الذين وفدوا على الرسول وطلبوا إليه أن يبعث إليه نفرا يعلمونهم الاسلام ، فبعث إليهم ستة من المسلمين ففقدوا وذلك قبيل غزوة الأحزاب في السنة الخامسة للهجرة . والرجيع ماء لبني حيان بين مكة وعسفان .

(٢) أي اتتدوا عليكم .

الشرك بالله وعبادة الأوثان ، لانعبد الله ! ولا نعرفه ، وهم لا يطمعون أن يأكلوا
 منها ثمرة إلا قرى (١) أو يئسوا ، فحين أكرمنا الله بالإسلام ، وهدانا له ، وأعزنا
 بك وبه ، نعطيهم أموالنا ؟ والله مالنا بهذا من حاجة ، والله لانعطيهم إلا السيف
 حتى يحكم الله بيننا وبينهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فأنت وذاك !
 فتناول سعد بن معاذ الصحيفة ، فحما ما فيها من كتاب ، ثم قال : ليجهدوا علينا .
 جاهد سعد بن معاذ جهاد الأبطال في غزوة الأحزاب التي تحالفت فيها قريش
 وغطفان وبنو قريظة من اليهود على المسلمين ، ورمى بسهم والمشركون يحاولون
 اختراق الخندق . وكانت أم سعد مع السيدة عائشة في حصن بني حارثة يوم الخندق ،
 وذلك قبل أن يضرب عليهن الحجاب ، فر سعد وعليه درع له مقلصة قد خرجت
 ذراعه وفي يده حربة وهو يقول :

لَبِثْتُ قَلِيلًا يَلْبَثُ الْهَيْجَا حَمَلٌ (٢)

لابأس بالمرت إذا حان الأجل

فقالت أم سعد : الْحَقُّ يَا بُنَيَّ ، قد والله أخبرت ، فقالت عائشة : يا أم
 سعد ! والله لو ددت أن درع سعد أسبغ مما هي ، ولم يلبث أن رماه عاصم بن
 عمرو بن قتادة بن حبان بن العرقة (٣) من بني عامر بن لؤي وقال له : خذها مني
 وأنا ابن العرقة ، قال سعد : عرّق الله وجهك في النار ! اللهم إن كنت أبقيت من
 حرب قريش شيئا ، فأبقني لها ، فإنه لا قوم أحب إليّ أن أجاهد من قوم آذوا
 رسولك وكذبوه وأخرجوه ، وإن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم ، فأجعلهُ
 لي شهادة ، ولا تُمِثْنِي حَتَّى تَقَرَّ عَيْنِي فِي بَنِي قَرِيظَةَ .

ولكن انتصار المسلمين في غزوة الخندق ، وما اكتنفها من طول أمد الحصار ،
 وإن كان قد أنسى سعد بن معاذ آلامه — قد أثار حنقه وموجدته على اليهود ،

(١) بكر القاف : الطعام الذي يقدم للضيف .

(٢) حمل اسم رجيل .

(٣) قيل إن معركة تسمى أم فاطمة ، سميت بذلك لطيب رائحتها .

الذين نقضوا العهد ، ومالتوا الأعداء على المسلمين ؛ وأبى الرسول إلا أن يؤدبهم ويحلبهم عن المدينة . فلما وصل الرسول إلى المدينة ظهرا ، أمر بلالا أن يؤذن في الناس : من كان سمياً مطيعاً ، فلا يُصَدِّقُ العصر إلا ببني قريظة . فتلاحق المسلمون ، وخرج علي بن أبي طالب بالراية ، وكانت على حالها لم تُطوَّ بعد . فلما رأى بنو قريظة جيش المسلمين ، خارت قواهم وأيقنوا بالهلاك / ففتبرءوا بما ارتكبه من الغدر ، وسألوا الرسول العفو ، فأبى ذلك عليهم ، وشددا الحصار خمسة وعشرين يوماً حتى نزلوا على حكمه ، وسألوا حلفاءهم الأوس أن يتوسطوا في إطلاقهم ، كما توسط الخزرج في إطلاق حلفائهم من بني قَيْسِ بْنِ شَقِيقٍ . فتواثبت الأوس وقالوا : يا رسول الله ! إنهم كانوا موالي لنا ، فقال لهم الرسول : ألا ترضون ياه عشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم ؟ قالوا : بلى ! فقال : فذاك إلى سعد بن معاذ . فلما جرى بسعد وهو جريح ، قالوا له : يا أبا عمرو ! إن رسول الله قد ولاك أمر مواليك لتحكم فيهم . فأخذ سعد عهد الله وميثاقه على الفريقين ، أن الحكم فيهم لمن حكم . فأجابوه ، وأجابته الرسول : أن نعم ! قال سعد : فإني أحكم بأن تقتل الرجال ، وتقسم الأموال ، وتسبى الذراري والنساء ليستعين بها المسلمون ، فقال له رسول الله : لقد حكمت فيهم بحكم الله .

أثر جرح سعد في نفس الرسول وفي نفس أمه وسائر المسلمين تأثيراً بالغاً ، فأمر الرسول بأن يضرب له فسطاط في المسجد ليكون قريباً منه ! وكان يعود به كل يوم مع أني بكر وعمر وسائر المسلمين . ولما حكم في بني قريظة ، انفجر جرحه ، وسأل دمه على رسول الله ، فقال أبو بكر : وانكسار ظهره ! فقال له الرسول : مه ! فقال عمر : إنا لله وإنا إليه راجعون . وفاضت روح سعد بن معاذ ، فمات شهيداً بعد غزوة الخندق بشهر ، وذلك في السنة الخامسة للهجرة . ولما انصرف الرسول من جنازة سعد بن معاذ ، انحدرت دموعه على لحيته وهو ممسك بها ، وندبته أمه فقالت :

وَيْلَ أُمِّ سَعْدِ سَعْدًا بِرَاعِدَةٍ وَتَجَدُّدًا

وَيَلَّ أُمَّ سَعْدٍ سَعْدًا صِرَاحَةً وَجِدًّا

فقال الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام : كل نادبة كاذبة إلا نادبة سعد .
كان سعد صاحب مقامات في الإسلام ، وكان طويلا ضخما . قيل اهتز عرش
الرحمن لموت سعد بن معاذ ، وقيل إنه نزل من الملائكة في جنازته سبعون ألفا
ماوطئوا الأرض قبل ، وقال الرسول : لو نجا أحد من ضغطة القبر ، لنجا منها
سعد بن معاذ .

وأثر عن سعد بن معاذ أنه قال : ثلاث أنا فيهن : رجل (يعني كما ينبغي) ،
وما سوى ذلك فأنا رجل من الناس : ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم
حديثا قط إلا علمت أنه حق من الله عز وجل ، ولا كنت في صلاة قط فشغلت
نفسى بشيء غيرها حتى أقضيها ، ولا كنت في جنازة قط فحدثت نفسى بغير ما تقول
حتى أنصرف عنها : قال سعيد بن المسيب : هذه الخصال ما كنت أحسبها إلا
في نبي .

١١- سعد بن أبي وقاص

أول من رمى بسهم في سبيل الله

يعد سعد بن أبي وقاص الصحابي الجليل من أبطال الجهاد في الإسلام وهو أحد الذين شهد لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة وآخر من توفي منهم ، وأول من أراق دما في سبيل الله ، وأول من رمى بسهم في سبيل الله ، وهو أحد الستة من رجال الشورى . وهو الذي قال عنه الرسول الكريم : هذا خالي فليرتني امرؤ خاله .

أما سعد فهو ابن مالك بن وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة ابن كعب بن لؤي بن فهر بن النضر بن كنانة القرشي . فهو ابن عم أمة الرسول بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة ، ويجمع نسبه هو وأمنه في عبد مناف . وهو بذلك خال الرسول نسبا ، لأن أهل الأم أخوال . وأمه حمئة بنت سفيان بن أمية ابن عبد شمس ، وقيل حمئة بنت عم أبي سفيان بن أمية . وبذلك يجمع سعد بين بيتين كريمين ، بيت هاشم ، وبيت عبد شمس اللذين كان لهما شأن عظيم في تاريخ الإسلام والمسلمين .

ولد سعد في هذا البيت العريق من بيوت مكة ، من أبوين شريفين ، ونشأ كما ينشأ أبناء سراة مكة وأشرافها وأصحاب الرأي فيها . فلما أشرقت شمس الرسالة المحمدية ، وخرج الرسول إلى أهل مكة مبشرا ونذيرا ، كان سعد قد بلغ السابعة عشرة من عمره ، فلما نداء الإسلام ، ودخل في دين الله . وقد روى عنه أنه قال : رأيت في المنام قبل أن أسلم ، كأنني في ظلمة لا أبصر شيئا ، إذ أضاء لي قمر فاتبعته ، فكأنني أنظر إلى من سبقني إلى ذلك القمر ، فأنظر إلى زيد بن حارثة ، وإلى علي بن أبي طالب ، وإلى أبي بكر . وكأنني أسألهم متى انتهيتم إلى ههنا ! قالوا : الساعة !

وبلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الإسلام مستخفيا ، فلقيته في
شعب « أجساد » ، وقد صلى العصر ، فأسلمت ، فما تقدمني أحد إلا هم . وبذلك
يكون سعد أول من أسلم من الفتيان .

تمسك سعد بدينه الجديد ، وأنزله من نفسه منزلة رفيعة . ومما يؤيد ذلك ،
أنه لما أسلم ، أتى أمه ، فقالت : يا سعد ! ما هذا الدين الذي أحدثت ؟ لتدعن دينك
هذا أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت فتعير بي . فقال : وكان من أبر الناس
بأمه : لا تفعل يا أمه ! فإني لا أدع ديني . قال : فكثت يوما وليلة لا تأكل ،
فأصبحت وقد جهدت ، فقلت : والله لو كانت لك ألف نفس فخرجت نفسا
نفسا ، ما تركت ديني هذا شيء . فلما رأت ذلك أكلت وشربت ، فنزلت في ذلك
الآية الكريمة : (وإن جاهدك على أن تشرك بما ليس لك به علم فلا تطعهما
وصاحبهما في الدنيا معروفا) .

وإذا كان تمسك سعد بدينه ، قد بلغ به هذا الحد الذي جعله يستعذب الردي
في سبيل عقيدته ، ويخوض المنايا ذوداً عن دينه ، ودفاعاً عن رأيه ، فلا تعجب
إذا رأيناه من أكثر الصحابة حمية وأوفرهم حماساً . فقد كان أصحاب الرسول
الكريم في أول عهدهم بالإسلام ، إذا صلوا ، ذهبوا إلى الشعب فاستخفوا
بصلاتهم من قومهم . فبينما سعد في نفر من أصحاب الرسول في شعب من شعاب
مكة ، إذ ظهر عليهم نفر من المشركين ، فساكروهم وعابوا عليهم دينهم حتى
قاتلوهم ، فاقتلوا ، فضرب سعد رجلاً من المشركين بلحى (١) جمل فشججه ،
فكان أول دم أريق في الإسلام .

وقد ظهرت بطولة سعد في أوضح صورها في يوم أحد ، حين امتحن المسلمون
في دينهم ، فصمد سعد ، وصبر وصابر . روى أنه قال : كنا لنغزو مع الرسول
صلى الله عليه وسلم يوم أحد ، وما لنا طعام إلا ورق الحبلة وهذا السممر .
وقد بلغ من شدة بأسه في القتال في ذلك اليوم أن ناداه الرسول فقال : فداك أبي

(١) الحجى : عظم الحنك .

وأى إرم أيها الغلام الحزور (١) فقال علي بن أبي طالب : ما جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم أباه وأمه لأحد إلا لسعد بن أبي وقاص .

كذلك شهد سعد بدرا والخندق ، كما شهد المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان أحد العشرة من سادات الصحابة الذين أخبر عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، أن الرسول صلى الله عليه وسلم توفي وهو عنهم راض . انتقل الرسول إلى جوار ربه ، وآت الخِلافة إلى أبي بكر ، ثم قبض أبو بكر وتمت البيعة لعمر بن الخطاب ، وكانت الجيوش الإسلامية قد أوغلت في بلاد الفرس والروم ، فقد وجه أبو بكر جيشا إلى أطراف العراق بقيادة خالد بن الوليد ومعهم المشنى بن حارثة ، فانتصر على الفرس ، واستولى على الحيرة والأنبار . ولكن العرب ما لبثوا أن تقهقروا أمام جيش الفرس الكشيف ، الذى أعده يزيد جرد الثالث ، آخر ملوك آل ساسان بقيادة رستم ، وارتدوا إلى أطراف الصحراء ، وكادت جهود المسلمين تذهب هباء .

فلما ولى عمر الخِلافة وزاد الاضطراب في بلاد الفرس . كتب المشنى بن حارثة إلى عمر بذلك ، وما كان من جلوس يزيد جرد على العرش مع حداثة سنة ، وحشه على انتهاز هذه الفرصة . وكان عمر قد اطمأن من ناحية الروم بعد هزيمتهم في أجنادين سنة ١٥ هـ ، فوجههم لغزو العراق . ودعا الناس لغزوها ، وهون عليهم فتحها . وأراد أن يقود الجيوش بنفسه ، ولكن بعض الصحابة أشاروا عليه بأن يبعث رجلا من كبار الصحابة ، وأن يكون من ورائه يمدّه بالأمداد . فلما سمع عمر ذلك ، صعد المنبر وقال : « أيها الناس ! إني كنت عازما على الخروج معكم ، وإن ذوى اللب والرأى منكم قد صرفوني نحو هذا الرأى وأشاروا بأن أقسم وأبعث رجلا من الصحابة يتولى أمر الحرب .

وقد ادخرت الأيام سعد بن أبي وقاص ، بطل «أحد» وحبيب الرسول الكريم ، لينقذ كرامة العرب وكرامة الإسلام ، فاختره عمر وأمره على الجيوش المحاربة .

(١) الغلام الحزور : إذا اشتد وقوي وخدم .

في العراق ثم أوصاه بأن يتبرق بالمسلمين في سيرهم ، وأن يريهم يوماً وليلة في كل جمعة ، وأن يذكي العيون بينه وبين العدو ، وأن يتخذ من قواده من يطمئن إلى نصحه .

وقد أعار سعد هذه النصيحة أذنا مصغية ، فجعل ينتقل في الأراضى التي بين الحجاز والكوفة ، يستمع الأخبار ، ورسل عمر توافيه ، وكتبه تأتبه ، يشير فيها بآرائه ويمده بالجنود . ثم التقى سعد برستم عند القادسية ، وكانت باب العراق ، في جيش يبلغ ثلاثين ألف مقاتل ، على حين كان جيش سعد يتراوح بين سبعة آلاف وثمانية آلاف . وكان الفرس يضحكون من نبل العرب ويشبهونها بالمغازل . وقد بعث سعد قبل بدء المعركة إلى رستم برسالة هذا نصها : إن الله بعث إلينا نبيه صلى الله عليه وسلم ، فسعدنا بإجابته واتباعه ، وأمرنا بجهاد من خالف ديننا . ونحن ندعوك إلى عبادة الله وحده ، والإيمان بنبيه صلى الله عليه وسلم ، فإن فعلت ، وإلا فالسيف بيننا وبينكم ، فقال رستم : والشمس والقمر لا يرتفع الضحى غدا حتى نقتلكم أجمعين ، فقال رسول سعد : لا حول ولا قوة إلا بالله ، وكأنه سخّر من رستم حين اغتر بقوته ، ولم يعبا بما خبأته الأقدار .

وخاض سعد المعركة ، فخرج منها مظفراً منتصراً ، فأوقع بالفرس ، وأسر إحدى بنات كسرى ، وقتل عدداً كبيراً من جنود رستم ، فاعتنق الإسلام دهاقين الفلاليج والنهرين وبابل ونهر الملك وكوثي وغيرهم .

ثم كتب سعد إلى عمر يبشره بالفتح ، فكتب إليه : قف مكانك ، ولا تتبعهم ، واقنع بهذا ، واتخذ للمسلمين دار هجرة ومدينة يسكنونها ، ولا تجعل بيني وبينهم بحراً . فاخطط سعد الكوفة ، وبعث سلمان الفارسي وحذيفة بن اليمان يرتادان له موضعاً تتوافر فيه هذه الشروط ، فوقع اختيارهما على مكان غربي الفرات ، على مقربة من الحيرة . وأقر الخليفة عمر هذا الاختيار ، فنزل سعد بجنده في الكوفة ، وذلك في المحرم سنة ١٧ هـ . وقد عسكر جند العرب في الخيام أولاً ، ثم بنوا بيوتاً من القصب . وسرعان ما أتت عليها النار ، فأمر عمر بأن تبنى الدور

بالبن ، فاخطب أبو الهياج بن مالك الأسدي شوارعها وأزقتها ، وأسس بها جامعا ،
وبنى في مقدمته ظلة مقامة على أساطين من الرخام . وجعل العرب المسجد في
وسط المدينة ، حيث تفرعت الطرق والدروب ، وبني في نهاية أحد هذه الطرق
دار سعد بن أبي وقاص ، واتخذ فيها بيت المال . وأصبحت الكوفة قسبة العراق ،
وأعظم مراكز العلم والسياسة والحرب في البلاد الإسلامية .

ثم توغل سعد في بلاد العراق ، واستولى على « المدائن » حاضرة بلاد الفرس ،
بعد أن حاصرها شهرين ، وغنم العرب منها غنائم كثيرة ، من بينها بساط كسرى ،
وفر يزجرد إلى حلوان ، وحمل معه أمواله ، وذلك كله بفضل عبقرية سعد في
وضع الخطط ، وتسيير دفة الحرب ، وما أوتيته من ضروب المهارة ، حتى أصبح
إتمام الفتح مهمة سهلة أمام العرب .

ولما أشرف عمر بن الخطاب على الموت ، جعل سعد بن أبي وقاص أحد
أصحاب الشورى الستة وقال : « إن ولي سعد الإمارة فذاك ، وإلا فأوصى الخليفة
بعدي أن يستعمله ، فإنني لم أعزله عن عجز ولا خيانه » . فلما تمت البيعة لعثمان بن
عفان ، عرف لسعد بن أبي وقاص فضله وإخلاصه في خدمة الإسلام والمسلمين ،
فولاه الكوفة ، وأطلق يده في شؤون العراق ، لأنه أبصر بشؤونها ، وأقدر على
تنظيم أمورها بعد إتمام فتحها .

ثم قتل عثمان ، واندلعت السنة الفتنة في العالم الإسلامي ، فوقف سعد بن
أبي وقاص من الطوائف المتحاربة المتناحرة موقف المحايد ، فلزم بيته ، لأن أطراف
النزاع من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان يخشى أن ينحاز إلى
فريق فيغضب الفريق الآخر ، فأراد أن يحتفظ بصدقاتهم أجمعين ، فزهد في
الخلافة ، وانقطع إلى الصوم والصلاة . فلما أراد ابنه عمر وابن أخيه هاشم بن
عبثة أن يدعوا إلى نفسه بالخلافة بعد مقتل عثمان ، أبي وامتنع ، فطمع فيه معاوية ،
وكتب إليه أن يعينه على الطلب بدم عثمان ، فأجاب سعد بهذه الأبيات :

مُعَاوِيَ دَاوُكُ الدَّاءِ العِيَاءُ وَايْسَ لِمَا تَجِيءُ بِهِ دَوَاءُ

أَيْدُعُونِي أَبُو حَسَنِ عَلِيٍّ فَلَمْ أَرُدْ عَلَيْهِ مَا يَشَاءُ
 وَقَلْتُ لَهُ أَعْطِنِي سَيْفًا قَصِيرًا تَمِيزُ بِهِ الْعِدَاوَةَ وَالْوَلَاءُ
 أَتَطْمَعُ فِي الَّذِي أَعْيَا عَلِيًّا عَلَى مَا قَدْ طَمِعْتَ بِهِ الْعَفَاءُ
 لِيَوْمٍ مِنْهُ خَيْرٌ مِنْكَ حَيًّا وَمَيِّتًا أَنْتَ لِلْمَرْءِ الْفِدَاءُ

من هذا يتبين كيف أن سعد بن أبي وقاص ، قد جمع بين عطفه أنبل الخلاق
 وأكرم الخصال : طيب المنبت ، ذكي الفؤاد ، ثابت الجنان ، مقداما ، صواما ،
 قواما . إذا اشترك في الحرب ، اشتد على العدو ، وناجح عن الدين ، وذب عن
 الرسول . وقد ظهرت هذه الخلال الحميدة في جميع الغزوات التي شهدتها سعد في
 أيام الرسول صلى الله عليه وسلم ، كما ظهرت في المعارك الدامية التي خاض غمارها
 جند المسلمين ، نعم ! إن سعد بن أبي وقاص قد تجمع فيه كثير من الخصال .
 قال أبو المنهال : سأل عمر بن الخطاب عمرو بن معد يكرب عن خبر سعد
 ابن أبي وقاص فقال : متواضع في خبائه ، عربي نمرته (١) ، أسد في تاموره ،
 يعدل في القضية ، ويقسم بالسوية ، ويبعد في السرية ، ويعطف علينا عطف الأم
 البرة ، وينقل إلينا حقنا نقل الذرة .

ولعمري إن هذه الخصال القادة الفاتحين الذين خلد التاريخ ذكرهم على مر السنين .
 فقد كان سعد القائد يعطف على جنوده عطف الأم على أبنائها ، حتى يكسب قلوبهم
 فيحبوه ، وإذا أحبوه أخلصوا له ، وإذا أخلصوا له ، كتب لهم النصر من عند الله .
 كان سعد لا يفرق بين صغير أو كبير ، ولا بين عجمي ولا عربي ، الجميع
 سواسية كأسنان المشط . من تفوق في القتال وفقى فيه ، نال الغنم الأكبر
 والشرف الأعظم .

كان سعد بن أبي وقاص من سراة العرب : قيل إنه ابنتى داره بالعقيق ، ووسع

(١) النمرة كساء فيه خطوط بيض وسود تلبسه الأعزاب .

فضاءها ، وجعل أعلاها شرفات . وقد ذكر المؤرخون أن عثمان بن عفان أقطع سعد بن أبي وقاص قرية هرمز .

روى سعد كثيرا من الأحاديث عن الرسول . وروى عنه أولاده : إبراهيم وعامر ومصعب وعمر وعائشة ، ومن الصحابة : عائشة أم المؤمنين ، وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر ، ومن كبار التابعين : سعيد بن المسيب وأبو عثمان النهدي وقيس بن أبي هازم وعلقمة والأحنف بن قيس .

وقد أسلم سعد وطلحة والزبير وعلي في سنة واحدة ، وإذا كان سهمهم واحدا . وكان سعد مستجاب الدعوة . قال الرسول صلى الله عليه وسلم : اللهم استجب لسعد إذا دعاك ، فكان لا يدعو إلا استجيب له . وقد روى أن أسعد أصحاب الرسول أربعة : عمر ، وعلي ، والزبير ، وسعد . وكان سعد من أحد الناس بصرا . رأى ذات يوم شيئا يزول ، فقال لمن معه . ترون شيئا قالوا : نرى شيئا كالطائر ، قال أرى راكبا على بعير ، ثم جاء بعد قليل عم سعد على بعير ، فقال سعد : اللهم إنا نعوذ بك من شر ما جاء به .

ثم شاء الله أن يختم هذه السيرة العطرة ، فحضرت سعد بن أبي وقاص الوفاة ، فدعا بخلق جبة له من صوف فقال : كفنوني فيها ، فإني كنت لقيت المشركين فيها يوم بدر وهي علي ، وإنما كنت أخبئها لهذا . وقيل إن تركته كانت مائتي ألف درهم وخمسين ألف درهم . وتوفي سعد سنة خمس وخمسين للهجرة (وقيل سنة أربع وخمسين ، وقيل سنة ستة وخمسين ، وقيل سنة ثمان وخمسين) وله من العمر اثنتان وسبعون سنة .

١٢ - خالد بن الوليد

« سيف الله »

نسوق إلى القارىء سيرة بطل من أشهر أبطال العرب والمسلمين ،
وقائد من أعظم قواد الفتوح الإسلامية ، ظل يجاهد في سبيل الله ونصرة دينه ،
حتى انتقل إلى جوار ربه ، ذلك هو سيف الله خالد بن الوليد .

كان خالد من أشرف قريش في الجاهلية والإسلام : فأبوه الوليد بن المغيرة
ابن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، وأمه لبابة الصغرى بنت الحارث الهلالية ، وأخت
ميمونة بنت الحارث زوج الرسول عليه الصلاة والسلام ، وأخت لبابة الكبرى
زوج العباس بن عبد المطلب عم الرسول . وبذلك ينحدر خالد من أشرف
البيوتات العربية ، فهو ينتسب إلى الرسول ، وإلى عمه العباس وإلى بني مخزوم ،
وبني هلال .

نشأ خالد مع أبناء الأشراف في مكة ، وكانت مركز حركة الحجاز التجارية
والأدبية ، يقد إليها العرب من كل حدب وصوب ، أيام الحج والمواسم ، فيتناقلون
الآداب الاجتماعية ، ويتناشدون الأشعار الحماسية ، ويتحدثون بكرم أصلهم
وشرف محتدم ، فتغرس كل هذه المظاهر في نفوس أطفالهم ، المواهب النادرة ،
والخصال الكريمة ، وتدفع بهم إلى جليل الأعمال وأسمى الغايات .

ونشأ خالد كما نشأ فتیان الطبقة الراقية في قريش ، فتعلم الفروسية ، وعرف
بين قومه بالنجدة والبأس ، وقدر له قومه مواهبه وكفايته ، فأسندوا إليه « القبة » ،
وكانوا يضربونها ويجمعون فيها ما يجزؤون به الجيش ، كما عهدوا إليه الأشراف
على أعنة الخيل وقيادة الفرسان ؛ فكان بذلك المقدم على خيول قريش
في الحروب .

فلما ظهر الإسلام ، وأصبح شيوخ قريش وشبابها من أشد الناس عداوة له ، كان خالد ممن ناصب هذا الدين العدا . ففي غزوة أحد ، انتهز خالد مخالفة المسلمين وصية الرسول إياهم بالثبات في أما كتبهم حتى يعلن هو انتهاء القتال ، وتحين خلو الجبل من الرماة ، وأتى المسلمين من خلفهم ، وأعمل الرماح في ظهورهم ، وقلب نصرهم هزيمة . ثم عاد الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، وتلقى المؤمنون في هذه الموقعة أنفع الدروس وأبعدها أثرا في حياتهم المستقبلية .

وهكذا ظل خالد على عداوته للإسلام ، حتى إن الرسول لما خرج في السنة السادسة للهجرة للعمرة ، وهي زيارة البيت الحرام في غير موسم الحج ، وقف القرشيون في طريقه يمنعون من دخول مكة . وقد قيل إن خالد كان على خيل المشركين في ذلك الوقت . وقد تم الاتفاق بين قريش والرسول على أن يرجع هذا العام من غير عمرة ، ثم يأتي في العام التالي ، فيدخل مع أصحابه مكة ، بعد أن تخرج منها قريش ، ويقيمون بها ثلاثة أيام ، ليس معهم من السلاح ، إلا السيوف بالقراب ، أي الأغهاد .

كان هذا الاتفاق في الواقع نصرا للمسلمين ، فقد أدركت قريش أن أمر الإسلام ظاهر لا محالة ، وكان المسلمون واثقين من وعد الله إياهم بفتح مكة ، وأدرك خالد أن انتصار المسلمين قد تكرر ، وأن أمره قد عظم في جميع البلاد العربية ، فقتلت سادات قريش ، ومات ذوو الحلم فيها ، كما أدرك أن أمر الإسلام سينتهي بالظفر ، وأن سقوط مكة قريب .

لذلك أسرع خالد ، فأدرك الفرصة قبل فواتها ، وعقد النية على الدخول في الإسلام ، ووقف في قريش يقول : « لقد استبان لكل ذي عقل أن محمدا ليس بساحر ولا شاعر ، وأن كلامه من كلام رب العالمين ؛ فحق على كل ذي لب أن يتبعه . » وفزع عكرمة بن أبي جهل لما سمع ، فرد قائلا : لقد صبوت يا خالد ! فقال خالد : لم أصبؤ ، ولكني أسلمت ، فقال عكرمة : والله إن كان أحق قريش ألا يتكلم بهذا الكلام لأنيت . فقال خالد : ولم ؟ فقال عكرمة : لأن محمدا وضع

شرف أريك حين جرح ، وقتل عمك وابن عمك بيدر ! فوالله ما كنت لأسلم
ولأتكلم بكلامك يا خالد . أما رأيت قریشا يريدون قتاله ؟ فقال خالد : هذا
أمر الجاهلية وحميتها ، لكنى والله أسلمت حين تبين لى الحق ؛ وبعث خالد للنبي
بأفراس ، كما بعث إليه بإقراره بالإسلام .

ولقد لقي خالد عمرو بن العاص ، وهو مقبل من مكة يريد المدينة المنورة ،
فقال عمرو : أين يا أبا سليمان ؟ قال : والله لقد استقام المنسليم ، وإن الرجل
لنبي ، أذهب والله أسلم ، فحتى متى ؟ فقال عمرو : والله ما جئت إلا لأسلم .
فقد ما على الرسول صلى الله عليه وسلم ، فتقدم خالد ، فأسلم وبايع ، ثم دنا
عمر فأسلم وبايع .

كان خالد عالما من أعلام الإسلام ، كما كان عالما من أعلام الشرك من قبل ،
وما زال بعد إسلامه موضع ثقة الرسول ، حتى إنه كان يوليه أعينة الخيل ،
فيكون في مقدمتها . بعث الرسول إلى الغساسنة ، وكانوا من العرب الضاريين على
حدود الشام ، رسولا يدعوهم إلى الإسلام ، فقتلوه ، فأنفذ إليهم في السنة الثامنة
للهجرة ، جيشا يتألف من ثلاثة آلاف مقاتل ، بقيادة مولاه زيد بن حارثة ، فلقيته
جموع هرقل إمبراطور الروم عند مؤتة ، وهى قرية من قرى البلقاء على حدود
الشام . فأبى زيد بلاء حسنا فى الجهاد ، حتى استشهد فى سبيل الله ، فتولى إمرة
المسلمين عبد الله بن أبى رباحة ، فاستشهد ، فخلفه جعفر بن أبى طالب ، فلحق
به ، ثم أخذ الراية خالد بن الوليد ، فأبى فى الجهاد ، حتى قال : لقد اندق يومئذ
فى يدي سبعة أسياف ، فما ثبت فيها إلا صفيحة يمانية .

وقد نزل الوحي على النبي صلى الله عليه وسلم ، بنجر من استشهد من القواد
فى هذه الغزاة ، فصعد المنبر ، وخطب المسلمين خطبة أخبرهم فيها بقتل زيد ومن
خلفه فى قيادة الجيش ، إلى أن قال : ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله ، خالد
ابن الوليد ، ففتح الله عليه : فسمى خالد «سيف الله» .

ولما نقض أهل مكة الهدنة التى عقدت بينهم وبين الرسول فى السنة السادسة

للهجرة ، وأغاروا على إحدى القبائل المحالفة للمسلمين ، استجارت هذه القبيلة بالرسول ، فساروا إلى مكة في السنة الثامنة للهجرة ، في عشرة آلاف من المسلمين ، وكان خالد على جناح المسلمين الأيمن ، وقد أمره الرسول أن يدخل مكة من أسفلها ، فأبى في القتال بلاء حسنا ، حتى إنه لم يقتل من جنده إلا اثنان .

وما زال الرسول عليه الصلاة والسلام يستعين بخالد ، فأرسله إلى بني جذيمة من بني عامر بن لؤي . وكان خالد على مقدمة جيش المسلمين في غزوة حنين (سنة ٥٨) ، فجرح فيها ، فعاده الرسول ، فنفت في جرحه ، فبرأ . كما أرسله عليه الصلاة والسلام إلى أكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل ، فأسره وساقه إلى الرسول ، فصالحه على الجزية . ثم أرسله في السنة العاشرة من الهجرة إلى بني الحارث بن كعب ، فأسلموا على يديه .

هكذا حسن إسلام خالد ، فجاهد في سبيل الله ، واشتد تعلقه برسول الله ، حتى لقد قيل إن الرسول حلق شعره في إحدى عُمراته . فاستبق الناس إلى شعره ، فسبق خالد إلى الناصية فأخذها ، واتخذ قلنسوة جعل هذه الناصية في مقدمتها ، وأخذ يتبرك بها في حروبه . فما خاض معركة إلا ارتدى القلنسوة ، التماسا لبركة الرسول ، وتفاؤلا بالنصر والظفر . روى ابن حجر أن خالدًا فقد هذه القلنسوة في يوم اليرموك ، فقال : اطلبوها ! فلم يجدوها ، وإذا بها خلفه . فلما سئل عن سبب اهتمامه بهذه القلنسوة ، قال : اعتمر النبي صلى الله عليه وسلم ، فابتدر الناس شعره ، فسبقتهم إلى ناصيته فجعلتها في هذه القلنسوة ؛ فلم أشهد قتالا وهي معي ، إلا تبين لي النصر .

ولما انتقل الرسول إلى جوار ربه ، وبويع أبو بكر بالخلافة ، وقامت حروب الردة التي كادت تمزق وحدة العرب وتفرق كلمتهم وتزعزع دينهم ، كان خالد في مقدمة الذين استعان بهم أبو بكر من أشراف العرب وساداتها وذوى الرأي فيها ؛ فسيره لقتال مسيلمة الكذاب في اليمامة . فدعاه خالد للمبارزة عسى

أن يقضى على رأس تلك الفتنة ويخمد جذوتها. ولكن مسيلمة لم يستطع صبورا أمامه، فولى هاربا، وحمل المسلمون على أصحابه فهزموهم. كذلك سير أبو بكر خالدًا لقتال طليحة بن خويلد، الذي ادعى النبوة فهزمه. ولما فرغ من قتاله، سار إلى مالك بن نويرة، وأحل به الهزيمة وقتله.

وقد اختلف الناس في قتل خالد ما لكا بن نويرة، وأنكر عليه عمر بن الخطاب هذا العمل، حتى كان ذلك من أهم الأسباب التي تذرعه بها لعزل خالد عن قيادة جيش المسلمين في الشام.

ذلك أن أبا بكر لم يكذب ينتهي من حروب الردة التي شنها على العرب المارقين، حتى أرسل الجيوش لفتح البلاد ونشر الإسلام، فوجه إلى أطراف العراق جيشا بقيادة خالد بن الوليد، ومعه المشنبي بن حارثة الشيباني، فأخضع القبائل العربية التي كانت تقيم جنوبي نهر الفرات. وانتصر خالد على الفرس، واستولى على الحيرة والأنبار. وما زال لواء النصر معقودا له، حتى وافاه كتاب أبي بكر: « أن سرحتي تأتي جموع المسلمين باليرموك، فإنهم قد شجوا وأشجوا، فليهنأك أبا سليمان، النية والحظوة، فاتمهم يتهم الله لك ولا يدخلنك عجب، فتخسر وتخذل، وإياك أن تدل بعمل، فإن الله له المن، وهو ولي الجزاء ».

ولما كانت انتصارات المسلمين تتوالى في العراق، وصلت أنباء الشام بأن أبا عبيدة بن الجراح لم يقو على مدافعة الروم، فاستنجد أبو بكر بخالد، وسيره لمساعدة جيوش المسلمين في هذه البلاد. فولى خالد المشنبي بن حارثة جند المسلمين في العراق وسار هو على رأس جيش كبير من أهل الشجاعة والنجدة، حتى وصل إلى بصرى. وكان أبو عبيدة قد أنفذ شريح بن حسنة إليها، فلم يقو على هزيمة الروم، ولم ينج المسلمين إلا حضور خالد، الذي استولى على المدينة بمعونة واليها « رومانوس » الذي اعتنق الإسلام، وسلم المدينة للمسلمين، بعد أن دهم على الدخول إليها من سرداب تحت سورها.

على أن خالدًا سار إلى الشام كارها، واعتقد أن عمر بن الخطاب سعى لدى

أبي بكر لإقصائه عن العراق حتى لا يتم فتحها على يديه . فقد قال عندما جاءه كتاب أبي بكر : « هذا عمل الأعمش بن أم شملة ، يعني عمر بن الخطاب ، حسدني أن يكون فتح العراق على يدي » .

واشترك خالد في معركة اليرموك ، التي اشتركت فيها جيوش المسلمين الأربعة ، وكانت تتألف من أربعين ألف مقاتل ، لمحاربة جيوش الروم التي كانت تربي على مائة وأربعين ألف مقاتل ، وأدرك خالد المسلمين وهم يقاتلون الروم متساندين ، فرتب الجيش ، وجعل أبا عبيدة في القلب ، وعمرو بن العاص على الميمنة ، ويزيد ابن أبي سفيان على الميسرة . ثم دارت رحى الحرب بين الفريقين ، ولم يخيب خالد رجاء أبي بكر الذي قال فيه : « والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد » .

وبينما كان العرب يقاتلون الروم في اليرموك ، أتاهم نعي أبي بكر وتولية عمر الخلافة ، وكان لا يزال يذكر لخالد موقفه من مالك بن نويرة ، فعزله عن القيادة وولى مكانه أبا عبيدة . غير أن أبا عبيدة ، استجيا أن يقرأ خالد الكتاب حتى فُتحت دمشق ، وجرى الصلح على يديه ، وكتب الكتاب باسمه .

ولكن خالد لم يكن بالرجل الذي يتمرد على خليفة رسول الله ، أو يعترض على أمره ، حرصاً منه على وحدّة المسلمين حتى ينصرفوا إلى جهاد العدو ، ابتغاء مرضاة الله ونصرة الدين . فلما قرأ كتاب عمر قال : « ما أنا بالذي أعصى أمير المؤمنين » ، وحارب تحت إمرة ابن عبيدة جندياً من جنود الإسلام .

على أن بعض المسلمين لم يراى عمر في عزل خالد عن القيادة ، فقد قال أبو عمرو بن حفص بن المغيرة لعمر : « عزلت عاملاً استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووضعت لواءً رفعه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال عمر : « إنك قريب القرابة ، حديث السن ، مغضباً لابن عمك » .

وقد ذكر الزبير عن أسباب عزل خالد : كان خالد إذا صار إليه المال قسمه في أهل الغنائم ، ولم يرفع إلى أبي بكر حساباً . وكان فيه تقدم على أبي بكر ، يفعل

أشياء لا يراها أبو بكر . أقدم على قتل مالك بن نويرة ، وتزوج امرأته ، فكره ذلك أبو بكر ، ولم ير أن يعزله . وكان عمر ينكر هذا وشبهه على خالد . . . قال عمر لأبي بكر : اكتب إلى خالد لا يعطى شيئا إلا بأمرك ، فكتب إليه بذلك ، فأجابه خالد : إما أن تدعني وعملي وإلا فشاؤك بعملك ؛ فأشار عليه عمر بعزله ، فقال أبو بكر : فمن يجزي عني جزاء خالد ؟ قال عمر : أنا . فتجهز عمر حتى أتى الظهر في الدار ، فمشى أتتحاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى أبي بكر ، فقالوا : ما شأن عمر يخرج وأنت محتاج إليه ؟ وما بالك عزلت خالدا وقد كفاك ؟ قال : فما أصنع ؟ قالوا : تعزم على عمر فيقيم ، وتكتب إلى خالد فيقيم على عمله ، ففعل . فلما قبل عمر ، كتب إلى خالد ألا تعطى شاة ولا بعيرا إلا بأمرى ، فكتب إليه خالد بمثل ما كتب إلى أبي بكر ، فقال عمر : ما صدقت والله إن كنت أشرت على أبي بكر بأمر ، فلم أنفذه ، فعزله .

وقد قيل إن عمر عزل خالد بن الوليد ، لأنه كان يخشى أن يفتتن الناس به وأنه عزم على أن يوليه بعد أن يرجع من الحج ، لولا أن المنية وافته سنة إحدى وعشرين للهجرة ، وقيل إنه توفي بجمص ، وقيل بالمدينة المنورة .

وهكذا أسلم خالد وحسن إسلامه ، وأخلص للرسول صلى الله عليه وسلم ، وقضى جل حياته في الجهاد ، حتى لقد شغله الجهاد عن تعلم كثير من القرآن .

ولما حضرت خالدا الوفاة قال : لقد طلبت القتل مظانة فلم يقدر لي إلا أن أموت على فراشي ، وما من عمل أرجى عندي بعد أن لا إله إلا الله أحب إلى من ليلة شديدة الجليد في سرية من المهاجرين . وأثر عن خالد أيضا أنه قال : ماليلة يهدى إلى فيها عروس أنا لها محب ، أو أبشر فيها بغيلام ، أحب إلى من ليلة شديدة الجليد . ثم قال : إذا أنامت ، فانظروا في سلاحى وفرسى ، فاجعلوه عُدّة في سبيل الله .

وخرج أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه يشيع جنازة سيف الله ، فإذا أمه تندبه وتقول :

أنت خير من ألف ألف من القَوِّ

م إذا ما كُفِّت وجوه الرجال

فقال عمر: صدقت والله! إنه كان كذلك، ما على نساء آل الوليد أن يسفحن دموعهن على خالد ما لم يكن نقعا. روى ابن حجر أن خالد بن الوليد لما حضرته الوفاة، أوصى إلى عمر بأن يتولى وصيته، وسمع عمر راجزا يذكر خالدا، فقال: رحم الله خالدا، فقال له طلحة بن عبيد الله:

لا أعرفتك بعد اليوم تَمُدُّ بِي

وفي حياتي ما زوَّدتني زادي

فقال عمر: إني ما عتبت على خالد إلا في تقدمه وما كان يصنع في المال.

١٣ عمرو بن العاص

« أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص »

من أشهر أبطال العرب والمسلمين وأعظم قواد الفتوح الإسلامية ، عمرو بن العاص .

كان عمرو بن العاص من بني سهم ، أصحاب الحكومة في قريش ، وقد نشأ مع أبناء الأشراف في مكة ، التي كانت - كما نعلم - مركز حركة الحجاز التجارية والأدبية ، يفتد إليها العرب من كل صوب وحدث ، فيتناقلون الآداب الاجتماعية بعضهم عن بعض ، ويتناشدون الأشعار الحماسية ، فتغرس هذه المظاهر في نفوس أطفالهم المواهب النادرة ، والقرائح الوقادة ، والخصال الكريمة . وعلى الرغم من أنه لم يكن لقريش قدم ثابتة في القراءة والكتابة ، نشأ عمرو كاتباً قارئاً . وقد ولع بالتجارة منذ نعومة أظفاره ، مما زاد في ثقافته واتساع أفق عقله .

وكان عمرو من هؤلاء العرب الذين رأوا الوثنية في قوتها وفي ضعفها . وألغوا الإسلام يظهر ويقوى ويتغلب على غيره من العقائد شيئاً فشيئاً . على أن عمراً قاوم هذا الدين الجديد ، وكان من أشد القرشيين عداوة للإسلام ، فكان أحد الرسل الذين أوفدتهم قريش إلى النجاشي ليردّ من هاجر إلى بلاده من القرشيين إلى مكة ، ولكنه لم يلبث أن عقد النية على الدخول في الإسلام ، وخرج إلى المدينة ، فلقبه خالد بن الوليد وهو مقبل من مكة ، فقدموا على الرسول ، فتقدم خالد فأسلم وباع ، ثم دنا عمرو فقال : يا رسول الله ! إني أبايعك على أن تغفر لي ما تقدم من ديني ، ولا أذكر ما تأخر ، فقال الرسول : يا عمرو ! يا بايع ؛ فإن الإسلام يجب ما قبله وإن الهجرة تجب ما قبلها .

أسلم عمرو ، وحسُن إسلامه ، وأخلص لدينه الجديد ، وكان إيمانه إيمانا قويا .
 واغتنب المسلمون باعتناق عمرو الإسلام ، حتى قال الرسول صلى الله عليه وسلم :
 « أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص » ؛ كما اغتنب الرسول بشجاعته ودهائه ،
 وأصبح موضع ثقة الرسول ، فولاه قيادة سرّية ذات السلاسل ، التي كان بين
 رجالها خيرة المسلمين ؛ كأبي بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وأبي عبيدة بن
 الجراح . كذلك أرسله الرسول الكريم في سرية لهدم « سُواع » ، وهو صنم
 لهذيل ، وولاه الصدقة بعُمّان التي أسلم أهلها بعد أن كانوا يدينون بالمجوسية ،
 فوطد دعائم الإسلام فيها ، وبقي والياً على صدقتها ، حتى انتقل الرسول إلى
 جوار ربه .

ولما بويع أبو بكر الصديق بالخلافة ، وقامت حروب الردة الطاحنة التي كادت
 تمزق وحدّة المسلمين ، كان عمرو بن العاص فيمن استعان بهم أبو بكر من
 أشرف العرب ، كما قام بدور هام في إخضاع قبيلة قُضاعة ، وأرغمهم على أداء
 الزكاة والرجوع إلى الإسلام . ولم يكد أبو بكر ينهيه من حروب الردة التي شنتها
 على العرب ، حتى أرسل الجيوش لفتح بلاد العراق ، وأرسل أربعة جيوش
 لغزو الشام وفلسطين ؛ وعقد لعمر بن العاص اللواء على الجيش الذي سيّره
 لفتح فلسطين ، فتوالت انتصاراته على الروم في جميع المواقع التي خاض غمارها .
 وكان لما أظهره عمرو من ضروب البسالة في يوم اليرموك وفي أجنادين وبيت
 المقدس وغيرهما أثر كبير فيما أحرزه المسلمون من نصر مؤزر على جيوش الروم .
 وقد أظهرت هذه الانتصارات الباهرة ، التي أحرزها عمرو في حروب الشام
 وفلسطين للخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، مقدار شجاعة عمرو وحمزه ،
 فأذن له الخليفة بفتح مصر ، برغم ما كان يحيط بهذا المشروع الخطير من صعاب .
 وكان عمرو من الأفراد القلائل الذين استطاعوا فهم نفسية الشعوب التي غلبها
 الروم على أمرها . ولا عجب فقد رأى في فتح مصر وسيلة لتثبيت قدمه في بلاد
 الشام وفلسطين . فلم يكن بدّ إذن من القضاء على الروم في مصر والمغرب كما

ساعد على القضاء عليهم في حروب الشام وفلسطين. هذا إلى أن ثروة مصر قد حفزت العرب على فتحها ، ووقف عمرو على ذلك في الجاهلية عند زيارته لها ، فرأى أنه إذا فتح هذه البلاد ، استطاع أن يستغلها لمصلحة العرب والإسلام . وكان القبط يكرهون الروم ، لإثقالهم بالضرائب ، واختلافهم وإياهم في العقائد الدينية ، وحرمانهم من الحقوق المدنية . وسرعان ما اخترقت جيوش عمرو - التي لم تتجاوز أربعة آلاف - الصحراء ، وسار إلى حصن بابليون وحاصره وقت فيضان النيل ، وطلب المدد من الخليفة عمر ، فأمدّه بأربعة آلاف ، على رأسهم أربعة من مشاهير الصحابة رضوان الله عليهم ، وهم : الزبير بن العوام ، والمقداد بن الأسود ، وعُباد بن الصامت ، ومسلمة بن مخلد .

ثم فتح عمرو حصن بابليون ، وسار إلى الإسكندرية ، وكانت حاضرة الديار المصرية في ذلك الحين ، وأغنى مدن العالم وأوفرها ثروة وأوسعها تجارة ، فأخرج الروم منها وأزال سلطانهم من هذه البلاد . وقد رأى عمرو ببعد نظره أن يؤمن حدود مصر الغربية بفتح برقة ، إذ كان يُعدها امتداداً طبيعياً لمصر ، كما مد نفوذ العرب إلى بلاد النوبة لتأمين حدود مصر من ناحية الجنوب ، وأصبح بحيث يستطيع التفرغ لإصلاح البلاد .

ويرجع انتصار المسلمين على الروم إلى شجاعة عمرو وإقدامه . ولا عجب فقد ضرب لجنده المثل الأعلى في التضحية ، وكان سباقاً إلى حرب عدو يفوقه عدداً وعدة . وكان البطل العربي المؤمن ، يقود جنده ، ويشير في نفوسهم الشجاعة والتضحية .

لم تعد مدينة الإسكندرية صالحة لأن تكون حاضرة مصر كما كانت منذ أيام الإسكندر ، لأن العرب لم يكونوا أمة بحرية ، فلم يكن بد إذن من اتخاذ الحاضرة الجديدة في نقطة برية سهلة التوابع مع بلاد العرب . لذلك وقع اختياره على موضع الفسطاط ، لقربها من النيل والجبل والمزارع . وإلى الشمال من حصن بابليون أسس عمرو أول مسجد بني في مصر الإسلامية ، وهو المسجد العتيق

المعروف الآن بجامع عمرو . ولم يلبث أن أصبح جامع عمرو مركز الحركة السياسية والاجتماعية في مصر ، وكان أشبه بنادٍ يجتمع فيه المسلمون ويتخذهم علماء التفسير والحديث مقرأ لهم .

كذلك أعاد عمرو حفر الخليج الذي كان يصل النيل بالبحر الأحمر ، ومُعرف فيما بعد باسم خليج أمير المؤمنين ، نسبة إلى الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه . ثم عرف باسم خليج القاهرة بعد أن تأسست مدينة القاهرة على يد جوهر الصقلي قائد المعز لدين الله الفاطمي في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) .

وقد وجه عمرو بن العاص همته إلى تنظيم الجيش ، فأنشأ له ديوانا يُشرف على شؤون الجند الذين لم يتجاوز عددهم بعد فتح حصن بابليون ١٦٠٠٠ . وكانت ولاية عمرو عامة ؛ إذ كان يشرف على القضاء والصلاة والخراج والجند والشرطة . كما نظم القضاء على وفق أحكام الشريعة الإسلامية الغراء ، وقسم البلاد المصرية إلى كور ، وعين على كل منها قاضيا قبطيا يفصل في النزاع الديني والمدني لغير المسلمين وفق شرائعهم . أما إذا حدث نزاع بين عربي وقبطي ، تقدم المتقاضون إلى مجلس مؤلف من قضاة من الطرفين المتنازعين . ولا عجب في ذلك فإن من أهم مبادئ الدين الإسلامي : التسامح الديني ، والمساواة بين المسلمين وغيرهم من أهل الذمة .

وكانت معاملة عمرو للقبط تدل على كثير من التسامح . ولا غرو فقد أمدهم بالمساعدة ، ويسرروا له مهمة الفتح ، فأجبتهم وأقام العدل بينهم ، ونظر في عمران بلادهم ، فتألف بحسن سياسته قلوب المصريين عامة والقبط خاصة ، حتى صاروا له أعوانا وللمسلمين إخوانا ، وتمتعوا بالهدوء والطمأنينة ، وتخلصوا من عسف الروم وظلمهم ، حتى إن البطريق بنيا مين عبر عن ارتياحه بقوله : « لقد وجدت في مدينة الإسكندرية الطمأنينة التي كنت أشدها بعد الاضطهادات والمظالم التي قام بتمثيلها الظلمة المارقون .

ولم يرهق عمرو المصريين بالضرائب ، وسار معهم وفق شروط الصلح ، فلم

تتجاوز جزية الرءوس دينارين (١) في السنة، كما راعى في جباية الأموال حالة النيل من حيث النقص والزيادة، مما اضطره إلى تأجيل دفع الخراج أحيانا. وترك عمرو لأهل القرى الحرية في تحديد خراجهم. كما أباح لهم أن يحجزوا بعض المال لتعمير كنائسهم. وكانت الأموال التي تجبي من كل قرية تجمع على أيدي أهلها. لذلك قالوا: الجزية جزيتان: جزية على رءوس الرجال، وجزية جملة تكون على أهل القرية يؤخذ بها أهل القرية. وكانت هناك ضرائب عينية تفرس على ما تغله الأرض.

لم يكاد عثمان بن عفان يلي الخلافة حتى عزل عمرو بن العاص عن ولاية مصر وولاه عبد الله بن سعد بن أبي سرح. وعلى الرغم من عزل عمرو عن ولايته، كان عثمان يستشيره في أمور الدولة، كما استشاره في الفتنة التي انتهت بقتله، فأسدى عمرو النصيح له برغم حقه عليه. على أن بعض المؤرخين يقول إن عمرو بن العاص كان يطعن على عثمان ويعمل على خلعه، وأنه فارق أخته لأمه حين عزله عن ولاية مصر.

ومن عجب أن ينضم عمرو إلى معاوية بن أبي سفيان حين طلب بدم عثمان. وقد قيل إنه كان يطمع في ولاية مصر، وإن ذلك لن يتحقق له إلا بانضمامه إلى معاوية. وقد أظهر عمرو ضروب الحيل حين كادت الهزيمة تحل بجيش معاوية في موقعة صفين، فنادى عمرو برفع المصاحف على أسنة الرماح، وانطفأت شعلة الحماسة في جند علي، ورغب بعضهم في موادعه وقالوا: هذا كتاب الله بيننا وبين معاوية. ورغب آخرون في مواصلة الحرب وأيقنوا أن ذلك خدعة، واضطر علي إلى وقف القتال ونجحت حيلة عمرو.

ويدل موقف عمرو في مسألة التحكيم على حنكته السياسية؛ فقد غرر بأبي موسى الأشعري ودفعه إلى الإقرار بعزل علي، وجعل الأمر شورى للمسلمين، كما جعله يعلن أحقية معاوية في الأخذ بدم عثمان، وبين له أن مصلحة المسلمين

(١) الدينار يساوي نصف جنيه مصري تقريبا.

تقتضى عزل عليّ وعزل معاوية ، مع أن معاوية لم يبايعه أحد من المسلمين . وأخيراً اتفق كل من عمرو بن العاص وأبي موسى الأشعري على أن يعزل كل منهما صاحبه ؛ فعزل أبو موسى علياً ، وثبت عمرو صاحبه معاوية ، وعاد أهل الشام منتصرين ، وعاد جند عليّ منهزمين ، لا بالسيف ولكن بالخدعة . ثم عمل عمرو على استرداد ولاية مصر ، وانضم إليه العثمانية أنصار عثمان بن عفان بمصر ، وهزم جيش عليّ ، وأسر محمد بن أبي بكر وكان قد ولي مصر من قبل عليّ ، وأقر معاوية عمرو بن العاص على ولاية مصر ، وأعطاه له طعمة ، على أن يدفع أرزاق الجند والموظفين وما تتطلبه البلاد من ضروب الإصلاح ، ويبقى لنفسه ما بقي من الأموال . يعد عمرو بن العاص من أعلام المسلمين ، فقد تجلت سجاياه ومواهبه في فتوحه الواسعة ، وفي إدارته التي اتسمت بالحزم والعمل على إصلاح البلاد التي وليها وترقية شئونها . اشتهر عمرو بن العاص بالفصاحة ، حتى كان عمر بن الخطاب يقول إذا رأى رجلاً يتلجلج في كلامه : « خالق هذا وخالق عمرو بن العاص واحد » . وتبين لنا بلاغة عمرو من ذلك الكتاب الذي أرسله إلى الخليفة عمر ، يصف فيه مصر ، ويشرح له السياسة التي عزم على انتهاجها فيها . ومن هذا الكتاب :

« اعلم يا أمير المؤمنين أن مصر تربة غبراء ، وشجرة خضراء ، طولها شهر وعرضها عشر ، يكتفها جبل أغبر ، ورمل أعفر ، يَخْطُ وَسَطُهَا نيل مبارك الغدوات ميمون الروحات ، تجري فيه الزيادة والنقصان كجري الشمس والقمر ، له أوان يدر حلابه ، ويكثر فيه ذبابه ، تُمِدُّهُ عيون الأرض وينابيعها . . . »

وإن هذه الخطبة الرائعة التي خطبها عمرو في جامعته ، لتمثله لنا رجلاً ناصحاً لرعيته حريصاً على الاستمساك بسياسة عمر بن الخطاب . وهي خطبة طويلة يبحث فيها المسلمون على أن يستمتعوا بلذات الحياة من غير إسراف ، وعلى الجهاد في سبيل الله ونصرة الإسلام ، وعلى الاعتناء بالخيال كأنه كان يضمح حرباً أخرى يحاول فيها فتح برقة التي كان يعتبرها امتداداً طبيعياً لمصر (١) . وهاك إحدى هذه الخطب عن

(١) حسن إبراهيم حسن : تاريخ عمرو بن العاص ص ١٣ - ١٤

ابن عبد الحكم، « عن سعيد بن مسرة المعافري قال :

رحمت أنا ووالدي إلى صلاة الجمعة وذلك آخر الشتاء بعد خميس النصارى
 بأيام يسيرة ، فأطلقنا الركوع ، إذ أقبل الرجال بأيديهم السياط يزجرون الناس ،
 فدعرت فقلت . يا أبت! من هؤلاء ؟ قال : يا بني! هؤلاء الشرط . فأقام المؤذنون
 الصلاة ، فقام عمرو بن العاص على المنبر ، فرأيت رجلا ربعة قصير القامة وافر
 الهامة ، أدعج أبلج عليه ثياب موشاة كأن به العقبان تألمق ، عليه حلة وعمامة
 وجبة ، فحمد الله وأثنى عليه حمدا موجزا وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم .
 ووعظ الناس وأمرهم ونهاهم ؛ فسمعتة يحض على الزكاة وصلة الأرحام ويأمر
 بالاقتصاد وينهى عن الفضول وكثرة العيال وإخفاض الحال فقال :

يامعشر الناس ! إياكم وخلالا أربعا فإنها تدعو إلى النصب بعد الراحة، وإلى
 الضيق بعد السعة ، وإلى الذلة بعد العزة . إياكم وكثرة العيال ، وإخفاض الحال ،
 وتضييع المال ، والقبيل بعد القال ، في غير درك ولا نوال . ثم لا بد من فراغ يؤول إليه
 المرء في توديع جسمه والتدبير لشأنه وتخليته بين نفسه وبين شهواتها . ومن صار
 إلى ذلك فليأخذ بالقصد والنصيب الأقل ، ولا يضيع المرء فراغه نصيب العلم من
 نفسه فيحوز من الخير عاطلا وعن حلال الله وحرامه باطلا . يامعشر الناس ! إنه
 قد تدلّت الجوزاء وزلت الشعري وأقلعت السماء وارتفع الوباء وقلّ الندى
 وطاب المرعى ، ووضعت الحوامل ودرجت السخائل ، وعلى الراعي بحسن رعيته
 حسن النظر . فحىّ لكم على بركة الله تعالى إلى ريفكم ، فتناولوا من خيريه ولبنه
 وخرافه وصيده ، وأربعوا خيلكم وأسمنوها ووصونها وأكرموها ، فإنها جنتكم من عدوكم ،
 وبها مغانمكم وأنفالكم . واستوصوا بمن جاورتموه من القبط خيرا ، وإياكم والمومسات
 المعسولات ، فإنهن يفسدن الدين ويقصرن الأهمم . حدثني أمير المؤمنين أنه سمع
 رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الله سيفتح عليكم بعدى مصر ، فاستوصوا
 بقبطها خيرا ، فإن لهم فيكم صحرا ، وذمة فكفوا أيديكم وعفوا فروجكم ، وغضوا
 أبصاركم ، ولأعلمن ما أتى رجل قد أسمن جسمه وأهزل فرسه »

كذلك اشتهر عمرو بحكمه البليغة ، وله أقوال مأثورة ، منها : « ليس العاقل الذي يعرف الخير من الشر وإنما يعرف خير الشررين . » وروى عن عمرو أنه قال يوماً لمعاوية : « إنَّ الكريم يصلو إذا جاع واللئيم يصلو إذا شبع . فسُدَّ خصاصة (حاجة) الكريم ، واقمع اللئيم . » قال معاوية لعمرو : من أبلغُ الناس ؟ قال : من كان رأيه راداً لهواه . وقال : فمن أسخى الناس ؟ قال : من بذل ديناه في صلاح دينه . وقال : فمن أشجع الناس ؟ فقال من ردَّ جهله بحلمه . ومن غرر أقوال عمرو : موت ألف من العلية أقل ضرراً من ارتفاع واحد من السفلة . وقوله وقد نظر على بغلة قد شمط وجهها هرماً فقيل له : أتركب هذا وأنت أمير مصر ؟ فأجاب : « لا ملل عندي لدابتي ما حملتني ، ولا لامرأتى ما أحسنت عشتى ، ولا لصديقي ما حفظ سري . إن الملل من كواذب الأخلاق . » وقوله : « إذا أنا أفشيت سري إلى صديقي فأذاعه فهو في حل ، فقيل له : وكيف ذلك ؟ قال : « أنا كنت أحق بصيانتته . »

كان عمرو من دهاة العرب المشهورين . يدل على ذلك تلك الحيلة التي ابتكرها في موقعة صفين وجيش علي بن أبي طالب على وشك الانتصار ، وما كان من رفع المصاحف على أسنة الرماح ، وما أحدثه من أثر في التفريق بين صفوف علي ، وتغلبه على أبي موسى الأشعري بدعائه ومكره . ولم يكن قيام حزب الخوارج الذي لم يرضَ بحكم علي ولا بحكم معاوية ، وظهور حزب الشيعة بشكله الواضح ، وانتصار معاوية وتحويل الخلافة إليه ، إلا نتيجة لدهاء عمرو .

وكان عمرو حاضر البديهة طيب الفكاهة . أراد معاوية أن يختبر بديهته يوماً ، فقال عمرو : أخرج من عندك ، فأخرجهم معاوية ، فقال عمرو : يا أمير المؤمنين أسارك ، فأدنى معاوية رأسه منه ، فقال عمرو : من معنا في البيت حتى أسارك ؟ مات عمرو في يوم الفطر من السنة الثالثة والأربعين للهجرة . وقد تأخرت وفاته ثلاث سنين ، لأن ابن ملجم قتل علي بن أبي طالب ، ولم يفز الذي نذب نفسه لقتل معاوية بقتله ، وكذلك عمرو بن بكر الذي عزم على قتل عمرو ، فانه

جلس في الليلة المعهودة ، فلم يخرج عمرو لمرضه ، وندب خارجة بن حذافة قاضي مصر أن يصلي بالناس . وبينما هو في صلاته ضربه الخارجي بالسيف فقتله ، وكان يظنه عمرا . فلما علم أن المقتول غير عمرو ، قال : أردت عمرا وأراد الله خارجة ، فذهبت مثلاً . ولما وقف الرجل بين يدي عمرو ، بكى ، فقيل له : أجزعا من الموت مع هذا الإقدام ؟ قال : لا والله ، ولكن غما أن يفوز صاحبى بقتل على ومعاوية ولا أفوز أنا بقتل عمرو !

وقد روى في كتاب الحيوان الكبرى أن عمرو بن العاص لما حضرته الوفاة قال له ابنه : يا أبتاه إنك كنت تقول لنا : ليتني كنت ألقى رجلا عاقلا ليديا عند نزول الموت به حتى يصف لي ما يجد ، وأنت ذلك الرجل ، فصف لي الموت . فقال : « يا بني ! والله كأن السماء قد أطبقت على الأرض ، وكأنني أتنفس من سم إبرة ، وكأن غصن شوك يجذب من قدمي إلى هامتي » .

ليتني كنت قبل ما قد بدا لي في رؤس الجبال أرعى الوعولاً
ثم قال عمرو لأبنائه : إن أنا نامت ، فلا ، تتبعني نائحة . فإذا دفنتموني في قبري ، فستنوا على التراب سنا ، فليس جنبي الأيمن أولى بالتراب من الأيسر ؛ ولا تجعلوا في قبري خشبة ولا حجرا . فإذا فرغتم من دفني ، فأقيموا عند قبري قدر ما ينسحر جزور ويقسم لحمها ، فإني أستأنس بكم حتى أعلم ماذا أراجع به رسل ربّي . ثم قال لبنيه : يا بني ! ماتغنون عني من أمر الله شيئا ، قالوا : يا أبت ! إنه الموت ، ولو كان غيره لو قيناك بأنفسنا ، يقال : أسندوني ! ثم قال وقد استقبل القبلة : اللهم إنك أمرتنا فعصينا ، ونهيتنا فارتكبنا . وهذا مقام العائذ بك ؛ فإن تعف فأنت أهل للعفو ، وإن تعاقب فيما قدمت يداي . اللهم لا قوى فأنتصر ، ولا برى فأعتذر ، ولا مستكبر بل مستغفر . أستغفرك وأتوب إليك ، ولكن لا إله إلا الله ، فما زال يقولها حتى مات في يوم عيد الفطر سنة ثلاث وأربعين من الهجرة كما تقدم .

ودفن عمرو بسفح المقطم ، وقيل في المكان الذي يقع على حافته الشرقية

قبر الإمام الشافعي ، وقيل أيضا في مكان يقع شرقي مشهد السيدة آمنة بنت موسى الكاظم .

كان عمرو بن العاص أحسن مثال للنفسية العزيرة المسلمة ، فقد تجلى في هذه الشخصية الفذة العدل والحلم والشجاعة والإقدام وطهارة السريرة والرجوع إلى الحق ؛ فاحتلت مكانتها بين شخصيات الأبطال وأعلام الإسلام الذين يحفظ لهم التاريخ أجمل الذكرى وأطيب الأثر .

١٤ - الزبير بن العوام

حوارى رسول الله ومن العشرة المشهود لهم بالجنة

من أعلام الإسلام : الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن
قصي بن كلاب حواري الرسول الكريم وابن عمته ، وأحد العشرة المشهود لهم
بالجنة ، وأول رجل سل سيفه في الله ، وهو أحد الستة من أصحاب الشورى الذين
نذبهم عمر ليختاروا من بينهم خليفة يتولى أمور المسلمين . وأمه صفية بنت عبد
المطلب عممة الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام ، فهو ابن عممة الرسول ، وابن
أخى خديجة بنت خويلد زوجة الرسول ، وكانت فاطمة الزهراء بنت الرسول
بنت عمته . وكانت أمه تكنيه أبا الطاهر بكنية أخيها الزبير بن عبد المطلب ، وكنى
الزبير بأبي عبد الله .

ولما ظهر الإسلام كان الزبير في طليعة الذين آمنوا بالرسول وصدقوه . أسلم
بعد أبي بكر بوقت يسير ، وكان خامس من دخل هذا الدين . وقد هداه الله وهو
لا يزال في ميعة الصبا ، حتى قيل إنه أسلم ولم يتجاوز الخامسة عشرة . (١)
مات العوام والزبير صغير ، فكان يلي أموره خاله نوفل بن خويلد . وكانت
أمه صفية تعنى بتربيته عناية فائقة ، ولا تألو جهدا في تقويمه ، بل لقد كانت تشتد
عليه وتضربه وهو صغير ، فعاتبها أخوها نوفل ، وخشى أنها تضمر لابنها
الكرامة والبغضاء . فردت عليه ردا ينطوى على جهل إياه وإيثارها مصلحته
ورجزت به :

مَنْ قَالَ إِنِّي أَبْغَضُهُ فَقَدْ كَذَبَ وَإِنَّمَا أَضْرِبُهُ لِكَيْ يَلْبَسَ

(١) وقيل وهو ابن ست عشرة سنة ، وقيل وهو ابن اثني عشرة سنة ، وقيل وهو ابن ثمانين سنة .

وَيَهْزَمُ الْجَيْشَ وَيَأْتِي بِالسَّلْبِ وَلَا يَكُنْ لِمَالِهِ خَبِيئاً مَخْبٍ

يَأْكُلُ فِي الْبَيْتِ مِنْ تَمْرٍ وَحَبِّ

لذلك لا نعجب إذا عرف الزبير منذ نعومة أظفاره بالقوة والبأس وإيثار الحق وإنصاف المظلوم . فلما أسلم تأدب بآداب الدين الجديد ، برغم ما لقيه من الآلام وما تعرض له من الأذى ، حتى لقد روى أن عمه كان يعلقه في حصير ويدخن عليه ليرتد عن دينه ويرجع إلى الكفر ، ولكنه أبقى إلا التمسك بأهداب هذا الدين الذي أصبح عقيدة راسخة خالطت شغاف قلبه ، ولقى ما لقي من أذى المشركين ، واضطر إلى الهجرة مع من هاجر من المسلمين إلى الحبشة .

ولما عاد الزبير إلى مكة وآخى الرسول بين المهاجرين ، آخى بينه وبين عبد الله بن مسعود . وكان الزبير من أخلص صحابة الرسول وأشدهم إيماناً بدعوته ، لذلك نراه يبادر إلى الهجرة إلى يثرب ، فيتبع الرسول مع من تبعه من المهاجرين . وسرعان ما أصبح أهل يثرب من أشد أنصار الرسول عوداً وأقواماً بأساً . فإذا استقر بالمهاجرين المقام آخى الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام بين المهاجرين والأنصار ليخفف من وطأة الهجرة على هؤلاء الذين تركوا ديارهم وتركوا أموالهم بمكة ؛ فأخى فيمن آخى بين الزبير بن العوام وسلمة بن سلامة بن وقش ، وظلت هذه المؤاخاة قائمة يرث المتأخيان أحدهما الآخر ، حتى نزل قوله تعالى في سورة الأنفال : « والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم ، وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله » .

قدر الرسول الكريم لهذا الصحابي الجليل قدره ، وعرف له سبقه إلى الإسلام ، وصدق إيمانه بدعوته ، وتعلقه بحبته ، كما عرف له حسن بلائه في الجهاد . وقد قيل إن الزبير كان أول من سل سيفاً في الله عز وجل . ولما كان المسلمون مع الرسول في مكة ، اتصل بالزبير أن الكفار أخذوه ، فأقبل يشق الناس بسيفه والرسول بأعلى مكة فقال له : مالك يا زبير ؟ قال أخبرت أنك أخذت . فصلى الرسول صلى الله عليه وسلم ودعا له ولسيفه .

وقد اشترك الزبير في غزوات الرسول، حتى قيل إنه شهد المشاهد كلها: حارب يوم بدر وعليه عمامة صفراء، فقال الرسول: إن الملائكة نزلت على سماء الزبير، وندبه الرسول ليأتيه بخبر بني قريظة من اليهود، حين نقضوا العهد الذي أخذوه على أنفسهم، بعد أن أقبل المشركون من قريش وأحلافها، وهاجموا المدينة في السنة الخامسة من الهجرة وحاولوا اختراق الخندق.

كذلك شهد الزبير صلح الحديبية، وبلغ من شدة إعجاب الرسول بشجاعة المسلمين الذين اشتركوا في بدر والحديبية وتقديره بلاءهم في الحرب وإخلاصهم في الجهاد أنه قال: لن يلج النار أحد شهد بدرًا والحديبية.

ويظهر أن الزبير قد آثر العزلة بعد أن انتقل الرسول إلى جوار ربه، فلزم المدينة المنورة ولم يفارقها إلا للحج. وقد عكف على الاشتغال بالتجارة التي أدرت عليه الأموال. وكان لتربيته المنزلية، وما اكتسبه من وراء اتصاله بالرسول الكريم من فضائل وآداب من كتاب الله، أثر بعيد فيما أصاب من ثراء وما نعم به من خير. قيل له يوماً: بيم أدركت في التجارة ما أدركت؟ قال: لاني لم أشتري غبناً، ولم أردد رجحاً، والله يبارك لمن يشاء.

ولكن الزبير لم يحفل بهذا الثراء حين دعا عمر بن الخطاب رضى الله عنه الجهاد في سبيل الله، وقد عرف له شجاعته ومهارته في الحرب. فلما طلب عمرو بن العاص المدد من الخليفة، أمدّه بأربعة آلاف، عليهم أربعة من القواد وكتب إليه: لقد أمددتك بأربعة آلاف عليهم أربعة من مشاهير الصحابة الواحد منهم بألف رجل. وكان هؤلاء الأربعة: الزبير بن العوام، وعبيدة بن الصّامت، والمقداد ابن الأسود، ومسلمة بن مخلد.

ولما شدد المسلمون الحصار على حصن بابلون، تجلّت شجاعة الزبير، وضرب للمسلمين أروع أمثلة التضحية في سبيل إعلاء كلمة الدين. فانظر إليه وقد بلغت الحرب مرحلة دقيقة: إما النصر والظفر، وإما الهزيمة والخذلان، فيقدم نفسه فداء للإسلام ويقول: إذ، أهب نفسي لله تعالى وأرجو أن يفتح الله بذلك على

المسلمين . ثم يضع سلما إلى جانب الحصن ، ويصعد ويأمر المسلمين إذا سمعوا تكبيره أن يجيبوه جميعا . وعلى حين غفلة يكبر الزبير على رأس الحصن ومعه السيف ، ويتحامل الناس على السلم ، وينهاهم عمرو بن العاص خوفا من أن ينكسر ، ثم يكبر الزبير تكبيرة ، فيجيبه المسلمون من الخارج ، ولم يشك أهل الحصن أن العرب قد اقتحموه جميعا ، فيهربون ، ويعمد الزبير بأصحابه إلى باب الحصن فيفتحونه . وبذلك مهد هذا الجندى الباسل والمسلم المجاهد ، للمسلمين فتح مدينة الإسكندرية حاضرة الديار المصرية في ذلك الحين . كما اشترك الزبير مع المسلمين في فتح بلاد طبرستان . من أجل ذلك لانعجب إذا اتخذ الرسول الزبير حواريه ، وعدّه من العشرة المشهود لهم بالجنة . كما لانعجب إذا اختاره عمر بن الخطاب رضى الله عنه من أصحاب الشورى الستة الذين رشحهم ليختاروا من بينهم خليفة يلى أمور المسلمين بعد وفاته ، وقال للصحابة : عليكم بهؤلاء الرهط الذى مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض ، وقال فيهم إنهم من أهل الجنة .

ولما ظهر التنافس على الخلافة بين الذين كانوا يميلون إلى تولية على ، والذين يميلون إلى تولية عثمان ، لم يظهر الزبير ميلا إلى أحد المتنافسين : على وعثمان ، بل آثر العافية ، وأيد عبد الرحمن بن عوف حين أخرج نفسه من الخلافة . ولما آلت الخلافة إلى عثمان حرص على أن يؤثر الزبير ويقربه إليه برغم ما كان بينهما من خصومة زمنا ما . ولم يشتد الزبير في معارضة سياسة عثمان ، بل شارك الصحابة فيما وجهوا إليه من نقد وأسدوا إليه من نصح . ولكنه لم يذهب في هذه المعارضة إلى ما ذهب إليه أهل المدينة وغيرهم من أهالى الأمصار الأخرى ، الذين اشتركوا في الفتنة التى انتهت بقتل عثمان بن عفان رضى الله عنه . وقد حفظ له عثمان هذا الموقف ، وعبر عن رضاه عنه حين قيل له استخلف الزبير ، فقال : أما أنه لأخيرهم وأحبهم الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

على أنا لا ندرى كيف أن الزبير الذى آثر العافية ولم ينغمس فيما انغمس فيه بعض المسلمين ، ينضم إلى عائشة وطلحة ! وقد قيل إنه انضم إليهما ، لأنه طمع

في ولاية العراق ، كما طمع طلحة في ولاية اليمن ، وأن عليا لم يحقق لهما ما كانا
يطمعان فيه ، فنقما عليه ، وندما على بيعتهما إياه ، وعزما على الخروج عليه ،
فاستأذناه في الخروج إلى مكة لأداء العمرة ، ولكنه لم يخف عليه أمرهما ، فقال
لها : « والله ما العمرة تريدان !

بل إن الزبير لم يصغ لنصح الناصحين ، ولم يرع حرمة لوحدة المسلمين ، على
الرغم من أنه كان ابن عمه الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام ، وابن أخى السيدة
خديجة . ولكنه آثر من جهة أخرى الانضمام إلى أم المؤمنين عائشة أخت أسماء بنت
أبي بكر ، ليظفر بالخلافة ، إن لم يكن لنفسه ، فلائنه عبد الله بن أخت السيدة عائشة .
وقد أراد على كرم الله وجهه أن يثنى الزبير عن قتاله يوم الجمل ، فناداه ،
وذكر له أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له ، وقد وجدهما يضحكان : أما إنك
ستقاتل عليا وأنت له ظالم . وقد قيل إن الزبير ذكر ذلك وهم بالانصراف عن
القتال ، فتبعه عمرو بن جرموز ، من بني تميم وقتله بموضع يعرف بوادى السباع ،
وذلك في شهر جمادى الأولى سنة ست وثلاثين للهجرة ، وله ست وستون سنة (وقيل
سبع وستون) . ولكن عليا لم يفرح لموت رجل من أعلام الإسلام ومن كبار
الصحابة ، بل حزن عليه وعبر عن استيائه من قاتل الزبير حين جاءه عبد الله بن
عباس بعد مقتله فقال : إلى أين يدخل قاتل ابن صفية (يعنى الزبير) فقال على : النار .
كان الزبير - كما قال عمر بن الخطاب - من أركان الدين ، وأرل رجل سل
سيفه في الله . ومواقفه في الجهاد مذكورة مشهورة . روى أنه كان فيه ثلاث
ضربات في السيف : ثنتان يوم بدر ، وواحدة يوم اليرموك . وقد حدث عن
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكنه كان قليل الحديث برغم صحبته للرسول .
قال الزبير بن بكار في كتاب النسب : سألت الزبير عن قلة حديثه عن رسول الله
صلى الله عليه وآله وسلم فقال : كان بيني وبينه من الرحم والقراية ما قد علمت ،
ولكني سمعته يقول : « من قال على ما لم أقل فليتبوأ مقعده من النار » .
كان الزبير من أصحاب اليسار ، وقد تضخمت ثروته حتى أصبحت مضرب

الأمثال في الضخامة. فقد بنى داره بالبصرة، وقد شاهدها أبو الحسن علي المسعودي في سنة ٢٢٢ هـ، فقال: تنزلها التجار وأرباب الأموال، وأصحاب الجهات من البحرين وغيرهم، كما ابنتى الزبير دورا أخرى في البصرة والكوفة والفسطاط والإسكندرية وبعرض الدور في المدينة. وبلغ مال الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار، وخلف ألف فرس، وألف عبد، وألف أمة، عدا ما خلف من الدور والضياع.

وكان للزبير ألفا مملوك يؤدون إليه الخراج، فما يدخل إلى بيته منه درهما واحدا، بل كان يتصدق بذلك كله. ولقد عظم دينه على الناس حتى إنه أوصى ابنه عبد الله يوم الجمل أن يؤدي عنه دينه من ماله، فقام عبد الله بتنفيذ وصية أبيه، فأدى هذا الدين كله إلى أصحابه، ومات هذا الصحابي الجليل فقيرا. وقد سار مدح الزبير على لسان حسان بن ثابت الذي فضله على الصحابة، كما فضل أبو هريرة جعفر بن أبي طالب على الصحابة، فقال حسان يمدح الزبير في أبيات منها.

أقام على عهد النبي وهدية حواريه والقول بالفعل يعدل
أقام على منهاجه وطريقه يوالى ولي الحق والحق أعدل
له من رسول الله قرّبي قرّية ومن نصرته الإسلام مجد مؤثر
كان الزبير من الذين جاهدوا في سبيل الله حق جهاده.

وعلى الرغم مما امتاز به الزبير من جهاد، وما تحلى به من فضائل، وما اشتهر عنه من صدق ووفاء وكرم، لا يسعنا إلا أن نحكم عليه لانغماسه في الفتنة التي اشترك فيها بعض الصحابة، وطوّحت بالوحدة الإسلامية، وأدت إلى انقسام المسلمين فرقا وطوائف، ظهرت آثارها في هذه الحروب الطاحنة التي نشبت بين علي ومعاوية، فزالت دولة الخلفاء الراشدين بعد حين، وقامت على أنقاضها الدولة الأموية، وتفاقت هذه الكراهة التقليدية التي قامت بين بني أمية وبني هاشم في الجاهلية، ولم يزلها الإسلام إلا تفاقما وازديادا.

١٥ - طلحة بن عبيد الله

« الفياض »

من أعلام الإسلام صحابي جليل كان في طليعة الذين آمنوا بالرسول الكريم وصدقوه. وهو أحد العشرة السابقين إلى الإسلام ، وأحد الخمسة الذين أسلموا على يد أبي بكر ، وأحد الستة أصحاب الشورى ، الذين نديهم عمر ليختار المسلمون خليفة منهم : هو طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي القرشي . وكانت أمه الصَّعْبَةُ بنت الحَضْرَمِي ، أخت العلاء بن الحَضْرَمِي من أهل اليمن .

أسلم طلحة على يد أبي بكر الصديق ، وقيل إنه كان ثامن من دخل هذا الدين ، وقيل في سبب إسلامه : إنه حضر سوق بُصْرَى ، التي كان يتردد عليها تجار العرب في الجاهلية ، والتي ذهب إليها الرسول مع عمه أبي طالب ولمح فيها راهب اسمه بَحِيرَا في الرسول علامات النبوة بعد أن سأله عن أمور في نومه ويقظته ، ورأى في بدنه علامات النبوة .

في تلك المدينة رأى طلحة راهبا في صومعته يقول : سلوا أهل هذا الموسم ، أفهم أحد من أهل الحرم قال طلحة : نعم أنا ، فقال : هل ظهر أحمد ؟ قلت من أحمد قال ابن عبد الله ، هذا شهره الذي يخرج فيه ، وهو آخر الأنبياء ومُخْرَجُه من الحرم ، ومهاجره إلى نخل وحره وسباخ ، فأياك أن تُسبق إليه . فوقع هذا الكلام موقعه من نفس طلحة ، فخرج مسرعا حتى قدم مكة ، وسأل أصحابه : هل من حدث ؟ قالوا : نعم ، محمد الأمين تنبأ ، وقد تبعه ابن أبي قحافة ، يعنون أبا بكر . وخرج طلحة حتى جاء إلى دار أبي بكر ، فصحبته حتى لقي الرسول ، فأسلم على يديه ، وأخبره بخبر ذلك الراهب .

أفاد طلحة من اشتغاله بالتجارة فوائد معنوية وأدبية ، فقد خالط أقواما مختلفين من ذوى المدينيات القديمة ، وساعده ذلك على معرفة أحوال هذه الأمم السياسية والاجتماعية ، مما كان له أثر كبير فى تثقيف عقله وورقى مداركه . ولاشك أن نفس طلحة كانت مهياة لقبول الإسلام .

وكان طلحة من أفراد المسلمين القلائل الذين سارعوا إلى قبول دعوة الرسول ، فخالط الإسلام شغاف قلوبهم ، وأبلوا البلاء الحسن فى نصره هذا الدين . يتجلى ذلك من مواقفه المشهورة فى الغزوات : كان بالشام فى تجارة حين وقعت غزوة بدر ، ولكن الرسول الكريم عرف له سبقه إلى الإسلام وجهاده فى الدين ، فعده من صفوف المؤمنين الذين شهدوا هذه الغزوة ، وخصه بسهم ، واحتفظ له بنصيبه . كذلك شهد طلحة غزوة أحد التى خصصت لها قریش جميع ما كان من مال فى العير التى أثار النزاع فى غزوة بدر ، وأبلى طلحة البلاء الحسن ، وجاهد فى سبيل الله .

ولما وقعت موقعة أحد ، وأهمل الرماة وصية الرسول إياهم بالشبات فى أماكنهم ، وأخذوا يجمعون ما تركه العدو وراءهم من الغنيمة والأسلاب ، انتهز خالد بن الوليد خلو الجبل من الرماة ، وأتى المسلمين من خلفهم ، وأعمل الرماح فى ظهورهم ، فاضطرب المسلمون لهذه المفاجأة ، واختل نظامهم حتى تعرضت حياة الرسول للخطر . ثم اشتد الخطب عندما صرخ ابن قسيمة من المشركين : ألا إن محمداً قد قتل ! وتخاذل المسلمون ، واستولى اليأس على قلوب فريق منهم . لكن طلحة لازم النبي مدافعاً عنه ، ووقاه بنفسه ، واتقى السنبل عنه بيده حتى شلنت إصبعه . وهذه العبارة تحمل الدليل القاطع على صدق إيمان طلحة وتفانيه فى محبة الرسول ، والذود عن الإسلام ، مُعرضاً نفسه لخطر الموت فى سبيل المحافظة على حياة الرسول الكريم .

وهب الله سبحانه طلحة مع قوة الإيمان والإخلاص للدين ، قوة البدن وصلابة العود التى ساعدته على الذود عن حياض الدين ، وصد الأذى عن الرسول ولو كان

في ذلك إصابة يده وشملها . وتتجلى هذه الصفات بما وصفه به المؤرخون وأصحاب السير ، فقد كان طلحة أبيض يضرب إلى الحمرة ، وكان ربعة حسن الوجه يميل إلى القصر . وكان رحب الصدر بعيد ما بين المنكبين ، ضخم القدمين ، إذا مشى أسرع في مشيته ، يتدفق حيوية ونشاطاً وقوة ، بذلها كلها في نصره الدين حتى إنه جاد بنفسه في سبيل وقاية الرسول . روى أن الرسول صلى الله عليه وسلم نهض إلى صخرة من الجبل ليعلوها ، وكان قد ظاهر بين درعين ، فلما ذهب لينهض لم يستطع ، فجلس تحته طلحة ، فنهض حتى استوى عليها .

وكان طلحة من الفدائيين الذين يعدون عدة الجيوش في أدق ساعات القتال . وابتدع هذه الفكرة التي خلدت الصحف ذكر أصحابها في الحرب العالمية الثانية ، فقدموا نفوسهم فداء لأوطانهم ، وألقوا بأنفسهم وسط مخازن الذخائر والمصانع الحربية ينسفونها ، مضحجين أنفسهم معها . فانظر إلى طلحة وأصحابه الذين بايعهم الرسول صلى الله عليه وسلم على الموت يوم أحد ، حين انهزم المسلمون فصبروا ، وجعلوا يبذلون نفوسهم دونه حتى قتل منهم من قتل ، وكان من هؤلاء أبو بكر ، وعمر ، وطلحة ، والزبير ، وسعد ، وسهل بن حنيف ، وأبودجانة .

كذلك آخى الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام بين طلحة وعبد الله بن الزبير بمكة قبل الهجرة ، كما آخى فيما آخى بين المهاجرين والأنصار في المدينة بين طلحة وأبي أيوب الأنصاري ؛ ليخفف عن المهاجرين وطأة الهجرة وقد هجروا ديارهم وتركوا أموالهم .

وقد اشترك طلحة في الأحداث الهامة التي وقعت بعد أن انتقل الرسول إلى جوار ربه ، فانحاز إلى علي بن أبي طالب . كما اشترك أيضاً في حروب الردة الطاحنة التي كادت تودي بوحدانية الجزيرة العربية وتقضي على التراث الذي خلفه الرسول ، لولا هذه الروح القوية التي بثها الرسول في نفوس أتباعه المخلصين من أمثال طلحة بن عبيد الله .

كان طلحة من الستة الذين اختارهم عمر بن الخطاب ليقع اختيار خليفة منهم ،

على الرغم من أن طلحة كان متغيبا عن المدينة في ذلك الوقت ، مما يدل دلالة واضحة على ما كان يتمتع به من مركز ممتاز في السياسة الإسلامية ، فقد قال عمر : « إذا مت ، فتشاوروا ثلاثة أيام ، ولا يأتين اليوم الرابع إلا وعليكم أمير منكم . ويحضر عبد الله بن عمر مشيرا . . . وطلحة شريككم في الأمر ، فان قدم في الأيام الثلاثة ، فأحضره أمركم ، وإن مضت الأيام الثلاثة قبل قدومه ، فاقضوا أمركم » .

وكان طلحة ممن بادروا إلى تولية علي ، ولكنه سرعان ما تغير عليه لأنه كان يطمع في ولاية اليمن . فلما أرسل عليّ الولاية ولم يكن له حظ في الولاية ، نقم عليه وتكلم في شأنه ، وندم على بيعته ، وعزم على الخروج ؛ فاستأذن عليا في الخروج إلى مكة لأداء العمرة ، ولكنه لم يخف عليه أمره وقال له وللزبير : والله ما العمرة تريدان ! وهذا يبين أن خروج طلحة والزبير على عليّ بن أبي طالب كان للمطالبة بالخلافة . فقد قيل إن مروان بن الحكم قال لهما بعد خروجهما : علي أيكما أسلم بالإمرة وأؤذن بالصلاة ، فقال عبد الله بن الزبير : عليّ أبي (يعني أباه الزبير) ، وقال محمد بن طلحة : عليّ أبي طلحة .

وقد انضم إلى عائشة طلحة والزبير اللذان عملا على استمالة زعماء البصرة ، ولم يصغيا لنصح الناصحين ، ولم يرعيا حرمة لوحدة المسلمين التي كادت تتمزق شرمزق ، وخرج ثلاثهم إلى البصرة ، والتقوا بجيش علي في منتصف جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين للهجرة ، وقتل طلحة ، الذي رماه مروان بن الحكم بسهم فقتله ، لما كان يتهمه بتحريض الناس على قتل عثمان . وكان في الرابعة والستين .

وأنا لنعجب كيف ينضم طلحة ، ذلك الصحابي الجليل ، إلى المدللين بدم عثمان ، مع أنه كان متهما بتحريض الناس على قتل عثمان . كما نعجب أيضا حين يؤلب طلحة الناس على عليّ بن أبي طالب لأنه لم يقلده ولاية اليمن !

ومهما يكن من أمر ، فإن طلحة كان من أشد الصحابة تعلقا بالرسول وتفانيا في خدمة الدين ، وقد بذل في سبيل الدين أموالا ضخمة . روى أن الرسول مر في

غزوة ذي قرد على ماء مالح يقال له بيسان فقال: هو نعمان، وهو طيب. فغير اسمه،
فاشتراه طلحة وتصدق به على المسلمين، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
ما أنت يا طلحة إلا فياض! فبذلك قيل له: طلحة الفياض.

وقد روى سفيان بن عبد الملك عن قبيصة بن جابر قال: صحبت طلحة فما
رأيت رجلا أدطى لجزيل مل من غير مسألة منه.

فقد ذكر المسعودي أن طلحة ابنتي داره بالسكناس (١) بدار الطلحتين، وكانت
غلته من العراق كل يوم ألف دينار، وقيل أكثر من ذلك، وبناحية سراة (٢)،
وشيد داره بالمدينة المنورة، وبنائها بالآجر والجص والساج.

روى طلحة بن عبيد الله عن الرسول صلى الله عليه وسلم، وروى عنه بنوه:
يحيى، وعيسى؛ كما روى عنه أيضا: قيس بن أبي حازم، وأبو سلمة بن عبد الرحمن،
والأحنف بن قيس، ومالك بن أبي عامر وغيرهم.

كان طلحة آدم كثير الشعر، ليس بالجعد ولا بالسبط، حسن الوجه، دقيق
العرنين، إذا مشى أسرع.

تزوج طلحة أربع نسوة كان عند الرسول صلى الله عليه وسلم أخت الكل
منهن، وهن: أم كلثوم بنت أبي بكر أخت عائشة، وحنة بنت جحش أخت زينب بنت
جحش، والفارعة بنت أبي سفيان أخت أم حبيبة، ورقية بنت أبي أمية أخت أم سلمة.

(١) بكسر أوله، موضع من بلاد غنى. عن أبي عبيدة قال جرير:

لمن الديار كأنها لم تحلل

بين السكناس وبين طلحة الأعزل

والكناسة (بالضم) محلة بالكوفة قتل فيها زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي

سنة ١٢٢ هـ.

(٢) السراة: سلسلة جبال تمتد من عرفة (قرب مكة) إلى صنعاء في الجنوب، يسكنها قوم من
الأرد يقال لهم أزد السراة، وهي جبال التوائية يتخللها أخاديد وتنتهت فيها الكروم وقصب
السكر والقرط.

١٦ - المقداد بن الأسود

فارس يوم بدر وأول من قاتل على فرس في سبيل الله

ضرب الاسلام أحسن الأمثلة للحرية والاخاء والمساواة ، فسوى بين العبد والحر ، وبين الأبيض والأسود . من هؤلاء المقداد بن عمرو بن ثعلبة بن مالك ابن ربيعة بن عامر بن مطرود البهرائي نسبة الى قبيلة بهراء ، وقيل الحضرمي . أصاب عمرو أبو المقداد دما في قومه ، فهرب الى حضرموت ، ثم حالف كندة ، فقيل له الكندي . وتزوج هنالك من امرأة ولدت له ابنة المقداد . ولما شب هذا الفتى وكبر ، وقع بينه وبين أحد أفراد هذه القبيلة نزاع ، فضرب رجله بالسيف ، ولكنه خشي على نفسه ، فهرب إلى مكة ، وحالف الأسود بن عبد يغوث الزهري ، فتنبأه الأسود ، فنسب إليه المقداد ، فسمى المقداد بن الأسود ، كما سمي المقداد بن البهرائي ، والمقداد الكندي ، ثم سمي المقداد بن عمرو بعد أن أنزل الله عز وجل « ادعوهم لأبائهم هو أقسط عند الله » . ولكن تسميته المقداد بن الأسود ، غلبت عليه . وكان يكنى أبا الأسود ، وأبا عمرو وأبا معبد ، وأبا سعيد .

كان المقداد في طليعة الذين آمنوا بالرسول وصدقوه ، وكان من السابقين الأولين . روى ابن مسعود أن أول من أظهر الإسلام بمكة سبعة منهم المقداد . وروى عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه عن الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام أنه قال : لم يكن نبي الا أعطى سبعة نجباء وزراء ورفقاء ، وإني أعطيت أربعة عشر : حمزة ، وجعفر ، وأبو بكر ، وعلي ، والحسن ، والحسين ، وابن مسعود ، وسلمان ، وعمار ، وحذيفة ، وأبو ذر ، والمقداد ، وبلال .

ولا عجب ، فقد كان المقداد بمن عمر الإسلام قلوبهم ، واطمأن الرسول إلى استعدادهم لقبول دعوته . وقد تعرض المقداد لما تعرض له المؤمنون من أذى قريش ، فلم تضعف عزيمته من هول هذه المحنة ، بل لقد ساعد ذلك الاضطهاد على إذكاء الحماسة الدينية في نفسه .

ولما رأى الرسول ما أصاب أصحابه من البلاء أذن للمسلمين بالهجرة إلى الحبشة ، فهاجر عشرة رجال وأربع نسوة ثم زاد عددهم حتى بلغ ثلاثة وثمانين رجلا وسبع عشرة امرأة ، سوى الصبيان . وكان المقداد من بين هؤلاء المهاجرين .

وبينما كان الرسول وأهل بيته يلاقون الشدائد والأهوال في مكة ، كان المقداد ومن هاجر معه يقاسون آلام الغربة في الحبشة ، حتى وجدت دعوة الرسول بيئة صالحة في أهل يثرب التي لم تلبث أن أصبحت بعد هجرته صلى الله عليه وسلم معقل الإسلام وملجأ جماعة المسلمين . ثم عاد المقداد مع من عاد من مهاجري الحبشة ، ولحق بالرسول في المدينة ، وعاونه في نشر الدعوة ، واشترك معه في غزواته وسراياه .

نعم شهد المقداد غزوة بدر الكبرى التي انتصر فيها المسلمون على الكفار ، حتى لقد بلغ من اعتزاز المسلمين بانتصارهم فيها أن سموها غزوة الفرقان : لأن الله سبحانه وتعالى فرق بها بين الحق والباطل ، وأعز الإسلام وأذل الكفر . وكان للمقداد في هذه الغزوة أثر ملحوظ . فإن الرسول لما علم أن قريشا قد عقدوا العزم على أن يمنعوا غير المسلمين ، استشار كبار الصحابة ، « فقال أبو بكر فأحسن وقال عمر فأحسن ، ثم قام المقداد بن عمرو فقال : يا رسول الله ! امض لما أمرت به فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : « اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون . فوالذي بعثك بالحق نبيا لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى نبلغه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم خيرا ، ودعاه » . وكان المقداد من فرسان العرب المعدودين . روى أنه كان فارس يوم بدر ،

وأول من قاتل على فرس في سبيل الله .

اشترك المقداد مع المسلمين فيما تلا بدرا من غزوات ، وأبلى البلاء الحسن في نصرته الدين . فنراه يحارب المشركين من قريش وحلفائها في غزوة أحد ، وفي غزوة الخندق التي كان لها أثر بعيد في نشر الدعوة الإسلامية ، كما نراه يقاتل اليهود في خيبر . وقد عرف له الرسول قوة إيمانه وحسن بلائه ، فعبر له عن محبته له وحمد به عليه ، فزوجه من ابنة عمه ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب .

كان المقداد جالسا مع عبد الرحمن بن عوف ، وكان من أثرياء قريش ، فقال له : مالك لا تتزوج ؟ قال : زوجني ابنتك ، فغضب عبد الرحمن وأغلظ له ، فشكا المقداد ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له : أنا أزوجك ، فزوجه ابنة عمه ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب . وبذلك لم يفاضل الرسول الكريم بين مسلم ومسلمة ، لأن المسلمين إخوة لا تفاوت بينهم إلا بقدر ما يتفاضلون به من الحق . قال الله تعالى في كتابه العزيز : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

وقد روى عن الرسول عليه السلام أنه قال : أمرني الله عز وجل بحب أربعة وأخبرني أنه يحبهم : علي ، والمقداد ، وأبو ذر ، وسلمان .

اشترك المقداد في الفتوح الإسلامية وعرف له أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه شدة إيمانه وحسن بلائه . ذلك أن عمرو بن العاص لما طلب إلى الخليفة أن يرسل إليه مدداً يستعين به على اختراق أسوار حصن بابليون المنيع وأبراجه الشاهجة التي كان يحيط بها النيل في وقت الفيضان ، أمده بأربعة آلاف ، على رأسهم أربعة من كبار الصحابة ، وكتب إليه عمر : إني قد أمددتك بأربعة آلاف رجل ، على كل ألف منهم رجل مقام الألف : الزبير بن العوام ، والمقداد ابن الأسود ، وعبادة بن الصامت ، ومسلمة بن مخلد . وقال عمر : اعلم أن معك اثني عشر ألفاً ، ولا تغلب اثنا عشر ألفاً من قلة .

وقد بلغ من إعجاب المسلمين بمهارة المقداد وأصحابه وما أحرزوه في فتح مصر من نصر وظفر ، أن قالوا : إن عمر بن الخطاب أمد عمرو بن العاص بثمانية آلاف

رجل ، وزعموا أن كلا من هؤلاء القواد الأربعة ، كان يعدل ألف جندي ، وذلك لما اشتهروا به من مهارة ممتازة وكفاية نادرة .

ولقد أثر عن كسرى أنه كان له رجال اشتهروا في الحروب ، وأنه كان إذا احتاج إلى بقاء أحدهم إلى جانبه ، زاد جيشه ألف رجل يحلون محل ذلك القائد . وبقدر ما امتاز به المقداد من مهارة في الحرب ، اشتهر كذلك بالتفقه في الدين ، فقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرا من الأحاديث ، وروى عنه كثير من المسلمين الأولين ؛ كعلي بن أبي طالب ، وعبد الله بن عباس ، ومن التابعين كعبد الرحمن بن أبي ليلى ، وميمون بن أبي شبيب .

وروى عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أمرني الله عز وجل بحب أربعة ، وأخبرني أنه يحبهم : علي ، والمقداد ، وأبو ذر ، وسلمان » . وقد أثرى المقداد بن الأسود ثراء كبيرا . قيل إنه ابتنى داره بالمدينة المنورة ، في الموضع المعروف بالجرف على بعد أميال من المدينة ، وجعل أعلاها شرفات ، وجعلها محصنة الظاهر والباطن .

وروى عن المقداد أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا كان يوم القيامة ، أدنيت الشمس من العباد ، حتى تكون قيد ميل أو اثنين ، فيكونون في العرق على قدر أعمالهم ، فمنهم من يأخذه إلى عقبه ، ومنهم من يأخذه إلى ركبتيه ، ومنهم من يأخذه إلى حقويه ، ومنهم من يلجمه إجماما ، فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يشير بيده إلى فيه : أي يلجمه إجماما .

كان المقداد بن الأسود وفيما لآل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان يحب علي بن أبي طالب ويرى أنه أحق الصحابة بالخلافة . وقد تجلّى هذا الوفاء في قصة الشورى حين مات عمر والستة الذين اختارهم وقد انقسموا على أنفسهم ، وأصبح المسلمون فريقين : فريق يؤيد عثمان ، وفريق يؤيد عليا . فلما ازدحم المسجد بالناس ، قام عمار بن ياسر فقال لعبد الرحمن بن عوف بعد أن خلع نفسه من الخلافة : إن أردت ألا يختلف الناس ، فبايع عليا ، فقال المقداد بن الأسود :

صدق عمار ، إن بايعتَ علياً قلنا سمعنا وأطعنا ، فقام عبد الله بن أبي سرح وقال : إن أردت ألا تختلف قريش فبايع عثمان ، فقال عمار بن ياسر : أيها الناس ! إن الله عز وجل أكرمنا بنبيه ، وأعزنا بدينه . فأنى تصرفون هذا الأمر عن أهل بيت نبيكم ، فقال سعد بن أبي وقاص : يا عبد الرحمن ! افرغ قبل أن يفتن الناس ، وتمت البيعة لعثمان برغم معارضة المقداد بن الأسود وعمار ابن ياسر .

كان المقداد طويلاً ، أسود اللون ، كثير الشعر ، أعين ، مقروناً ، يصفر لحيته ، وكان ضخماً الجسم . وليس من السهل أن نحدد سنة ولادته . أما سنة وفاته ، فإن المؤرخين وأصحاب السير يكادون يجمعون على أنه مات سنة ثلاث وثلاثين للهجرة بأرض له بالجرف ، وحمل إلى المدينة ، وأنه كان في السبعين من عمره . وإذا صح ذلك ، كانت ولادة المقداد قبل الهجرة بسبع وثلاثين سنة ، وأنه كان في الرابعة والعشرين من عمره حين بعث الرسول عليه الصلاة والسلام .

وقد قيل في سبب وفاته : إنه كان عظيم البطن ، وإنه كان له غلام رومي ، فقال له : أشقُّ بطنك ، فأخرج من شحمه حتى تلطف ، فشق بطنه ، ثم خاطه ، فمات المقداد ، وهرب الغلام .

١٧ - عبد الرحمن بن عوف

إن الذي يحافظ على أزواجي من بعدى هو الصادق الباري

كان عبد الرحمن بن عوف أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأغنى أغنياء الصحابة رضوان الله عليهم . وكان يشاطر الفقراء ماله ، وينفق جله في سبيل الله عز وجل ، وفي سبيل إعلان كلمة الدين ورفع لواء الإسلام . وهو أحد الستة الذين أخبر عمر بن الخطاب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه مات وهو عنهم راض . وعبد الرحمن أمين رسول الله على نسائه ، وهو الأمين في السماء والأمين في الأرض . وصحابي هذه سيرته ، وهذا مكانه من قلب الرسول ، وهذا بلاؤه في الإسلام ، لخلق بأن ترجم له ونضعه في مصاف الفاتحين . فقد فتح غيره بسيفهم ، وفتح هو بماله حين كان يجند الجند ويبتاع السلاح في سبيل الجهاد وإعلاء كلمة الإسلام .

وصاحب هذه الترجمة هو عبد الرحمن بن عوف بن عبد الحارث بن زهرة ابن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي القرشي الزهري ، ويكنى أبا محمد . وكان اسمه في الجاهلية عبد عمرو ، وقيل عبد السكبة . ولد عبد الرحمن بعد عام الفيل بعشر سنين ، ونشأ في بيعة مكة التي كانت تعج بحياة الجاهلية وعبادة الأوثان والغلو في الآثام والاستهتار بالفضيلة . ولكنه كان - برغم ذلك - عفا عزوفا عن المآثم الشائعة في زمنه ، فقد روى أنه حرم الخمر في الجاهلية ، واتصف بالصفات الحميدة حتى بُعث الرسول وانتشر الإسلام في مكة ، وأقبل عليه القرشيون بعد أن ناصبوه العداة .

أسلم عبد الرحمن بن عوف قبل أن يدخل الرسول دار الأرقم بن أبي الأرقم التي اتخذت مركزاً للدعوة سرا إلى الإسلام ولا تزال بمكة إلى اليوم .

وكانت هذه الدار على جبل الصفا يؤمها الحجيج والغرباء . وتعد الفترة التي قضاها الرسول في هذه الدار فترة هامة في تاريخ الدعوة إلى الإسلام بمكة ، حتى إن كثيرا من المسلمين يورثون دخولهم إلى الإسلام ، من تلك الأيام التي كان الرسول يبيت فيها الدعوة بدار الأرقم . روى أن أمه لما علمت بإسلامه قالت له : « والله لا يظلني سقف من الحر والبرد ، وإن الطعام والشراب عليّ حرام حتى تكفر » .

كان عبد الرحمن من السابقين إلى الإسلام ، من أمثال عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبي وقاص ، وغيرهم من مشاهير الصحابة الذين يعتز بهم الإسلام . فلما أسلم سماه الرسول عبد الرحمن .

ولما رأى الرسول ما أصاب أصحابه من البلاء قال لهم : لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد ، وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه . وقد هاجر عشرة رجال وأربع نسوة ، ثم زاد عددهم حتى بلغ ثلاثة وثمانين رجلا وسبع عشرة امرأة سوى الصبيان ، وكلهم من بطون قريش . وكان فيهم عثمان بن عفان وزوجه رقية بنت الرسول ، والزبير بن العوام ، وجعفر ابن أبي طالب وامراته أسماء بنت عميس ، وعمرو بن سعيد بن العاص ، وأخوه خالد بن سعيد ، وعبد الرحمن بن عوف .

من هذا يتبين كيف أن عبد الرحمن بن عوف ، ذلك التاجر الثرى القرشي النسب ، قد أتى إلا أن يفر بدينه غير هيب ولا وجل ، غير مبال بما يناله من إيذاء على يد قريش ، إيذاء في نفسه وولده وماله . إذ لا شك أن ذلك قد أصاب تجارته بالبوار . وكانت هجرته هذه تضحية عظيمة في سبيل هذا الدين الجديد . ثم عاد عبد الرحمن إلى مكة مع من عاد إليها من المهاجرين ، حتى أذن الله للرسول صلى الله عليه وسلم أن يهاجر إلى يثرب بنفسه وبأصحابه ، فخرج عبد الرحمن إلى المدينة مهاجرا . فلما أراد الرسول أن يؤلف بين المهاجرين والأنصار حتى يصبحوا بنعمة الله إخوانا ، ألف بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع

وقد استطاع عبد الرحمن أن يفوز برضى الرسول الكريم، فوثق به لأمانته وإخلاصه واستقامته، حتى إنه صلى الله عليه وسلم صلى خلفه وهو في أحد سفراته ركعة من صلاة الصبح. ثم ائتمنه على أهل بيته. فقد روى عن سفيان ابن عيينه عن ابن أبي نجيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن الذي يحافظ على أزواجى من بعدى هو الصادق البار، فكان عبد الرحمن بن عوف يخرج بهن ويحج معهن ويجعل على هواجهن الطيالة، وينزل بهن في الشعب الذي ليس له منفذ. كما أخرج الحرث بن أبي أسامة عن علي بن أبي طالب قال: عبد الرحمن أمين في السماء وأمين في الأرض.

اشترك عبد الرحمن بن عوف في غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم، فشهد بدرًا وشهد أحدًا، وأبلى فيها البلاء الحسن، حتى قيل إنه جرح واحدًا وعشرين جرحًا وأصيب في رجله. وهكذا أنفق عبد الرحمن ما له ودمه في سبيل الدعوة الإسلامية وإعلاء كلمة الدين.

ولما آلت الخلافة إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه قدر عبد الرحمن بن عوف حق قدره، لما عرفه من أمانته وإخلاصه وحسن بلائه في الجهاد. فاستخلفه على الحج في السنة التي ولى فيها الخلافة. وإذا عرفنا أن عمر بن الخطاب كان من أشد الخلفاء محافظة على الدين وأكثرهم توفيقًا في اختيار الرجال، عرفنا كيف أن اختيار عبد الرحمن كان يرجع إلى ما تحلى به من الفضائل الكريمة والأخلاق القويمة. ولما طعن أبو لؤلؤة عمر بن الخطاب دخل عليه نفر من الصحابة فقالوا له: «يا أمير المؤمنين! لو استخلفت.» قال: من أستخلف؟ لو كان أبو عبيدة بن الجراح حيا لاستخلفته؛ فإن سألتى ربى قلت: سمعت نبيك يقول: إنه أمين هذه الأمة؛ ولو كان سالم مولى ابى حذيفة حيا استخلفته، فإن سألتى ربى قلت: سمعت نبيك يقول ان سالما شديد الحب لله. فقال: رجل أدلك عليه، عبد الله بن عمر. فقال عمر: قاتلك الله والله ما أردت الله بهذا، لا أرب لنا في أموركم، ما حدثها لأرغب فيها لأحد من أهل بيتى. بحسب آل عمر أن يحاسب منهم رجل

واحد ويسأل عن أمر أمة محمد. وقد خشى أصحاب رسول الله أن يقضى عمر
 نجه دون أن يستخلف أحدا، فذهبوا إليه مرة أخرى وقالوا: يا أمير المؤمنين!
 لو عهدت عهدا، فقال عليكم بهؤلاء الرهط الذي مات رسول الله صلى عليه
 وسلم وهو عنهم راض، وقال فيهم إنهم من أهل الجنة: علي بن أبي
 طالب، وعثمان بن عفان، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، والزيبر
 ابن العوام، وطلحة بن عبيد الله، وعبد الله بن عمر، علي ألا يكون له من الأمر
 شيء. وأوصى بأن تكون الخلافة للرجل الذي يقع عليه الاختيار من الفريق
 الذي في صفه عبد الله بن عمر في حالة تساوي الأصوات. فإن لم يرضوا بحكم
 عبد الله بن عمر، فليكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف. فانظر مبلغ
 ثقة عمر بن الخطاب، في أمانة هذا الصحابي الجليل ونزاهته!

ثم مات عمر فاجتمع هؤلاء الستة من رجال الشورى في بيت المسور بن مخرمة
 إلا طلحة فإنه كان غائبا. ولكن سرعان ما ظهر فيهم التنافس، فقال لهم أبو طلحة
 الانصاري: «أنا كنت لأن تدفعوها أخوف مني لأن تنافسوها. ولكن عبد
 الرحمن بن عوف أخرج الناس من هذا المأزق، فحقن دماء المسلمين إذ قال لهم:
 أيكم يخرج نفسه منها ويتقلدها على أن يوليها أفضلكم؟ فأنا أخلع منها نفسي، فرضى
 القوم بذلك وعلى ساكت، فقال له: ما تقول يا أبا الحسن؟ قال: أعطني موثقا
 لتؤثرن الحق، ولا تتبع الهوى، ولا تخص ذارح لرحمه، ولا تأل الأمة.
 فقال: أعطوني موثيقكم على أن تكونوا معي على من بدل وغير، وأن
 ترضوا من اخترت لكم على ميثاق الله ألا أخص ذارح ولا آل المسلمين.
 فأخذ منهم ميثاقا وأعطاهم مثله، ثم أخذ يستشير الصحابة وأمراء الأجناد وأشرف
 الناس فيمن يصح أن يختار خليفة من بين هؤلاء. ثم ظهرت بوادر الانقسام
 بين أنصار علي وأنصار عثمان، فقال سعد بن أبي وقاص: يا عبد الرحمن! افرغ قبل
 أن يفتتن الناس، فقال عبد الرحمن: إني قد نظرت وشاورت فلا تجعلن أيها الرهط
 على أنفسكم سبيلا، ودعا عليا فقال له: «عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب

الله وسنة رسوله وسيرة الخليفين من بعده ، قال : أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ
عليه وطاقتي . ثم دعا عثمان فقال : نعم ! فبايعه . وبذلك نال عثمان الخلافة ،
فقال عليّ لعبد الرحمن : « لقد حبوته حبو دهر ، ليت هذا أول يوم
تظاهرتم فيه علينا ، فصبر جميل ، والله المستعان على ما تصفون ، والله ما وليت
عثمان إلا ليرد الأمر إليك ، والله كل يوم هو في شأن .

والواقع أن الأمر كاد يتم لعليّ لولا أنه لم يتمش مع عبد الرحمن بن عوف بأن
يسير على ماسنه أبو بكر وعمر ، وأراد أن يعمل بمبلغ عليه فصرفت عنه الخلافة
إلى عثمان . ومع ذلك فإن عبد الرحمن انصرف إلى شئونه الخاصة ، ولم يشترك في
الأحداث السياسية التي وقعت في عهد عثمان .

روى الزبير بن بكار قال : كان عبد الرحمن بن عوف أبيض أعين ، أهدب ،
أقى ، له جمّة أسفل من أذنيه ، حسن الوجه دقيق البشرة لا يخضب .
وقد جمع عبد الرحمن من تجارته الواسعة مالا كثيرا ، فابتنى داره ووسعها ،
وكان على مربطه مائة فرس ، وله ألف بعير وعشرة آلاف من الغنم ، حتى إن
ربع ثمن ماله بلغ أربعة وثمانين ألفا بعد وفاته . ولكن عبد الرحمن كان برغم
ذلك الثراء الطائل ، من أندى الناس يدا ، وأكثرهم سخاء ، واشدهم برا بالفقراء
والمعوزين وأبناء السبيل . فضرب بذلك أروع الأمثال في بر الاغنياء بالفقراء
ومساعدة الموسرين لإخوانهم المحتاجين والمعوزين . فكان في عهد الرسول صلى
الله عليه وسلم يشطر ماله ، ويتصدق به على الناس ، حتى أنه تصدق مرة بأربعين ألف
دينار ، وقد حمل ماله على خمسمائة فرس في سبيل الله وخمسمائة راحلة .

وكان عبد الرحمن يعتق الرقاب ؛ أعتق في يوم واحد ثلاثين عبدا . وبلغت
جملة ما أعتقه ثلاثين ألف نسمة . وكان — مع كثرة ماله — يخشى المال ويكرهه
ويبرأ منه . روى أنه بكى مرة بكاء شديدا ، فسئل عن بكائه فقال : إن مصعب بن
عمير كان خيرا مني ؛ توفي على عهد رسول الله ولم يكن له ما يكفن فيه ، وإن حمزة
ابن عبد المطلب كان خيرا مني ، لم نجد له كفنا . وإني أخشى أن أكون ممن عجلت

له طبيباته في حياة الدنيا ، وأخشى أن احتبس عن أصحابي بكثرة مالي .
 كان عبد الرحمن أكثر الناس إحساسا بآلام المحتاجين وما يعانيه الساعبون
 الجائعون . فقد روى نوفل بن إياس قال : كان عبد الرحمن بن عوف لنا جليسا
 ونعم الجليس ، وأنه انقلب بنا ذات يوم حتى دخلنا منزله ودخل فاغتسل ، ثم خرج
 فجلس معنا ، فاتينا بقصعة فيها خبز ولحم . ولما وضعت بكى عبد الرحمن بن عوف
 فقلنا له : ما يبكيك يا أبا محمد ؟ قال : مات الرسول ولم يشبع هو وأهل بيته من
 خبز الشعير ، ولا أرانا آخرنا لما هو خير لنا .

وروى أيضا أنه دخل على أمه فقال : يا أمه ! قد خفت أن يهلكني كثرة مالي ، أنا
 أكثر قریش إلا . قالت : يا بني ! أنفق فإنى سمعت الرسول صلى الله عليه وسلم يقول : إن
 من أصحابي من لا يراني بعد أن أفارقه . فخرج عبد الرحمن فلقى عمر وأخبره ، فجاء
 عمر فدخل عليها فقال : بالله منهم أنا ؟ فقالت : لا والله ولن أبرى أحدا بعدك أبدا .
 كان عبد الرحمن مثاليا في كل شيء . كان غنيا كريما بارا رحيفا . وكان مسلما ورعا
 تقيا ، وكان مهاجرا سباقا ومجاهدا بماله ودمه ، كما كان أمينا ؛ ائتمنه الرسول صلى الله
 عليه وسلم على آل بيته ، فكان بارا بهم رحيفا عليهم ، كما كان زاهدا متقشفا مع ثرائه
 العريض . وكان يصلي قبل الظهر صلاة طويلة ، فإذا سمع الأذان شد عليه ثيابه وخرج .
 كان عبد الرحمن بن عوف متفقا في الدين ، بصيرا بالكتاب والسنة . فكان
 في عهد الرسول يفتى بين الناس . وقد عرف الصحابة له مكانته وقدره حق قدره ،
 فولاه عمر بن الخطاب على الحج في السنة التي ولي فيها الخلافة كما تقدم . وكان
 يرجع إليه في أخذ الجزية من المجوس .

ومات هذا الصحابي الجليل سنة إحدى وثلاثين بعد أن عاش اربعا وسبعين
 سنة ، ودفن بالبقيع ، وصلى عليه عثمان والزبير بن العوام . فرحم الله عبد الرحمن
 ابن عوف ، وطيب ثراه ، وجعل الجنة مشواه . .

١٨ عبد الله بن مسعود

« الامام الرباني وصاحب الرسول وخادمه »

كان عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب بن شميخ بن مخزوم من بني هزيل إمام
المحدثين ، وشيخ القراء ومن أقرب الناس إلى قلب الرسول الكريم ، حق لقد كان
يُعرف بصاحب السواد والسواك . وهو سادس من دخل في الإسلام ، وأول
من جهر بالقرآن بمكة .

كان أبوه مسعود بن غافل حليف عبد الله بن الحارث بن زُهرة ، وأمه أم عبد
بنت عَبْدِود بن سواد من بني هذيل أيضا . وكان عبد الله بن مسعود يُعرف
بابن أم عَبْدِود .

من ذلك ترى أن عبد الله نشأ من أبوين فقيرين ، من أحلاف قريش ، وهم
من المستضعفين الذين كان يلوذون بالقبائل الكبرى التماسا لحماية أنفسهم من
اعتداء القبائل الأخرى .

ثم انبثق نور الإسلام وبعث محمد صلى الله عليه وسلم مبشرا ونذيرا ، وبسط
حمايته على المستضعفين والفقراء ، وآمن به الناس . وكان عبد الله الحليف
المستضعف من لبي دعوة الرسول الكريم . ويروى عن سبب إسلامه أنه كان
يرعى الغنم ، فمر به الرسول ، ومعه أبو بكر الصديق ، فقال : يا غلام ! هل معك
من لبن ؟ فقال : نعم ! ولكني مؤتمن . فقال : اتقني بشاة لم ينز عليها الفحل ،
فأتاهوا واحدة ، فاعتقلها الرسول ، وجعل يمسح الضرع ويدعو حتى أنزلت ، فمالت
إناء فشرب أبو بكر ثم شرب الرسول ، ثم قال الرسول للضرع : اقلص فقلص ،
فعاد كما كان . فقال له الغلام عبد الله : يا رسول الله ! علمني من هذا الكلام ، فسح
رأسه وقال : إنك غلام مُعَلَّم .

كان إسلام عبدالله بن مسعود حدثا خطيرا غير مجرى حياته ؛ فقد ضمه
 الرسول الكريم ، وقرّبه إليه ، حتى كان يدخل داره دون حجاب ، فيلبس
 فعليه ويمشي معه، ويستتره إذا اغتسل ويوقظه إذا نام . وقد أحبه الرسول صلى الله
 عليه وسلم ووثق به ، حتى لقدروى أنه قال : رضيت لأمتي ما رضى لها ابن أم عبد ،
 وسخطت لأمتي ما سخط لها ابن أم عبد . وقال في حديث آخر : تمسكوا بعهد ابن أم
 عبد ، ثم قال : رجل عبدالله في الميزان أثقل من أحد ، أعنى أن رجل ابن مسعود
 تعدل ثواب غزوة أحد .

وقد شارك عبدالله بن مسعود الرسول في السراء والضراء ، فلقى مالقي من
 اضطهاد وتعذيب ؛ فلما هاجر المسلمون إلى الحبشة فرارا بأنفسهم وبدينتهم من
 بطش قريش ، هاجر معهم عبدالله بن مسعود . وقد عرف بين أصحابه بقوة الإيمان
 والجرأة في الحق ، حتى قيل إنه كان أول من جهر بالقرآن بمكة بعد رسول الله صلى
 الله عليه وسلم . فقد اجتمع أصحاب الرسول يوما وقالوا : والله ما سمعت قريش
 هذا القرآن يُجهر لها . فَمَنْ رَجُلٌ يُسْمِعُهُمْ؟ فقال عبدالله : أنا . فقالوا : إنا
 نخشاهم عليك ، إنما نريد رجلا له عشيرة تمنعه من القوم إن أرادوه فقال :
 دعوني إن الله سيمعني . فغدا حتى أتى قريشا في أنديةها وقال رافعا صوته :
 بسم الله الرحمن الرحيم : علم القرآن . فاستقبلها فقرا بها ، فتأملوا وجعلوا يقولون :
 ما يقول ابن أم عبد ، ثم قال إنه ليتلو بعض ما جاء به محمد ، فجعلوا يضربون في
 وجهه وهو يقرأ حتى بلغ منها ماشاء الله أن يبلغ ، ثم انصرف إلى أصحابه فقالوا :
 هذا الذي خشينا عليك ، فقال : ما كان أعداء الله قط أهونَ عليّ منهم الآن ، ولئن
 شتم غاديتهم بمثلها ، فقالوا : حسبك قد اسمعتمهم ما يكرهون .

بهذه الروح اشترك عبد الله بن مسعود في الأحداث الكبرى التي وقعت في
 عهد الرسول ، فهاجر إلى المدينة ، وآخى النبي بينه وبين الزبير بن العوام وبين سعد
 ابن معاذ . وهذا يدل على مبلغ تقدير الرسول الكريم إيمان عبد الله ومكانته
 من المسلمين .

اشترك عبد الله بن مسعود في غزوات الرسول ، فشهد بدرًا وأحداً والخندق وبيعة الرضوان وسائر المشاهد، وهو الذي قتل أبا جهل أعدى أعداء الإسلام . روى أنه قال : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر، فقلت يا رسول الله ! إنى قتلت أبا جهل . قال : بالله الذي لا إله غيره ، لَسَّيْنُ قَتَلْتَهُ ؟ قلت : نعم ، فاستخفه الفرخ ، ثم قال : انطلق فأرنيه : قال : فانطلقت معه حتى قمت به على رأسه ، فقال : الحمد لله الذي أخزأك ! هذا فرعون هذه الأمة ، فنفلني رسول الله صلى الله عليه وسلم سيفه .

ثم انتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جوار ربه ، وعبد الله بن مسعود أقرب الناس إلى قلبه . فقد قال الرسول : لو كنت مؤمراً أحداً بغير مشورة لأمرتُ ابن أم عبد . وعن عبد الرحمن بن زيد النخعي قال ، أتينا حذيفة ، فقلنا : حدثنا بأقرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم هدياً ودلاً نلقاه فنأخذه عنه . قال : كان أقرب الناس هدياً ودلاً وسمتاً برسول الله ابن مسعود .

كان عبد الله بن مسعود من كتاب الوحي في عهد الرسول الكريم ، حتى لقد قال : إنه أخذ من الرسول سبعين سورة ما نازعه فيها أحد . ووثق الرسول بروايته حتى لقد قال : استقرتوا القرآن من أربعة نفر ، وبدأ بعبد الله ابن مسعود . كما قال أيضاً : من سره أن يقرأ القرآن غصاً كما أنزل ، فليقرأه على قراءة ابن أم عبد . ولا عجب إذا أصبح عبد الله بن مسعود شيخ القراء وإمام المحدثين .

تمتع عبد الله بن مسعود في عهد أبي بكر وعمر رضي الله عنهما بمثل ما كان يتمتع به في عهد الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام . فلما أراد عمر أن يبعث إلى الكوفة بامام يعلم الناس ، اختار عبد الله بن مسعود وقال : إنى قد بعثت إليكم بعمار بن ياسر أميراً وعبد الله معلماً ووزيراً ، وهما من النجباء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل بدر ، فاقتدوا بهما واسمعوا من قولهما . ولما ولي عثمان بن عفان الخلافة بقي عبد الله بن مسعود في الكوفة ، يقرأ

القرآن ويروى الحديث ويُعلم الناس ، حتى أحبّ عثمان أن ينسخ المصحف تلافياً لما قد يجر إليه التهاون في هذا الأمر الخطير من العواقب السيئة . وسرعان ما أرسلت حفصة بنت عمر المصحف إلى عثمان لتنسخ منها عدة نسخ لإرسالها إلى الأمصار ، وقام بهذا العمل زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام .

ويظهر أن إغفاله أمر ابن مسعود ، برغم أنه أكبر من زيد سناً ، وأرفع مقاماً ، قد أثار غضب عبد الله ، فوقف في الناس خطيباً وقال : أيأمروني أن أقرأ القرآن على قراءة زيد بن ثابت ؟ والذي نفسي بيده لقد أخذت من في رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعين سورة ، والله ما نزل من القرآن شيء إلا وأنا أعلم في أي شيء ، وما أحد أعلم بكتاب الله مني ، ولو أعلم أحداً تبلغنيه الإبل أعلم بكتاب الله مني لأتيته ! فبعث عثمان إليه يأمره بالخروج إلى المدينة ؛ وأحب أعداؤه أن يستغلوا هذا الأمر لمقاومة عثمان ، ولكن عبد الله نزه نفسه عن ذلك ، وأنى إلا أن يطيع الخليفة عثمان قائلاً : «إنها ستكون أمور وفتن لأحب أن أكون أول من فتحها» ! ثم ذهب إلى المدينة وظل يحترم عثمان حتى مات . وبذلك نزه عبد الله ابن مسعود نفسه عما انزلق إليه غيره من الصحابة .

كان عبد الله بن مسعود من أئمة المسلمين في القرآن وأرواهم للحديث . روى الحديث عن الرسول ، وعن عثمان بن عفان وعلى بن أبي طالب وغيرهما من جلة الصحابة . واشتهر من الصحابة بالفتيا في عهد الرسول مائة وواحد وثلاثون رجلاً وامرأة ، نبغ منهم سبعة ، هم : عمر بن الخطاب ، وعلى بن أبي طالب ، والسيدة عائشة ، وعبد الله بن مسعود ، وزيد بن ثابت ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عمر . وقد ظهرت للقراءات سبع طرق ، كل طريقة منها تمثلها مدرسة معترف بها ، ترجع قراءتها إلى إمام ، وتستند إلى أحاديث موثوق بها . ويرجع أكثر الاختلاف في القراءات إلى قراء موثوق بهم عاشوا في القرن الأول ، كعبد الله بن عباس ، وعائشة ، وعثمان بن عفان ، وإلى قراء معترف بهم ؛ كعبد الله بن مسعود ، وأبي بن

كعب . وكان لعبد الله بن مسعود طريقة خاصة في قراءة القرآن تختلف عن طريقة زيد بن ثابت ، وعن طريقة أبي موسى الأشعري .

وقد تجلّى اختلاف هذه القراءات في الكوفة ، فغضب حذيفة بن اليمان عامل عثمان ، وسار إلى الخليفة ، وأخبره بما رأى وقال : أنا النذير العريان ، فأدركوا الأمة . فجمع عثمان الصحابة ، وأخبرهم بما سمع ، فأعظموه ورأوا ما رأى حذيفة ، فبعث عثمان إلى حفصة بنت عمر أن أرسلني إلينا بالصحف ننسخها . وكانت هذه الصحف هي التي كتبت في أيام أبي بكر بمشورة عمر رضي الله عنهما .

مات عبد الله بن مسعود سنة اثنتين وثلاثين للهجرة ، ودفن بالبقيع وصلى عليه عثمان ، وكان قد جاوز الستين بقليل ، وطويت حياة علم من أعلام الإسلام ، وكاتب الوحي ، وإمام القراء ، وأحب المسلمين إلى قلب الرسول .

كان عبد الله بن مسعود حاضر البهية ، ذرب اللسان ، قوى الحجّة . روى عن سعيد بن جبير عن أبي الدرداء قال : خطب النبي صلى الله عليه وسلم خطبة خفيفة ، ثم قال : قم يا أبا بكر ! فقام فخطب فقصر دون النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : قم يا عمر فاخطب ! فخطب ، فقصر دون أبي بكر ، ثم قال : قم يا فلان فاخطب ! إلى أن قال : قم يا ابن أم عبد فاخطب ! فقام عبد الله بن مسعود ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أيها الناس ! إن الله ربنا وإن الإسلام ديننا ، وإن هذا نبينا ، وأومأ بيده إلى النبي صلى الله عليه وسلم . رضينا ما رضى الله لنا ورسوله ، السلام عليكم . » فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : أصاب ابن أم عبد ، صدق ابن أم عبد .

وكان عبد الله بن مسعود قصيراً نحيفاً ، يكاد طوال الرجال يوازيه جلوساً وهو قائم . ولكن ذلك لم ينقص من قدره ، بل رفعه عليه وإيمانه وجهاده إلى مصاف الشهداء الأبرار .

وإن تاريخ عبد الله بن مسعود ليمثل الديمقراطية الإسلامية الحق التي
ترفع العبد والخليف إلى مصاف السادة والأشراف . وكلمة من شريف حسد
عبد الله الخليف على مكانته من نفس الرسول . مات مَرَضِيّاً عليه ، فكان
من الصديقين والأبرار .

١٩ - أبو ذر الغفاري

رحم الله أبا ذر ، يمشى وحده ، ويموت وحده ،
ويبعث وحده .

كان أبو ذر في طليعة العرب الذين آمنوا بالرسول الكريم وصدقوه ، وكانت حياته مثلاً من أروع الأمثلة التي تصور تسامح الإسلام وعدالته .

ينتسب أبو ذر مجندب بن جنادة بن قيس بن عمرو بن مليل بن صعير بن حرام الغفاري (١) إلى قبيلة غفار . وأمه رملة بنت الوقيعة من بني غفار التي كانت تقيم في طريق تجارة قریش إلى بلاد الشام . وكانت مكة - كما نعلم - مركزاً للتجارة بين اليمن والحبشة والشام .

كان أبو ذر من السابقين إلى الإسلام ، حتى قيل إنه كان رابع من أسلم من الرجال (٢) . وقد روى في قصة إسلامه أنه لما بلغه مبعث الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام ، قال لأخيه : اركب إلى هذا الوادي ، فاعلم لي علم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي يأتيه الخبر من السماء واسمع من قوله ثم ائتني . فانطلق أخوه حتى قدم على الرسول وسمع قوله ، ثم عاد إلى أبي ذر فقال له : رأيتك يا مبرمكارم الأخلاق ، ويتكلم كلاماً ما هو بالشعر . فقال أبو ذر : ما شفيتني مما أردت ثم قدم مكة ودخل المسجد الحرام ، فلما أدركه الليل اضطجع بالمسجد ، ثم تبع علي بن أبي طالب حين رآه ، ولم يسأل واحداً منهما صاحبه عن شيء حتى أصبح ، فعاد

١ - وقيل جنذب بن جنادة بن سفيان بن عبيد بن حرام بن غفار بن مليل بن ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة بن خزيمعة بن مدركة الغفاري .

٢ - وفي رواية أخرى أنه كان خامس من أسلم .

أبو ذر إلى المسجد وظل به طيلة النهار . ولما أتى المساء عاد إلى مضجعه ، فمر به علي فقال له : أما آن للرجل أن يعلم منزله ؟ فسار معه لا يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء إذا ، حتى كان اليوم الثالث ، فعل أبو ذر مثل ما فعله في اليومين السابقين ، فأقامه علي وقال له : ألا تحدثني ما الذي أقدمك ؟ قال : إن أعطيتني عهداً وميثاقاً لترشدني فعلت . ففعل ، فأخبره ، ثم قال له علي : إنه حق ، وإنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا أصبحت فاتبعني ، فإني إن رأيت شيئاً أخاف عليك ، قمت كأني أريق الماء ، فإن مضيت فاتبعني حتى تدخل مدخلي ، ففعل . فانطلق يرفوه حتى دخل على النبي صلى الله عليه وسلم ، فدخل معه ، وسمع من قوله ، وأسلم مكانه . فقال له النبي : ارجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتوك أمرى . فقال أبو ذر : والذي نفسي بيده لأصرخن بها بين ظهرانيهم ، فخرج حتى أتى المسجد فنادى بأعلى صوته : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله . فقام القوم إليه فضربوه حتى أضجعوه ، وأتى العباس فدفع عنه أذاهم وقال : ويلكم أستم تعلمون أنه من غفار ، وأنه طريق تجاركم إلى الشام ؟ ثم عاد أبو ذر من الغد لمثل ما فعل ، فضربوه ، فأنقذه العباس منهم .

لم يكن أبو ذر من المهاجرين الأولين إلى المدينة ، بل ظل بمكة حتى وقعت غزوات بدر وأحد ، ثم لحق بالرسول عليه أفضل الصلاة والسلام ، وبلغ من ثقة الرسول به أن ولاه المدينة مرتين : الأولى حين غزا نجداً في السنة الرابعة للهجرة ، يريد بنى مُحارب وبنى نعلبة ، والثانية في السنة السادسة للهجرة ، حين غزا بنى المصطلق بن خزاعة من حلفاء بنى مُدْج ، على مقربة من قديد الواقعة على طريق المسافر من مكة إلى المدينة .

ولما عول الرسول على غزو الروم وتوطيد نفوذه في شمال الحجاز في السنة التاسعة للهجرة ، وجد تشاقلاً من بعض أصحابه ، وتخلف عنه المنافقون بزعامه عبد الله بن أبي . وكان أبو ذر من الصحابة الذين رافقوا الرسول في غزوة تبوك على بعد اثني عشر فرسخاً من المدينة . فلما خرج الرسول من ثنية الوداع

من ثنية الوداع ، صار يتخلف الرجل من أصحابه فيقول المسلمون: يا رسول الله! تخلف فلان ، فيقول: دعوه ، فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم ، وإن يك غير ذلك أراحكم الله منه . وتلوّم أبو ذر على بعيره ، فلما أبطأ أخذ متاعه ، فحمله على ظهره ، ثم خرج يتبع رسول الله ماشيا ، ونزل الرسول في بعض منازلها ، فنظر أحد المسلمين فقال: يا رسول الله! إن هذا الرجل يمشى على الطريقتين وحده ، فقال الرسول: كن أباذر . فلما تأمله القوم قالوا: يا رسول الله! هو والله أبو ذر، فقال الرسول: « رحم الله أباذر! يمشى وحده ، ويموت وحده ، ويبعث وحده . » فأخبره خبر بعيره ، فقال: إن كنت لمن أعز أهلي على تخلفا ، لقد غفرا الله لك بكل خطوة ذنبا إلى أن بلغتني .

لم يساهم أبو ذر الغفاري في الفتوح العربية التي تمت في عهد أبي بكر وعمر ، وبلغ من علو منزلته أن عمر لما أخذ في توزيع العطاء على المسلمين ، ألحقه بمن شهد بدرآ ، على الرغم من أنه لم يشترك فيها . وقيل إن أباذر ظل بالمدينة حتى استخلف عمر ، فخرج إلى الشام ، والتحق بديوانها ، وكان يتردد على المدينة ، ويتخلف بها ، إلى أن ولي عثمان بن عفان الخلافة .

رأى أبو ذر عثمان يعطى مروان بن الحكم مالا كثيرا ، ويمنح أخاه الحارث ثلاثمائة ألف درهم ، ويعطى زيد بن ثابت الأنصاري مائة ألف درهم ؛ فأنكر ذلك ، وعبر عن استيائه بقوله: بشر الكافرين بالنار ، وصار يتلو قول الله تعالى في سورة التوبة: (والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم) . ولما سمع مروان قول أبي ذر شكاه إلى الخليفة ، فأرسل إليه مولى له ينهاه عن قوله ، فلم يؤبه أبو ذر وقال: أئيناني عثمان عن قراءة كتاب الله ؛ لأن أَرْضَى الله بسخط عثمان أحب إلى من أن أَرْضَى عثمان بسخط الله . واستمر أبو ذر في نقد سياسة عثمان الذي أمره بالرحيل إلى الشام ، حيث وجه حملاته على سياسة عثمان وسياسة معاوية واليه على هذه البلاد .

ولم يكن أبو ذر في سخطه وإنكاره على سياسة عثمان ، إلا معبرا عن آراء كثير

من المسلمين الذين أخذوا على عثمان ، أنه سمح لكبار الصحابة بالخروج إلى الأقاليم ، وامتلاك الضياع فيها ، وبدأت الثروات التي تدفقت على المدينة ومكة تفعل فعلها في نفوس العرب ، فتغريهم بالاستمتاع بها ، استمتاعا دفع بعضهم إلى حياة البذخ والترف ؛ فانتشر في المدينة بعض ضروب من اللهو ، واضطر عثمان إلى الضرب على أيدي أصحابها ، ونفى بعضهم عن المدينة ، فتدمروا وتدمر ذوهم وذوو فريق من الصحابة ، كعبد الله بن مسعود ، وأبي ذر الغفاري وعمار بن ياسر

هذا في المدينة ، وهي حاضرة الدولة العربية وقلبها النابض . أما في الولايات الإسلامية فقد وجد إلى جانب هؤلاء المنفيين المتدمرين من عثمان طبقة من الشعب ، هما : طبقة الأرسقراطيين ، وطبقة المقاتلين . أما طبقة الأرسقراطيين أصحاب الثروات الضخمة التي أوجدها عثمان فقد أباح لأفرادها أن يملكوا الضياع ويشيدوا القصور في الولايات الإسلامية كالعراق والشام ومصر ، كما سمح لهم أن يستبدلوا بأملأهم في الحجاز أملاكاً في الأماص . وقد أنشأ هؤلاء القوم أرسقراطية دينية ، سداها المال ، ولحمها السبق في الإسلام وصحبة الرسول . ومن تلك الثروات التي وصفها المؤرخون ، نستطيع أن نتصور عدد من يحيطون بهذه الشخصيات الغنية ، مفتونين بما يفيضه عليهم هؤلاء الأغنياء من هبات وأعطيات . وكان نفر من هؤلاء الموسرين يتمنى أن يلي الخلافة واحد منهم ، لتكون لهم الحظوة ويعلو مقامهم . كما وجدت طبقة أخرى فقيرة معدمة أنشأها عمال عثمان الذين استأثروا بالفرض والغنائم لأنفسهم ، وحرموا المقاتلة ، مدعين أن النية لله ، وأنه ليس للمحارب إلا أجر قليل يدفع إليه . فلما رأى هؤلاء المحاربون ، وجلهم من البدو ، هذا الثراء الفاحش ، قد استأثر به الولاة والقواد من قريش ، حقدوا عليها ، وتمنوا الخلاص من سيادتها ، وأعلنوا أن النية والغنائم لهم ، وأنها ليست للحكومة ، وأن المال مال المسلمين وليس مال الله . من هذا يتبين أن حالة الدولة الإسلامية قد تغيرت . وقد أثار هذا التغيير روح المعارضة لسياسة الحكومة والإستياء من تصرفاتها ، وأثار التمرد عليها في المدينة

وفي جميع الأمصار الإسلامية .

وهكذا كان الجور ملائماً تمام الملاءمة ومهيئاً لدعوة عبد الله بن سبأ ومن لفت لفته ، والتأثر بها إلى أبعد حد .

وقد أذكى نيران هذه الثورة صحابي قديم ، اشتهر بالورع والتقوى ، وعرف بالزهد في عرض الدنيا ومتاعها . هو أبو ذر الغفاري ، وكان أبو ذر من أهل الصفة من الفقراء ، ولا يبعد أن يكون لهذا أثره في ميوله الاشتراكية . وقد وفد ابن سبأ إلى الشام ، وحرص أبا ذر على معاوية وقال له : « يا أبا ذر ! ألا تعجب إلى معاوية يقول : المال مال الله ، ألا إن كل شيء لله ، كأنه يريد أن يحتججه دون المسلمين ، ويمحو اسم المسلمين (أي من ديوان العطاء) ؟ » .

لهذا لا نعجب إذا رأينا أبا ذر يعلن استيائه من سياسة معاوية ، ويحض الأغنياء تلى الرحمة بالفقراء ، وعلى الإقلاع عن ادخار الأموال وكنزها ، محتجاً بقوله تعالى : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تسكنون » .

كما لا نعجب أيضاً إذا ألفينا الفقراء يلتفتون حول أبي ذر ، ويسئنون إلى الأغنياء ، حتى شكوا ذلك إلى معاوية . فلما رفع الأمر إلى الخليفة عثمان ، أيقن أن الفتنة قد أخرجت خَطْمَهَا (١) وعينها .

بعث عثمان في طلب أبي ذر . فلما دخل المدينة ، ووجد الاجتماعات تعقد بها للتآمر على عثمان ، نادى في المجتمعين : بشر أهل المدينة بغارة شعراء وحرب من ذكر . ومضى أبو ذر في دعوته الاشتراكية ، والطعن على عثمان حتى ضاق به ، فأذن له الخليفة بالإقامة في الربذة ، وهي قرية صغيرة على مقربة من المدينة ، أو نفاه إليها ، ولكنه واصل حملاته العنيفة على سياسة عثمان إلى أن مات في سنة ٥٣١ هـ .

(١) الخطم : مقدم الأنف والقم من الدابة والمراد هنا: بدأت أرائل الفتنة .

كان أبو ذر من جلة أصحاب الرسول ، ومن السابقين الأولين إلى الإسلام . وقد عرف بالتفقه في الدين ورواية الحديث . قال علي بن أبي طالب ، الذي كان يقدره قدره ، حتى إنه شيعه حين خرج إلى الربذة ، وأثار بذلك غضب الخليفة عثمان بن عفان : « وعى أبو ذر علما عجز الناس عنه ، ثم أركأ عليه فلم يخرج منه شيئا » . وروى عنه كثير من الصحابة ، كأئس بن مالك ، وعبدالله بن عباس ، وأبي أدريس الخولاني . ولما شيع عليّ أبا ذر وودعه وأراد الانصراف ، بكى أبو ذر وقال : « رحمكم الله أهل البيت ! إذا رأيتك يا أبا الحسن وولدك : ذكرت بكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فشكا مروان بن الحكم إلى عثمان ، فقال عثمان : « يامعشر المسلمين ! من يعذرني من عليّ ؟ رد رسولينا عما وجهته له ، وفعل كذا وكذا ، والله لنعطينه حقه » . فلما رجع عليّ ، استقبله الناس فقالوا : « إن أمير المؤمنين عليك غضبان لتشيعك أبا ذر » ، فقال عليّ : « غضب الخيل على اللجم » ثم جاء . فلما كان بالعشي ، جاء إلى عثمان فقال له : « ما حملك على ما صنعمت بمروان ، واجترأت عليّ ، ورددت رسولينا وأمرينا ؟ » قال : أما مروان فإنه استقبلني يردني ، فرددته عن ردي ، وأما أمرك فلم أركده . قال عثمان : « أولم يبلغك أني قد نهيت الناس عن أبي ذر وعن تشييعه ؟ فقال عليّ : أو كل ما أمرتنا به من شيء يرى طاعة لله والحق في خلافه اتبعنا فيه أمرك ؟ بالله لا نفعل . قال عثمان : « أقيد مروان ؟ » قال : « وما أقيده ! » قال : « ضربت بين أذني راحلته » . قال عليّ : أما راحلتي فهي تلك ، فإن أراد أن يضربها كما ضربت راحلته فليفعل . . . فلما كان من الغد ، واجتمع الناس إلى عثمان ، شكوا إليهم عليا وقال : « إنه يعينني ويظاهر من يعابني » ، يريد بذلك أبا ذر ، وعمار بن ياسر ، فدخل الناس بينهما ، وقال له عليّ : « والله ما أردت تشييع أبا ذر إلا لله » .

وكان الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام ينزل أبا ذر من نفسه منزلة رفيعة ، ويذكر له سبقه إلى الإسلام وتفانيه في نصرته . وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أبو ذر في أمي عليّ زهد عيسى بن مريم » . وروى عنه صلى الله عليه وسلم

أنه قال: « ما أقبَلت الغبراء ولا أظلمت الخضراء ، أصدق لهجة من أبي ذر . »
 « وروى الطبراني « أن رسول الله كان يبتدىء أبا ذر إذا حضر ويتفقده إذا غاب ، »
 وروى عن الرسول أنه قال: « أمرني الله عز وجل بحب أربعة ، وأخبرني أنه
 يحبهم : علي ، والمقداد (بن الأسود) وأبو ذر ، وسلمان . »
 وقد روى أنه لم يكن مع أبي ذر في الربذة إلا امرأته وغلامه ، فلما شعر بدنو
 أجله ، أوصاهما أن اغسلاني وكفناني ، ثم ضعاني على قارعة الطريق . فأول
 ركب يمر بكم فقولوا : هذا أبو ذر صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
 فأعينونا على دفنه . فلما توفي وضعاه على قارعة الطريق ، وأقبل عبد الله بن مسعود
 في رهط من أهل العراق ، فلم يرَهم إلا الجنازة على ظهر الطريق ، قد كادت
 الإبل تطؤها ، وقام إليهم الغلام فقال : هذا أبو ذر صاحب رسول الله صلى الله
 عليه وسلم ، فأعينونا على دفنه . فبكي عبد الله بن مسعود وقال : صدق رسول الله
 صلى الله عليه وسلم : « تمشي وحدك ، وتموت وحدك ، وتبعث وحدك . » ثم نزل
 هو وأصحابه فواروه .

٢٠ - عبد الله بن عمر

ما من أحد أدرك الدنيا إلا مالت به ومال بها غير عبد الله بن عمر

يعد عبد الله بن عمر في طليعة الصحابة ، الذين عرفوا بالزهد والورع وتبحروا في رواية الحديث وتفسير القرآن والتمسك بأهداب السنة القويمة ، حتى لقد قيل فيه : ما من أحد أدرك الدنيا إلا مالت به ومال بها غير عبد الله بن عمر . كما قيل إنه أحد الأعلام في العلم والعمل ، وقيل : هو حبر هذه الأمة لتبحره في العلم ، وقيل : يُقتدى بعمر في الجماعة وبابنه في الفرقة ، أي ما تفرقت كلمة المسلمين وأصبحوا شيعة . وهو ابن عمر بن الخطاب بن نفيل القرشي العدوي ، وأمه زينب بنت مظعون الجمحية ، وأخته حفصة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولد عبد الله سنة ثلاث من البعثة النبوية ، وشب في هذه البيئة المكية المترفة ، وترعرع في ذلك البيت القرشي الكريم ، حتى ألان الله قلب أبيه للإسلام ، وانبثق من قلبه نور الرسالة المحمدية بعد أن كان من ألد أعدائها وأعتى المدافعين لها ، فأسلم ثم أسلم معه ولده عبد الله وهو لم يزل طفلاً صغيراً ، فكان من أول من أسلم من الصبيان . وقد غدا أبوه بعد إسلامه من أشد الناس إخلاصاً لله ورسوله ، كما غدا عبد الله من أكثر الصبيان إخلاصاً لله ورسوله .

شب عبد الله في حجر الفاروق عمر ، فنشأه على خير ما ينشئه المؤمن الحق فلذة كبده ؛ فنبض قلبه بالإخلاص وعمر صدره بالإسلام ، حتى إذا قضى الله أن يهاجر الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة فاراً بدينه ، خرج عبد الله مع المهاجرين وهو في العاشرة من عمره ، بل قيل إنه هاجر قبل أن يهاجر أبوه .

ولما حط عبد الله رحاله في المدينة ، اندمج في الحياة الجديدة التي قامت فيها بعد

الهجرة النبوية . ثم شرع الله الجهاد ، وكتب على المسلمين أن يقاتلوا المشركين دفاعاً عن دينهم ، باذلين النفس والمال دون ذلك . وقد أتى عبدالله وهو لم يزل بعد فتى غض الإهاب إلا أن يبذل دمه فداء للرسول عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام : فقد تطوع للقتال يوم بدر ، فاستصغر الرسول سنه ، فنكص عبد الله على عقبه أسفاً إذ لم تتحقق رغبته في الإندماج في صفوف المسلمين . حتى إذا وقعت غزوة الخندق كان عبدالله قد بلغ الخامسة عشرة من عمره ، وقد شب عن الطوق وبلغ مبلغ الرجال واشترك في القتال ، فطابت نفسه بتحقيق الأمانة التي كانت تجيش فيها . ولما هم المسلمون بفتح مكة ، كان عبدالله بن عمر في طليعة من اشتركوا في القتال من فتية المهاجرين . وكان إذ ذاك في العشرين من عمره .

وقد شاء الله أن يُقبل ذلك الشاب على عهد جديد من تاريخ حياته . فقد شرح الله صدره وعمر قلبه بالإيمان : وكان لا يزال غلاماً يافعاً ، جاءته الهداية في صورة رؤيا رآها وهو نائم في المسجد بعد الصلاة ، قال : رأيت في المنام كأن ملكين أتيا نبي ، فذهبا بي . فقصصت الرؤيا على حفصة ، فقصتها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « نعم الرجل عبدالله لو كان يصلي من الليل . »

وكان عبد الله لا ينام بعد ذلك من الليل إلا قليلاً ، يقضيه متعبداً متبتلاً خاشعاً إلى الله عز وجل .

وقد بلغ من رقة قلب عبدالله بن عمر وشدة حبه لرسول الله ، أنه كان يبكي إذا ذكر اسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإذا مر بمشهد من مشاهدته أغمض عينيه فسحت دموعه . وكان إذا قرأ القرآن بكى حتى غلبه البكاء . هكذا شرح الله صدر عبدالله وهداه ، فأقبل على رواية الحديث وتفسير القرآن حتى برع فيهما في عهد الرسول وبعد وفاته .

ثم قبض أبو بكر الصديق وتمت البيعة لعمر بن الخطاب رضي الله عنهما . ولما طعن عمر بن الخطاب بنحوه شعر بدنو أجله ودخل عليه نفر من الصحابة

رضوان الله عليهم فقالوا له : « يا أمير المؤمنين ! لو استخلفت » قال « ومن أستخلف ؟ لو كان أبو عبيدة بن الجراح حيا لاستخلفته . فقال رجل أدلك عليه ، عبدالله بن عمر ، فقال عمر : « قاتلك الله والله ما أردت الله بهذا ، لا أرب لنا في أموركم . ما حمدتها لأرغب فيها لأحد من أهل بيتي ، بحسب آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحد ويسأل عن أمر أمة محمد . »

ولما خشى أصحاب رسول الله أن يقضى عمر نجه دون استخلاف ذهبوا اليه ، مرة أخرى وقالوا : « يا أمير المؤمنين لو عهدت ! فقال : « عليكم بهؤلاء الرهط الذي مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض ، وقال فيهم إنهم من أهل الجنة : علي بن أبي طالب ، و عثمان بن عفان ، وسعد بن أبي وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، والزيبر بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله ، وعبدالله ابن عمر . »

هذا رأى عمر في ولده عبدالله . ولم يكن ذلك لهوى في نفسه ، إنما كان اعترافا بالأمر الواقع ، اعترافا بما لابنه من علم وفضل وورع وتقى ، مما اضطر بعض الصحابة أن يرشحه للخلافة بعد أبيه . وكان عمر — كما نعلم — أبعد الناس عن الهوى ، كما كان من أكثر الصحابة عدلا وفضلا حتى سمي الفاروق .

هكذا اشترك عبد الله بن عمر في اختيار عثمان ، لم يرشحه إلا عليه وورعه وفضله .

ولما آلت الخلافة إلى عثمان بن عفان لم يغفل ما لعبد الله من فضل وعلم ، بل وثق به وأدناه ، وكان يختاره لمهام الأمور . فلما أصبحت الحالة في البصرة والكوفة ومصر من الحرج بمكان ، اضطر عثمان إلى ندب أربعة من مشاهير الصحابة ليبحثوا عن أسباب هذه القلاقل ويقفوا على حقيقة الحال في الولايات الإسلامية ، فأرسل محمد بن مسلمة إلى الكوفة ، وأسامة بن زيد إلى البصرة ، وعبد الله بن عمر إلى الشام ، وعمار بن ياسر إلى مصر ، وعاد هؤلاء إلى الخليفة إلا عمار بن ياسر الذي استماله الشائرون في مصر .

ثم قتل عثمان واندلعت السنة الفتنه في المدينة وفي مصر وغيرها من الأمصار الإسلامية ، وعولت حفصة بنت عمر على الخروج مع عائشة ، ولكن أخاها عبد الله ثناها عن عزمها . وقد عمل طلحة والزبير على استمالة زعماء البصرة ، واستمالا عبد الله بن عمر فقالا له : يا أبا عبد الرحمن ! إن أمنا عائشة خفت لهذا الأمر رجاء الإصلاح بين الناس ، فاشخص معنا فإن لك بها أسوة ، فان بايعنا الناس فأنت أحق بها . فقال : « أيها الشيخان ! أريدان أن تخرجاني من بيعتي ثم تلقياي بين مخالف ابن أبي طالب ؟ إن الناس إنما يخدعون بالدينار والدرهم ، وإني قد تركت الأمر عيانا في عافية أنا لها . » ثم عاود طلحة والزبير عبد الله بن عمر لعله يعدل عن رأيه الأول ، فلم يكن منه إلا التمسك به ، إذ كان يرى في القعود النجاة والخير ، كما كان يرى في انزواء عائشة المحافظة على كرامتها والإشفاق على المسلمين من أن تتفرق كلمتهم وتذهب ريحهم ؛ إذ يقول لطلحة والزبير : واعلمنا أن بيت عائشة خير لها من هودجها ، وانتما المدينة خير لكما من البصرة ، والذئب خير لكما من السيف ، ولن يقاتل عليا إلا من كان خيرا منه . وأما الشورى فقد والله كانت . فقدما وأخرتما ، ولن يردها إلا أولئك الذين حكموا فيها ، فاكفياي أنفسكما ، ولم يصنع طلحة والزبير لنصح الناصحين .

ولم تكن بيعة عبد الله بن عمر لعلي بن أبي طالب انتقاصا من مقامه أو حطا لكرامته ، إنما كان ذلك بعدا بنفسه عن التيارات السياسية المصطنجة في ذلك الوقت . فقد كان شأنه في ذلك الوقت شأن عبد الله بن عباس ، ينصرف إلى علمه ، يروي الحديث ، ويفسر القرآن في هدوء واطمئنان .

فلما قتل علي وتم الأمر لمعاوية بن أبي سفيان ، سالمه عبد الله بن عمر كما سالمه كثير من أشرف قريش . فوفد عليه عبد الله بدمشق مع الوافدين ؛ فأشركه معاوية في حملة القسطنطينية التي اشترك فيها عبد الله بن عباس وأبو أيوب الأنصاري . ولما أحب معاوية أن يأخذ البيعة لابنه يزيد رفض عبد الله بن عمر أن يقره على

ذلك ، إذ رأى في ذلك خروجاً عن مبدأ الشورى الذى أقره الخلفاء الراشدون ، ولم يُجند تهديد معاوية أو وعيده ولا ذهبه أو فضته نفعاً ، فاستمسك ابن عمر بالسنة والشورى ، ولم يبالي أسخط معاوية أم رضى .

ولما ولي يزيد بن معاوية الخلافة وبعث إلى عامله على المدينة لأخذ البيعة له من المعارضين من أمثال ابن عباس ، وابن عمر ، وابن الزبير ؛ بايعه ابن عمر كما بايعه ابن عباس ، متوخياً سياسة الحكمة التى أخذ نفسه بها لينجو بعلمه من مواطن الزلل .

وقد أخذ عبد الله نفسه مذ وطئت قدماه أرض المدينة المنورة برواية الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وحفظه ، فاشتهر بروايته وتفقه فيه ، حتى قيل إن عبد الله بن عمر أقام بعد النبى صلى الله عليه وسلم ستين سنة يقدم عليه وفود الناس . وقيل فى رواية أخرى : أنه لم يخف عليه شىء من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم . وبلغ من سعة علمه بالحديث وروايته وتفسيره ، أن اعتبره الصحابة من أئمة الدين ، إذ قيل « إن إمام الناس بعد زيد : ابن عمر » . وقيل أيضاً : « من أخذ بقول ابن عمر لم يدع من الاستقصاء شيئاً . »

وقد فاز عبد الله بن عمر بهذه الثقة التى لا حد لها فى رواية الحديث ، لما عرف به من الدقة فى النقل والتخرج فى الرواية . فكان يتحفظُ ما سمع من الرسول الكريم صلوات الله عليه ، ويسأل من حضر إذا غاب عن قوله وفعله . وكان يتبع آثار الرسول فى كل مسجد صلى فيه . وكان يعترض براحلته فى طريق رأى رسول الله عرض ناقته فيها . وكان لا يترك الحج إذا وقف بعرفة ، يقف فى الموقف الذى وقف فيه الرسول ، حتى قال فيه إسحاق بن سعيد : ما رأيت أحداً كان أشد اتقاه للحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من ابن عمر .

كان عبد الله بن عمر متبتلاً صواماً قواماً . كان يحيى الليل صلاة ، ثم يقول : يا نافع أسحِرْنا ؟ فيقول : لا ، فيعاود ، فإذا قال نعم ، فمقد يستغفر الله حتى يصبح . وإذا فاتته صلاة العشاء فى الجماعة أحيى بقية ليلة . وكان يصلى ما قدر له ، ثم يأوى

إلى فراشه ، فيغني إغفاء الطائر ثم يقوم فيتوضأ ويصلي ثم يرجع .
 كان يفعل ذلك في الليل أربع مرات أو خمساً . وكان لا يصوم في السفر ، ولا
 يكاد يفطر في الحضر ، إذا سمع القرآن تذكر واعتبر ، وإذا تليت هذه الآية
 الكريمة : « ألم يئن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله » بكى حتى يغلبه البكاء .
 روى سعيد بن المسيب قال : لو شهدت لأحد من أهل الجنة لشهدت لابن عمر ،
 وقال أيضاً : « ابن عمر حين مات خير من بقي » ، وقال أيضاً : « مارأيت أحداً أروع
 من ابن عمر » ، وقيل : « هو مثل عمر في الفضل . »

كان عبدالله مع ورعه وتقاه سمحاً جواداً كثير البذل والعطاء ، يصبر على
 الإساءة ثم يعفو عنها . ومن أمثلة نجدته ما روى من أن صحاباً مرؤوا بإبل ابن
 عمر فاستاقوها ، فجاء الراعي فقال : « يا أبا عبد الرحمن احتسب الإبل ، وأخبره
 الخبر . » قال : فكيف تركوك ؟ قال : انفسلت منهم لأنك أحب إليّ منهم »
 فقال : « إني احتسبك معها ، فأعتقه لوجه الله ، كما أعتق جارية له يقال لها مَسَّه
 كان يحبها ، وقال : سمعت الله تعالى يقول : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا
 مما تحبون »

وبلغ من سماحة عبدالله بن عمر وجوده ، أنه أعطى في نافع مولاة عشرة آلاف
 درهم ، فما كان منه إلا أن قال : هو حر لوجه الله . وقد مر ابن عمر براع فقال :
 « هل من جزرة ؟ » قال : ليس ههنا ربها ، قال : تقول له إن الذئب أكلها ، قال :
 فاتق الله . فاشترى ابن عمر الراعي والغنم وأعتقه ووهبها له . ومن جميل أدبه أنه
 كان لا يلعن خادماً قط . روى معمر عن الزهري قال : ما لعن ابن عمر خادماً
 قط إلا واحداً فأعتقه : وأراد مرة أن يلعن خادماً فقال : اللهم الع . . فلم يتمها وقال
 إنها كلمة ما أحب أن أقولها .

وكان عبدالله يصبر على الإساءة ويغفر للسيء . روى زيد بن أسلم قال :
 جعل رجل يسب ابن عمر وابن عمر ساكت . فلما بلغ باب داره التفت إليه فقال :
 « إني وأخي عاصم لأنسب الناس . »

كان عبد الله بن عمر شجاعا ، يجهر برأيه في غير ما خرف أو تردد ، ولا يخشى في الله لومة لأئم . روى أنه قام والحجاج يخطب ، فقال : « عدو الله استحل حرم الله ، وخرّب بيت الله ، وقتل أولياء الله . » فقال الحجاج : من هذا ؟ فقيل : عبد الله بن عمر ، فقال الحجاج : اسكت يا شيخا قد خرف . فلما صدر الحجاج ، أمر بعض الأعوان فأخذ حربة مسمومة فضرب بها رجل عبد الله بن عمر ، فمرض ، ودخل عليه الحجاج عائدا ، فسلم ، فلم يردّ عليه ، وكلمه فلم يجبه . توفي عبد الله بن عمر سنة اثنتين وسبعين ، وقيل سنة ثلاث وسبعين ، وله من العمر أربع وثمانون سنة . غفر الله له وأقعدته مقعد صدق عند عزيز مقدر .

[Faint bleed-through text from the reverse side of the page, mostly illegible due to fading and ghosting.]

٢١ - عبد الله بن عباس

الإمام البحر عالم العصر

هو ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو الخلفاء . أحبه الرسول وقربه اليه وأدناه من قلبه . وعرف بالورع والتقوى والتبحر في علم الحديث والتفسير، حتى قيل إنه حَبْرُ العرب، وأبو الخلفاء، ونعم ترجمان القرآن ابن عباس . وسمى بالبحر لسعة علمه وغزارته . وهو ابن عباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي القرشي الهاشمي ، وأمه أم الفضل ابنة بنت الحارث الهلالية . ولد عبد الله قبل الهجرة بثلاث سنين ، وقيل بخمس سنين . وكان بنو هاشم إذ ذاك بالشعب ، حين رأت قريش أن مكايدهم التي دبروها للرسول الكريم قد أخفقت ، فأجمعوا أمرهم على مقاطعة بني هاشم وبني المطلب ، وعاهدوا أنفسهم على ألا يتعاملوا مع هذين البيتين ، فلا يتزوجون منهم ولا يزوجونهم أنفسهم ، ولا يتجرون معهم حتى يسلموا إليهم رسول الله ليقتلوه . وكتبوا بذلك صحيفة علقوها في جرف الكعبة، وأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثا، حتى جهدوا لا يصل إليهم شيء إلا سرا مستخفيا ممن أراد صلتهم من قريش . وهكذا ظل بنو هاشم مهجورين في شعب من شعاب مكة إلا في الأشهر الحرم حيث حرم القتال في كافة أنحاء بلاد العرب . هكذا شب عبد الله في شجر النبوة وترعرع في نور الدعوة المحمدية . فقد كان - بحكم صلته بالرسول صلى الله عليه وسلم - كثير الاتصال به ، يشهد عن كسب تطور الدعوة إلى الإسلام ، ويهفو قلبه الصغير إلى ذلك الدين الجديد الذي أظل نوره أرض مكة كلها . وكان الرسول يحب أهله وينزل عمه العباس من نفسه منزلة خاصة، فأحب عبد الله لأنه كان يحب أباه العباس . روى أن الرسول دعا عبد الله وهو صغير يدب على الأرض ، فمسح رأسه وتفل في فيه وقال : اللهم فقهه في

الدين وعلمه التأويل . ويبدو أن عبد الله كان يحس هذه النعمة الكبرى . فكثيرا ما كان يدخل بيت الرسول ، فإذا ألقاه يتوضأ سكب له الماء . وقد سر الرسول لذلك . فلما فرغ عبد الله دعا له ، ثم أجلسه في حجره ومسح رأسه ودعا له بالعلم ، وقال : اللهم بارك فيه وانشر منه . ولا يذكر الرواة كيف أسلم عبد الله ، ولكنهم يذكرون أنه صلى خلف الرسول صلى الله عليه وسلم وهو صغير ، لما يبلغ السابعة أو الثامنة من عمره . وروى عبد الله نفسه ذلك فقال : صليت خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخذ بيدي فجرتني حتى جعلت حذاءه . فلما أقبل على صلاته حبست ، فلما انصرف قال لي : ماشأ نك ؟ فقلت : يا رسول الله ! أرينبغي لأحد أن يصلي حذاءك وأنت رسول الله ؟ فدعا لي أن يزيدني الله علما وفهما . وذكر الرواة أيضا أن عبد الله انطلق إلى دار الرسول وهو صغير ، ثم دخل عليه فرأى رجلا ليس له به عهد ، فعاد إلى أبيه العباس مذعورا خائفا ، فقال له ابوه العباس : إنك قد رأيت جبريل عليه السلام .

ثم هاجر عبد الله إلى المدينة مع من هاجر من أهل مكة من المسلمين . ولم تذكر الرواية عن حياته في المدينة إلا النزر اليسير . فقد ذكروا أنه كلف برواية الحديث منذ نعومة أظفاره ، كما حفظ القرآن . ثم توفي الرسول وكان عبد الله في الثالثة عشرة من عمره ، وقيل في الخامسة عشرة ، وقيل أيضا إن الرسول توفي وهو ختين . وروى عبد الله عن نفسه فقال : أقبلت وأنا راكب على حمار أتان ، وأنا يومئذ قد ناهزت من الاحتلام ، والنبي صلى الله عليه وسلم يصلي .

ثم توفي الرسول صلى الله عليه وسلم ، وشب عبد الله عن الطوق وبلغه مبلغ الرجال ، وفتحت أكام قلبه وعقله ، فأينعت بالعلم والتقوى ، فأخذ يجمع الحديث ويتفقه في القرآن ، ويفتي في الناس حتى لقد قيل : إنه جلس للقضاء بين الناس . وكان في منزلة أعلام الصحابة مثل عمر بن الخطاب ، وعلي بن أبي طالب ، وعبد الله ابن مسعود ، وزيد بن ثابت ، وعبد الله بن عمر . حتى إذا توفي أبو بكر وآلت الخلافة إلى عمر ، كان عبد الله قد بلغ في العلم غايته وأتاه الناس من كل فج ينهلون

من علمه ويبتغون من فضله . وقد أحبه عمر بن الخطاب حبا جما ، وأدناه وقربه وشاوره ، شأنه شأن جلة الصحابة رضوان الله عليهم . وكان عمر يقول : ابن عباس فتى الكرمول ، له لسان سئول ، وقلب عقول . كما كان يقول : « نعم ترجمان القرآن ابن عباس ، لو أدرك اسناننا ما عاشه منا رجل » . كما قال أيضا : ما سمعت فتيا أحسن من فتيا ابن عباس إلا أن يقول قائل قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . هذا رأى عمر الفاروق في ذلك الفتى العالم ، فأنعم به من رأى . وهو ان دل على شيء ، فإنما يدل على سماحة خلق وغزارة علم ورجاحة عقل .

كان عبد الله يجلس عمر ويحترمه . روى أن رجلا قدم على عمر فسأله عن الناس فقال : قرأ منهم القرآن كذا وكذا ، فقال ابن عباس : ما أحب أن يسأل عن آي القرآن ، قال فزبرني (١) عمر ، فانطلقت إلى منزله فقلت : ما أراني إلا قد سقطت من نفسه . فبينما أنا كذلك إذ جاءني رجل فقال : أجب ! فأخذ بيدي ثم خلا بي فقال : ما كرهت مما قال الرجل ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين ! إن كنت أسأت فاستغفر الله . قال : لتحدثني اقلت : إنهم متى تنازرتوا اختلفوا ودمتي اختلفوا ضلوا ، قال : لله أبوك ، لقد كنت أكتمها الناس . وكان عبد الله بن عمر ، برغم مانعهم به من منزلة رفيعة في العلم يقول : إذا سأله سائل عن شيء ، سل ابن عباس ، فإنه أعلم من بقي بما أنزل الله على محمد .

ومما يدل على المكانة السامية التي كان يتمتع بها عبد الله بن عباس في مجلس عمر بن الخطاب ، أن الخطيئة نظر إليه في المجلس وقد قرع بكلامه ، فقال الخطيئة : من هـ . هذا الذي نزل على القوم بسنه وعلاهم في قوله ؟ قالوا : هذا ابن عباس فأشدد يقول :

إني وجدت بيان المرء نافية

تهندي له ووجدت البعي كالصميم

(١) زبر زبرا من باب قتل بمعنى زجر أو نهر

المرء يبلى ويبقى الكلم سائرة

وقد يُلام الفتي يوماً ولم يُلَم

ثم تمت البيعة لعثمان، وظفر عبد الله من رعايته مثلها ظفر من رعاية عمر بن الخطاب رضي الله عنهما. ولا غرو فقد كان فخل بنى هاشم علما وأقربهم إلى الرسول رحما. فلها أمر عبدالله بن سعد بن أبي سرح والى مصر من قبل عثمان بغزو إفريقية سنة سبع وعشرين للهجرة، بعث إليه فيمن بعث من جلة الصحابة عبدالله بن عباس؛ فاشترك في القتال وأبلى فيه البلاء الحسن، لأنه كان حريصاً على أن يعفر جبهته بتراب الغزو في سبيل الله، اكتساباً للأجر وفوزاً بالجنة التي أعدت للشهداء والقديسين.

ولما أراد عثمان بن عفان فتح بلاد طبرستان، سير إليها جيشاً بقيادة سعيد بن العاص، ثم بعث إليه بنفر من خيار الصحابة منهم: الحسن والحسين، وعبدالله بن عباس، وعمرو بن العاص، والزيير بن العوام. واضطر ملك جرجان إلى طلب الصلح، وتعهد بأن يدفع مائتي ألف درهم كل سنة. وقد أحب عبدالله بن عباس عثمان كما أحب عمر. فقد روى عنه أنه قال فيه: رحم الله أبا عمرو! «كان والله أكرم الجمعة (١) وأفضل البررة، هجاءاً بالأشجار، كثير الدموع عند ذكر النار، نهاضاً عند كل مكرمة، سباقاً عند كل منحة، حياً أياً وفيها، صاحب جيش العسرة وختن رسول الله صلى الله عليه وسلم. فأعقب الله على من يلعبه لعنة اللاعنين إلى يوم الدين».

كان عثمان يثق في عبدالله بن عباس ثقة كبيرة، فأمره على الحج في السنة التي قتل فيها. ولم يكن عبدالله برغم حبه لعثمان يتورع عن مواجهته بالحق إذا اقتضى الأمر ذلك. روى أن جماعة من الصحابة منهم عبدالله بن عباس وفدوا على عثمان في حاجة، فراجعوه إلى أن عذروه إلا ابن عباس، فلم يزل يراجعهم بكلام جامع حتى سد عليه كل حاجة، فلم ير بدا من أن يقضى حاجة الوفد.

وقد ارتاع عبد الله بن عباس لمقتل عثمان وأعرب عن شديد أسفه ، إلا أنه اضطر بسبب صلة القربى بعلي بن ابي طالب أن يقف الى جواره حين أصبح الصراع سافرا بين بني هاشم وبني أمية الذين طالبوا بدم عثمان . وقد أحبه علي وأجله وقال فيه : إنا لنتنظر الى الغيث من ستر رقيق لعقله وفطنته ، كما قال ايضا لما علم بتفسير ابن عباس قول الرسول : لم أكن لأحرقهم . . . ويح ابن أم الفضل (يعنى ابن عباس) إنه لغواص . فلما تمت البيعة لعلي بن ابي طالب كرم الله وجهه ولى ابن عباس البصرة ، فانتقل اليها بعلمه وأخذ يفسر القرآن للناس بمسجدها في شهر رمضان . ولما التقت جموع علي ومعاوية يوم صفين ، كان عبد الله ابن عباس على ميسرة جند علي ، فاشترك في القتال وأبلى فيه البلاء الحسن . فقد كان يذب عن قضية الهاشميين عموما ، وكان لا بد من أن ينصر عليا ؛ فقد قيل : انصر أخاك ظالما أو مظلوما . ثم كانت خدعة التحكيم ، واجتمع الحكمان : عمرو ابن العاص عن معاوية ، وأبو موسى الأشعري عن علي ، وبعث معاوية عمرو بن العاص في أربعمائة من أهل الشام فتوافدوا بدومة الجندل .

ويظهر أن ابن عباس كان يشفق من نتيجة التحكيم ويخشى أن يخرج منها ابن عمه علي مخذولا . فقد ذكر الرواة أنه لما دنا وفد علي من موضع الاجتماع ، قال عبد الله لأبي موسى : « إن عليا لم يرض بك حكما لفضل علي غيرك ، والمتقدمون عليك كثيرون ، وإن الناس أبوا غيرك ، وإني لأظن ذلك لشر يراد بهم . وقد ضم داهية العرب معك . إن نسيت فلا تنس أن عليا بايعه الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان ، وليس فيه خصلة تباعده من الخلافة ، وليس في معاوية خصلة تقربه من الخلافة . » ومع هذا لم يكن ماقاله عبد الله بن عباس لأبي موسى من شأنه أن يرضيه ولا أن يبعثه على الاخلاص والشدة في نصرة علي . وقد فطن عبد الله للخدعة التي دبرها عمرو وفصاح في أبي موسى قائلا : « ويحك إني والله لأظن عمرا قد خدعك . إن كنتما قد اتفقتما على أمر فقدمه فليتكلم بذلك الأمر قبلك ، ثم تسكلم أنت بعده ، فإن عمرا رجل غادر ، ولا آمن أن يكون قد أعطاك الرضا

فيما بينك وبينه . فاذا قمت في الناس خالفك ، . وقد صدقت ظنون عبد الله بن عباس ، فقد خُذِلَ علي في التحكيم .

تم قتل علي واستتب الأمر لمعاوية بن أبي سفيان ، فلم يشأ أن يقف منه موقف العداة . فقد كان عبد الله بن عباس رجلاً علم يحب أن يجنب نفسه مواطن الشطط ، فوفد عليه بدمشق مع من وفد عليه من اشراف قریش ، من أمثال عبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن جعفر الطيار ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الرحمن بن أبي بكر ، وأبان بن عثمان . وكان معاوية — برغم اختلافه مع ابن عباس في الرأي — يحله ويقدره حق قدره ، فأشركه في الجيش الذي أعده لفتح القسطنطينية سنة ٤٨ هـ واشترك فيه عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، وأبو أيوب الأنصاري . وبلغ إعجاب معاوية بعبد الله حدا جعله يقول فيه الشعر متمثلاً : فقد روى أنه أنشد :

إذا قال لم يترك مقالا لقائل

مصيب ولم يُثِنِ اللسان على هجر

يُصَرِّفُ بالقول اللسان إذا اتحى

وينظر في اعطافه نظر الصقر

ولما مات معاوية وأخذت البيعة لولده يزيد، تخلف عبد الله بن عباس عن البيعة مع من تخلف من اشراف مكة من أمثال الحسين بن علي ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عمر ، فكتب يزيد الى الوليد بن عتبة عامله على المدينة أن يأخذ له البيعة من هؤلاء النفر ، فبايعه عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عمر ، إذ يبدو أن عبد الله بن عباس لم يحب أن ينغمس في التيارات السياسية انغماسا يصيبه منه أذى . فلما أراد الحسين بن علي أن يخرج الى الكوفة تلبية لنداء أهلها، عارضه ابن عباس ونصحه بعدم السفر . وقال له : أتسير إلى قوم قد قتلوا أميرهم وضبطوا بلادهم ونفوا عدوهم ؟ فان كانوا قد فعلوا ذلك فسر إليهم ، وان كانوا دعوك إليهم ، فإنهم إنما دعوك للحرب والقتال . ولا آمن عليك أن يغرروك ويكذبوك

ويخالفوك ويخذلوك ، فلم يستمع الحسين لنصيحة عبد الله بن عباس ، فقتل في كربلاء .

كان من نعم الله على عبد الله بن عباس أن هداه الله الى العلم صغيرا ، فشب على الورع والتقوى ، وعرف برجاحة العقل وسعة الصدر وشدة الايمان وغزارة العلم منذ بلغ مبلغ الرجال . ويظهر أن حبه المفرط للآثار النبوية الشريفة قد جعله يشغف بجمع الحديث ونقله وحفظه ، ليحفظ بذلك تراث السنة وأقوال الرسول ، حتى لا تتفرق بطول الزمن ، فيكون بذلك قد أدى لعلوم الشريعة خدمة جلى . فهو نبع الحديث ، وهو راويته الأول . ومما يدل على اهتمامه المبكر بجمع الحديث وتدوينه ، ما روى من أنه لما قبض الرسول صلى الله عليه وسلم جاء عبد الله لرجل من الأنصار وقال له : هلم فلنسأل أصحاب الرسول فانهم اليوم كثير ، فقال له صاحبه : و اعجبا لك ! أترى الناس يفتقرون إليك ؟ فلم يلتفت عبد الله إليه ومضى يسأل الناس . وقال : فان كان ليبلغنى الحديث عن رجل فآتى بابه وهو قائل (أى فى القيلولة) فأتوسد رداى على بابه ، يسنى الريح على من التراب ، فيخرج فيرانى فيقول : يا ابن عم رسول الله ! ما جاء بك ؟ هل أرسلت الى فآتيك ؟ فأقول : لا ، أنا أحق أن آتيك فأسألك عن الحديث .

ولم يكتف عبد الله بهذا ، فقد كان يدون الحديث ويكتبه . روى أنه كان يصطحب معه من يكتب له . وبلغ من تحمره فى علوم الحديث أنه ظفر بإعجاب الصحابة أجمعين . روى أن أبا هريرة كان يقول إذا سأله سائل عن حديث ، انطلق إلى ابن عباس فاسأله فإنه أعلم من بقى بما أنزل الله تعالى على محمد . كما قالت فيه عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها : هو أعلم الناس بالحج . وكان الصحابة إذا تداروا فى أمر صاروا الى قول ابن عباس . واخرج البغوى عن طاووس أنه قال : أدركت خمسين أو سبعين من الصحابة إذا سألو عن شىء خالفوا ابن عباس لا يقومون حتى يقولوا هو كما قال ، ولذلك سمي ابن عباس بالبحر لغزارة علمه وتعدد موارده . وكان عمر بن الخطاب مع اجتهاده يعده للمعضلات . وقال القاسم بن محمد : ما رأيت

في مجلس ابن عباس باطلا قط، وما سمعت فتوى أشبه بالسنة من فتواه . وكان أصحابه
يسمون له الخبر . مدحه حسان بن ثابت فقال :

إذا ما ابن عباس بدا لك وجهه

رأيت له في كل أحواله فضلا

إذا قال لم يترك مقالا لقائل

بمنتظمات لانرى بينها فضلا

كفى وشفى ما في النفوس فلم يدع

لذي اربة في القول جدا ولا هزلا

ومن العلوم الثقيلة التي اشتغل بها المسلمون لفهم معاني القرآن الكريم علم
التفسير . روى عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت : « لم يكن النبي صلى الله عليه
وسلم يفسر شيئا من القرآن إلا آيات تعد عليهن إياه جبريل » . فلما اتسعت
الدولة العربية ودخل العجم في الاسلام، دعت الحاجة إلى فهم آيات القرآن، وأخذ
بعض الصحابة يشتغلون بالتفسير، وفي طليعتهم عبد الله بن عباس، الذي برع
وجرّ دحتى قيل فيه : نعم ترجمان القرآن ابن عباس . وقد آتاه الله من سرعة الخاطر
ودقة الفهم ما جعله المصدر الأول للتفسير في القرن الأول للهجرة، حتى إن كبار
المفسرين والشرّاح من أمثال عبد الله بن عمر كانوا يحيلون عليه . روى أن رجلا
سأل ابن عمر عن قوله : كانتا رتقا ففتقناهما ، فقال : اذهب الى ذلك الشيخ فسله
(يقصد ابن عباس) ، ثم تعال فأخبرني . فذهب الى ابن عباس فسأله فقال :
كانت السماء رتقا لا تمطر والأرض رتقا لا تنبت، ففتق دذه بالمطر وهذه بالنبات .
فرجع الرجل فأخبر ابن عمر فقال : « لقد أوتى ابن عباس علما صدقا . هكذا
لقد كنت أقول ما يعجبني جرأة ابن عباس على تفسير القرآن . فالآن قد علمت
أنه قد أوتى علما . قرأ ابن عباس مرة سورة النور ثم جعل يفسرها فقال رجل :
لو سمعت هذا الديلم لأسلمت .

وكان ابن عباس مع علمه متواضعا، إذا سئل عن شيء فكان في القرآن أحبر به،

فان لم يكن وكان عن رسول الله أخبر به ، فان لم يكن وكان عن أبي بكر وعمر
أخبر به ، فان لم يكن قال برأيه . وفي رواية ابن سعد اجتهد .

كان عبد الله بن عباس أبيض طويلا مفرطا في الطول، مشربا صفرة، جسيما
وسيدا، صبيح الوجه يخضب بالحناء . روى عن مسروق أنه قال : إذارأيت ابن عباس
قلت أجمل الناس ، فاذا نطق قلت أفصح الناس ، فاذا تحدث قلت أعلم الناس .
ولكن عبد الله كان برغم جمال خلقه، جميل النفس، عالى الأخلاق، متواضعا في غير
ضعف، كريما في غير سرف، حليما حتى ليضرب المثل بحلمه . قيل : شتمه رجل
فقال : إنك لتشتمنى وفي ثلاث : انى لاسمع بالحاكم من حكام المسلمين يعدل في
حكمه فأجبه ، ولعلى لأقاضى اليه أبدا ؛ وإنى لأسمع بالغيث يصيب البلاد من
بلدان المسلمين فأفرح به ، ومالى بها سائمة ولا راعية ؛ وإنى لآتى على آية من كتاب
الله تعالى فوددت أن المسلمين كلهم يعلمون منها مثلما أعلم .

أصيب عبد الله في بصره في أواخر أيامه ، فلم يجزع ولم ييأس ، إنما كان يقول :

انى وجدت بيان المرء نافلة يهدى له ووجدت ألعى كالصمم

توفى عبد الله بن عباس سنة ثمان وستين في عهد عبد الملك بن مروان وصلى

عليه محمد بن الحنفية بن علي بن أبي طالب .

وهكذا كان ابن عباس إماما في علمه ، قدوة في خلقه ، طيب الله ثراه وجعل

الجنة مثواه .

٢٢- الحسن بن علي

سيد شباب أهل الجنة وريحانة النبي وشبيهه

الحسن بن علي بن أبي طالب بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف ، هو سبط الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأمه فاطمة بنت الرسول سيدة نساء العالمين ، وهو سيد شباب أهل الجنة وريحانة النبي وشبيهه . وشخصه هذا حسبه وهذا نسبه ، وهذه عترته الشريفة ، جدير بأن نُترجم له ونضعه في مصاف أعلام الصحابة ومشاهير المسلمين .

وُلد الحسن في النصف من شهر رمضان سنة ثلاث من الهجرة ، وقيل وُلد للنصف من شعبان سنة ثلاث للهجرة ، وقيل ولد بعد أحد بستين . وكان بين أحد والهجرة ستان وستة أشهر ونصف . روى المؤرخون أن أم الفضل زوج الرسول صلى الله عليه وسلم رأت قبل أن يُولد الحسن كأن عضوًا من أعضاء الرسول في بيته . فلما قصت عليه الرؤيا قال : خَيْرَ أَرَأَيْتِ ، تلد فاطمة غلامًا فترضعه بلبن قم . فولدت فاطمة الحسن بعد ذلك بقليل .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم بعد أن مات بنوه ولم يبق منهم الا فاطمة ، يريد أن يرى أبناءها وفلذة أكبادها يدبون على الأرض فيملئون قلبه سعادة وغبطة . فأكاد يعلم نبأ هذا الميـلاد حتى خف إلى بيتها وقال : أروني ابني ما سَمِيَتْهُمُوه ؟ قال علي بن أبي طالب : سميته حَرَبًا ، قال : بل هو حسن . فكأن الرسول الكريم قد اختار له هذا الاسم الكريم . وبلغ من فرح الرسول بمولد هذا الطفل الميمون أن أمر بحلق رأسه ، وأن يتصدق بزنة شعره فضة ، كما أمر بنحر كبشين وزعت لحومهما على الفقراء .

هكذا ولد الحسن بن علي في هذه البيئة الطاهرة العامرة بالتقوى والايان ،

وفي هذا البيت المتواضع الذي أسس على الفضيلة وخشية الله عز وجل . فكأن عينيه قد تفتحتا على أكرم المشاهد وأعزها عند المسلمين عامة .

وقد أحبه الرسول حبه لأبنائه وولذات أكباده ، حتى لقد كان حبه إياه مضرب الأمثال في بر الآباء بالأبناء وتواضع الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم . فقد روى عن أسامة بن زيد أنه قال : طرقت النبي صلى الله عليه وسلم ذات ليلة في بعض الحاجة ، فخرج إلي وهو مشتمل على شيء لا أدري ماهو . فلما فرغت من حاجتي قلت ما هذا الذي أنت مشتمل عليه ؟ فكشفه فإذا الحسن على وركه فقال : هذا ابني وابن بنتي ، اللهم إني أحبه فأحسبه وأحسب من يحبهما . وروى أيضا في معرض الحديث عن حدب الرسول على ابن بنته وبره به أن ابن عباس قال : كان الرسول حاملا الحسن على عاتقه فقال رجل : نعم المركب ركبت يا غلام ! فقال النبي : ونعم الراكب هو . وقد حدث أيضا أن الرسول كان بالمسجد يخطب المسلمين ، فإذا الحسن في قميص أحمر يمشى ويعثر ، فقطع الرسول الخطبة ونزل من المنبر وحمله ووضع بين يديه ثم قال : صدق الله إنما أموالكم وأولادكم فتنة . نظرت إلى هذا الصبي يمشى ويعثر ، فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعته . ألا أنعم بهذا البر وهذا الحب من الرسول الكريم .

روى الزبير بن العوام أن الحسن بن علي جاء إلى النبي وهو ساجد فركب رقبته ، فلم ينزله حتى كان هو الذي نزل ، كما قال : لقد رأيتته يجيء وهو راكع ، فيفرج له بين رجله حتى يخرج من الجانب الآخر . حدث حاتم بن إسماعيل عن معاوية بن أبي مزرد عن أبيه عن أبي هريرة قال : سمعت أذنأى هاتان ، وأبصرت عيناى هاتان رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو آخذ بكف الحسن وقدماه على قدم الرسول وهو يقول : حَزَقَ حَزَقَةَ تَرَقَّ عَيْنَ بَقَّةٍ ، فيرقى الغلام حتى يضع قدميه على صدر الرسول ، ثم يقول له افتح ، ثم يقبله ويقول : اللهم أحبه فاني أحبه .

ومن آيات حب الرسول للحسن ما روى من أن عليا وفاطمة دخلا على

الرسول ومعهما الحسن والحسين ، فوضعهما في حجره ، فقبلهما واعتنق عليا
بإحدى يديه وفاطمة بالأخرى ، فجعل عليهم خميصة سوداء وقال : اللهم إليك
لا إلى النار .

وما كاد الحسن يشب عن الطوق حتى أخذ الرسول الكريم يعلمه مما علمه الله
وينشئه على خير ما تنشأ الأولاد . روى عن الحسن أنه قال : علمني رسول الله
صلى الله عليه وسلم كلمات أقولهن في الوتر : اللهم اهدني فيمن هديت ، وعافني
فيمن عافيت ، وتولني فيمن توليت ، وبارك لي فيما أعطيت ، وفقني شر ما قضيت ،
فإنك تقضي ولا يقضى عليك ، وإنه لا يذل من واليت ، تباركت ربنا وتعاليت .
وقد أخذ الرسول الكريم يَبْثُ في قلب الحسن الغَضَّ حب الحق والعدل
والإيثار ، وَيَنْفُخُ في روحه الصبية القناعة والرضى . فقد روى عن الحسن أنه
قال : أذكر من رسول الله أني أخذت تمر من تمر الصدقة فتركتها في فمي ، فنزعها
بلعابها ، وجعلها في تمر الصدقة ، فقيل : يا رسول الله ! ما كان عليك من هذه التمرة؟
قال : إنا آل محمد لا نَحِلُّ لنا الصدقة . وكان يقول : دع ما يريبك إلى ما لا يريبك ،
فإن الكذب ريبة والصدق طمأنينة ، وكان يعلننا هذا الدعاء .

وكان الله جللت قدرته يعلم بحب الرسول بنيه وبره بأهله وذويه ، فأكرمه
جلت قدرته وعلمت أيما إكرام ، فأنزل هذه الآية على النبي : « إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ
عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا » . فدعا الرسول فاطمة وحسنا وحسينا
فجللهم بكساء وعلى خلف ظهره وقال : هؤلاء أهل بيتي ، فأذهب عنهم الرجس
وطهرهم تطهيرا ، فقالت أم سلمة زوجة الرسول : وأنا معهم يا رسول الله ؟ قال :
أنت على مكانك ، أنت إلى خير . ولما أحس الرسول أن النهاية قد آذنت وأنه
ملاق ربه عمما قريب ، أوصى المسلمين بآله خيرا وقال : إني تارك فيكم ما إن
تمسكتم به لن تضلوا ، أحدهما أعظم من الآخر : كتاب الله حبل ممدود من
السماء إلى الأرض ، وعترتي أهل بيتي ، ولن يتفرقا حتى يردا على الحوض ،
فانظروا كيف تحلفوني فيهما .

قُبض الرسول صلى الله عليه وسلم والحسن لم يجاوز الثامنة من عمره . ولكنه رغم هذه السن الغضة ، وَعَسَى الشئ الكثير وتأدب بأداب الرسول الكريم ، وتخلق بأخلاقه .

ثم بويغ أبو بكر بالخلافة وكان الحسن مازال حدثا صغيرا لم يكن قد بلغ مبلغ الرجال بعد . ولم تذكر الرواية شيئا يذكر عن حياته في عهد أبي بكر ولا في عهد عمر . ويخيل إلينا أنه كان ينشأ كما ينشأ فتية الصحابة وأبناؤهم : يحفظ القرآن ويروى الحديث ويتأدب بأداب السنة المحمدية .

فلما آلت الخلافة إلى عثمان ، كان الحسن قد بلغ العشرين : اكتملت رجولته ، وبلغ في الأدب وسمو الخلق الغاية ، وأشرف في العلم على النهاية . فلما هم عثمان بفتح طبرستان ، أعد لذلك جيشا بقيادة سعيد بن العاص ، فانخرط الحسن في سلكه ومعه من جلة الصحابة رضوان الله عليهم : عبدالله بن العباس ، وعمر بن العاص ، والزبير بن العوام ، لأنه أحب أن يناله ثواب الغزو في سبيل الله وأجر السعي في جهاد عدو الله . وقد اضطر ملك جرجان إلى طلب الصلح من سعيد بن العاص ، وعادت الحملة موفقة مظفرة ، وآب الحسن إلى المدينة يحيا حياته الأولى ، من إقبال على القرآن والحديث والتفقه فيهما . ثم امتحن المسلمون بفتنة عثمان وحوصر في داره بالمدينة ، وكان علي بن أبي طالب مع اختلافه معه في الرأي لا يجب أن يسفك ذلك الدم الزكي ، فبعث بالحسن إلى دار عثمان ليحميه ويشترك مع شباب قريش في الدفاع عنه ورد الثائرين .

ولكن الله أراد أن يقتل عثمان وأن يسفك دمه ، وأن تجتاح الفتنة العالم الإسلامي ، فقد بويغ علي بالخلافة وانتقل إلى الكوفة . ولا شك أن الحسن والحسين قد رحلا إلى هذه المدينة ليكونا بجوار أبيهما .

ومع أن الرواة لم يذكروا أن الحسن والحسين قد ساهما في المعارك التي خاضها أبوهما دفاعا عن حقه ، يخيل إلينا أنه لا بد أن يكون لكل منهما نصيب في هذه الحرب الضروس التي كادت تفني الفريقين . فقد كان الحسن قد جاوز الثلاثين من

عمره . ولم تصرف الخلافة وأبتهما عليا عن أخذ الناس بالسَّوِيَّة ، لافرق في ذلك بين قريب أو بعيد . فقد كان لا يعطى ولديه الحسن والحسين أكثر من حقهما ، فكانا يعيشان في الكوفة عيشة الزاهد المتقشف بعدا عن الدنيا وإيثارا للأخرة وثوابها .

فلما قتل علي لثلاث عشرة بقية من رمضان سنة ٤٠ للهجرة ، قتل قاتل أبيه ، ثم بايعه أهل العراق ، وبقي نحو سبعة أشهر خليفة بالعراق وما يليه من خراسان والحجاز واليمن وغيرها . ومما يوضح أخلاق الحسن خير توضيح هذه الخطبة التي قالها يوم مات أبوه . فقد صعد المنبر وقال بعد حمد الله عز وجل : إنا والله ماثنانا عن أهل الشام شك ولا ندم ، وإنما كنا نقاتل أهل الشام بالسلامة والصبر ، فسلبت السلامة بالعداوة . والصبر بالجزع ، وكنتم في منتدبكم إلى صفين ، ودينكم أمام دنياكم ، فأصبحتم اليوم ودينياكم أمام دينكم . ألا وإنا لكم كما كنا ولستم لنا كما كنتم . ألا وقد أصبحتم بين قتيلين : قتيل بصفين تبكون له وقتيل بالنهروان تطلبون ثأره . فأما الباقي فخاذل وأما الباكي فتائر . ألا وإن معاوية دعانا إلى أمر ليس فيه عز ولا نصفة ؛ فإن أردتم الموت وددناه عليه وحاكناه إلى الله عز وجل بظباء السيوف ، وإن أردتم الحياة قبلناه وأخذنا لكم الرضاء .

وإن دل هذا على شيء ، فإنما يدل على أن خلافة الحسن لم تثبت أمام قوة معاوية وما كان من رواج الإشاعة بانهزام جيوشة أمام جند الشام ، مما أدى إلى تخلي أهل العراق عنه ، فلم يجد بدا من النزول عن الخلافة حقناً لدماء المسلمين . ومما هو جدير بالذكر أن الحسن كان زاهداً في الدنيا ، عز وفاقن الملك والسلطان . فقد روى أنه ترك الملك والدنيا رغبةً فيما عند الله ، وكان يقول : ما أحببت أن ألي أمر أمة محمد على أن يهراق في ذلك محجمة دم . وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يعرف فيه دماثة الخلق ورقة الطبع ولين العريكة ، فكان يقول : إن ابني هذا سيد ، ولعل الله أن يصلح به فتتبن من المسلمين . روى حماد بن زيد عن علي بن زيد وهشام قال : نظر الحسن إلى الناس أمثال الجبال في الحديد فقال :

اضرب هؤلاء بعضهم ببعض في ملك من ملك الدنيا لا حاجة لي به .
وقد أرسل الحسن إلى معاوية يعرض تسليم الأمر إليه على ألا يطالب أحدا
من أهل المدينة والحجاز والعراق بشيء مما كان في أيام أبيه ، فأجابه معاوية إلى ما
طلب ، وتم ذلك في منتصف شهر جمادى الأولى سنة إحدى وأربعين للهجرة ،
فتكون خلافته ستة أشهر واثني عشر يوما . روى عقبه بن الحارث قال : صلى
بنا أبو بكر العصر ، ثم خرج ، فرأى الحسن بن علي يلعب ، فأخذه ، فحمله على
عنقه وهو يقول : بأبي ، شبيهه بالنبي ، ليس شبيها بعلي ، وعلى يضحك ، كما كانت
فاطمة تُسَقِّر الحسن وتقول مثل ذلك .

قدم الحسن على معاوية فقال : لأجيزنك بجائزة ما أجزت بها أحدا قبلك
ولأجزئها أحدا بعدك ، فأعطاه أربعمئة ألف . كما قيل إن معاوية أجرى عليه
في كل سنة ألف ألف درهم . وكان معاوية يعلم أن الحسن أكره الناس للفتنة ،
فراسله وأصلح ما بينهما . روى عن الحسن أنه قال لعبد الله بن جعفر : إني
رأيت رأيا أحب أن أتابعني عليه ، قلت : ما هو ؟ قال : رأيت أن أعمد إلى المدينة
فأنزلها وأخلي الأمر لمعاوية ، فقد طالت الفتنة ، وسفكت الدماء ، وقطعت السبل ،
قال : فقلت له : جزاك الله خيرا عن أمة محمد ! فقد غضب أهل العراق على الحسن
لمبايعته معاوية ، فكانوا يقولون له : يا عار المؤمنين ! فيقول العار خير من النار . وقد
خطب الحسن في وفود أهل العراق في قصر المدائن فقال : إنكم قد بايعتموني على أن
تسالموا من سالمى وتحاربوا من حاربني . وإني قد بايعت معاوية ، فاسمعوا وأطيعوا !
أصبح معاوية صاحب السلطان المطلق في الولايات الإسلامية كلها . وقد أثر
عن الحسن أنه قال يوم دخل معاوية الكوفة في شهر ربيع الثاني سنة ٤١ هـ :
« ألا إن أكيس الكيس التُّقى وإن أعجز العجز الفجور ، وإن هذا الأمر الذي
اختلفت أنا ومعاوية فيه ، إما أن يكون أحق به مني وإما أن يكون حقي تركته
لله عز وجل لإصلاح أمة محمد وحقن دماءكم . ثم التفت إلى معاوية وقال :
وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين . »

وكان الحسن حليماً كريماً وورعاً : دعاه ورعه وفضله إلى ترك المُلْك والدينا رغبة فيما عند الله تعالى . وكان لا يحج إلا ماشياً ، وكان يقول : إني لأستحي من ربي أن ألقاه ولم أمش إلى بيته . وكان يتصدق بماله ويقاسمه الفقراء والمعوزين . روى أنه قاسم الله تعالى ماله ثلاث مرات : فكان يترك نعلاً ويأخذ نعلاً ، ونزل عن ماله كله مرتين ، وكان حليماً جواداً تقياً يصوم النهار ويقوم الليل .

توفي الحسن سنة تسع وأربعين ، وقيل سنة خمسين ، وقيل إنه مات مسموماً . روى ابن عون عن عمير بن إسحاق قال : دخلت أنا وصاحب لي علي الحسن بن علي فقال : لقد لفظت طائفة من كبدي ، وإني قد سقيت السم مراراً ، فلم أسق مثل هذا ، فأتاه الحسين ، فسأله من سقاه ، فأبى أن يخبره .

وقد اختلف المؤرخون في سبب موت الحسن ، فزعم قوم أنه زج ظهر قدمه في الطواف بزج مسموم ، وقال آخرون : إن معاوية دس إلى جعدة بنت الأشعث بن قيس بأن تسم الحسن ويزوجها يزيد ، فسمته وقتلته ، فقال لها معاوية : إن يزيد منا بمكان ، وقد يصلح له من لا يصلح لابن رسول الله ، وعوضها عنه مائة ألف درهم . ولما حضرت الحسن الوفاة ، أرسل إلى عائشة يطلب منها أن يدفن مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فأجابته إلى ذلك ، فقال لأخيه الحسين : إذا أنا ميت فاطلب إلى عائشة أن أدفن مع النبي فإن أذنت فادفني في بيتها ، وإن أبي بنو أمية فادفني بالبقيع . وقد أبي بنو أمية أن يشوي جدته إلى جوار جثمان جده الطاهر ، فدفن بالبقيع .

حدث ثعلبة بن أبي مالك قال : شهدت الحسن يوم مات ودفن في البقيع . فلقد رأيت البقيع ، ولو طرحت فيه إبرة ما وقفت إلا على رأس إنسان . وهكذا عاش الحسن بن علي زاهداً متواضعاً ، ومات زاهداً متواضعاً رحمه الله وأجزل له المشوبة .

٢٣ - الحسين بن علي

سبط الرسول وريحانته وسيد شباب أهل الجنة

الآن نعرض لسيرة الحسين بن علي بن أبي طالب سبط الرسول وريحانته وسيد شباب أهل الجنة وخامس أهل الكساء . أمه فاطمة الزهراء بنت خديجة زوج الرسول وأول من أسلم من النساء ، وأبوه علي بن أبي طالب العابد الزاهد المتقشف الذي أسلم صبيا ومات شهيدا .

ولد الحسين بالمدينة المنورة بعد أن هاجر الرسول إليها ، وذلك في خمس خلون من شهر شعبان سنة أربع من الهجرة : فكأنه ولد بعد الحسن بسنة وعشرة أشهر . فتتابع الحسن والحسين كما تتابع البدور والأقمار . وقد سر الرسول لميلاد الحسين كما سر لميلاد أخيه الحسن من قبل . فلما ولدته أمه ذهب إلى بيتها ، فأكرمها وسماه حسينا . وما ولدت ابنها الثالث سماه محسنا ، ثم قال : سميتهم بأسماء ولد هارون : شبر وشبِير ومشبر . وروى عن عمران بن سليمان قال : الحسن والحسين من أسماء أهل الجنة ، لم يكونا في الجاهلية . وإن في اختيار الرسول هذا الاسم لحكمة كبرى : فإن الحسين في طليعة من ولد للمهاجرين بالمدينة ، ولد من أم بتول وأب من أخلص أنصار الرسول ، فاختار له اسما لم يكن للجاهليين به عهد .

شب الحسين في هذه البيئة الزكية كما شب أخوه الحسن . كانا صنوين في الخير والفضل ووفرة الإيمان . وقد رضعنا من لبان التقي ورييا في كنف الهداية والإيمان . وأحب الرسول الحسن كما أحب الحسين سواء بسواء ؛ ولكنه كان يفرط في حب الحسين . روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « حسين مني وأنا من حسين ، أحب الله من أحب حسينا ، وحسين سبط من الأسباط » . كما روى عنه أنه قال : الحسن والحسين ريحانتي من الدنيا » . وقد ضرب صلى الله عليه وسلم أكرم

الأمثال في رحمة الأبوة وبرها وحبها . فقد أحب حسيننا فأفرط في حبه ، وقربه من نفسه . فكان يضعه من فؤاده . ومن دلائل بره عليه أفضل الصلاة والسلام بينيه ، أن الحسن والحسين كانا يصطرعان بين يديه وهو يقول : هي حسن ، فقالت فاطمة : لِمَ تقول هي حسن ؟ قال : إن جبريل يقول هي حسين .

ومن آيات بر النبي بحفيده الحسين وحبه عليه ، ما رواه شداد بن عبد الله من أنه جاء النبي صلى الله عليه وسلم من بيت أم سلمة ، فجاء الحسن فأجلسه على فخذه اليمنى وقبله ، ثم جاء الحسين فأجلسه على فخذه اليسرى وقبله ، ثم جاءت فاطمة فأجلسها بين يديه . . ومن آيات ذلك أيضاً ما رواه أبو هريرة قال : أبصرت عيناى هاتان وسمعت أذناى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو آخذ بكفى حسين وقدماه على قدمه وهو يقول : حزقة حزقة ترقق عينى بقه ، قال : فرقى الغلام حتى وضع قدميه على صدر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال له الرسول : افتح فاك ثم قبله . ألا أكرم به من بر وأنعم به من حب صادر من قلب عامر بالإيمان الحق والحب الصادق لذات الله عز وجل .

نشأ الحسين كما نشأ الحسن في حجر النبوة الطاهر ، تتفتح أكامه على نور الهداية وتكتحل عيناه بمشهد أكرم الخلق ، يلتقط منه ما يسمع من حديث أفوح من المسك وأندى من الندى : غذته فاطمة ونشأه على ورعاه النبي وكأله . فما كاد ينطق حتى أخذ يتعلم الأدب ، وحفظ القرآن والصلاة والصوم والخشوع . يحضر مجالس الصحابة ويدب في مهابط الوحي ، ترمقه العيون ، وتتبعه الأحداق في إعجاب وشغف .

ثم انتقل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى أكرم جوار ، والحسين لم يزل صبيا لم يشب عن الطوق ، وبويع أبو بكر وهو لم يزل غض الإهاب . ثم ماتت أمه فاطمة ، فذاق مرارة اليتيم . ولكن بر أبيه به وحبه عليه ورعايته إياه قد أنساه ما يعانیه من حزن وحسرة .

وقد أقبل الحسين كما أقبل الحسن على علوم الدين ، يحفظان القرآن ويرويان

الحديث . ويفسر ان كتاب الله ، ويصومان ويصليان ويتعبدان ويتعبدان . فلما آل الأمر إلى عمر بن الخطاب ، لم يكن الحسين قد بلغ الحلم بعد . فلما بويغ عثمان كان قد جاوز العشرين من العمر بشهور قليلة ، فأضحى قتي في حكمة الشيوخ يافعا في زهد النساك وتعبدهم ، عالما في وقار العلماء ومهابتهم ، أخذ من العلم بقسط وافر واغترف من مناهل الفضائل ومكارم الأخلاق . فلما دعا الداعي إلى الجهاد في سبيل الله ، لم يحجم ، ولم يتردد ، بل كان في طليعة من سارعوا خفافا غير ثقال . فلما سير عثمان بن عفان جيشاً لفتح طبرستان بقيادة سعيد بن العاص ، اشترك فيه الحسين لي بذل دمه في سبيل الإسلام .

ولم يركن الحسين إلى الدعة ولم يأخذ نفسه بما يأخذ به الشبان أنفسهم من لهو أو إيثار عاقبة ، بل سارع إلى القتال غير هباب ولا وجل . ولما حاصر الثوار عثمان في داره بالمدينة ، هب علي ينافح عنه ويدراً المعتدين ، فأرسل ابنه الحسن والحسين يدفعا عنه العدوان ، ولكنهما لم يستطيعا لإرادة الله دفعا . فقد اغتيل عثمان رضي الله عنه ، واضطربت المدينة نارا ، وانقسم المسلمون فريقين ، وأخذت البيعة لعلي كرم الله وجهه ، وانتقل إلى الكوفة فانتقل معه ولداه الحسن والحسين : وقد شهد الحسين مع أبيه موقعة الجمل ، وحارب معه يوم صفين ، وأسهم في قتال الخوارج .

ولما قتل علي بن أبي طالب وأخذت البيعة للحسن علي ما ذكرنا ، كان الحسين في طليعة من بايعه وأيده وشد أزره ونصره . فلما نزل الحسن لمعاوية عن الخلافة وآثر التافية ، نهره الحسين عن ذلك وقال : أنشدك الله أن تصدق أحدوثة معاوية وتكذب أحدوثة أبيك ، فقال له الحسن : اسكت ! أنا أعلم بهذا الأمر منك ، فسكت الحسين علي مضمض برا بأخيه واحتراما لرأيه .

ولما مات الحسن وآلت الخلافة إلى يزيد بن معاوية سنة ٦١ هـ أرسل إلى الوليد بن عتبة - وكان عامله على المدينة - أن يأخذ له البيعة من كبار الصحابة في الحجاز . فامتنع عبد الله بن الزبير وفر إلى مسكة ، وخرج الحسين بن علي من

المدينة وسار إلى مكة دون أن يبائع يزيد . وكاتب الحسين الشيعة في الكوفة ، فاجتمعوا وأرسلوا إليه مع ابن عمه مسلم بن عقيل كتابا يعرضون فيه بيعتهم له وتأيدهم إياه اذا هو قدم إليهم . وقد جاء في هذا الكتاب : إنا قد حبسنا أنفسنا عليك ، ولسنا نحضر الجمعة مع الوالي ؛ فاقدم علينا . وكان النعمان بن بشير الأنصاري واليا على الكوفة ، فبعث الحسين مسلم بن عقيل وقال له : سر إلى الكوفة فانظر ما كتبوا به إلى ؛ فإن كان حقا قدمت . فخرج مسلم حتى أتى المدينة ، فأخذ منها دليلين ، فمرا به في البرية ، فأصابهم عطش ، فمات أحد الدليلين ؛ فقدم الكوفة ، فنزل على رجل يقال له عَوْسَجَة . فلما علم أهل الكوفة بقدمه ، دنوا إليه ، فبايعه منهم اثنا عشر ألفا على ذلك . فقام رجل من أنصار يزيد بن معاوية إلى النعمان بن بشير فقال : إنك رجل ضعيف أو مستضعف ، قد فسد البلد ، فقال له النعمان : « لأن أكون ضعيفا في طاعة الله أحب إلى من أن أكون في معصيته ، ما كنت لاهتك سترا » .

ولكن الحسين لم يعتبر بما فعله أهل الكوفة مع أبيه وأخيه من قبل ، إذ عزم على الخروج إلى العراق برغم أنه كان يدرك ما يحدث به من خطر إذا بقى في مكة ، لأن بني أمية سوف يتعقبونه . ولما رأى عبد الله بن العباس إصرار الحسين على الخروج قال له : « أتسير إلى قوم قد قتلوا أميرهم ، وضبطوا بلادهم ، ونفوا عدوهم ؟ فإن كانوا قد فعلوا ذلك فسر إليهم ، وإن كانوا دعوك إليهم وأمير عليهم قاهر لهم وعماله تجي بلاده ، فإنهم إنما دعوك للحرب والقتال . ولا آمن عليك أن يغروك ويكذبوك ويخالفوك ويخذلوك ، وأن يستنفروا إليك ، فيكونوا أشد الناس عليك » .

ولكن الحسين أبي إلا أن يمضى إلى غايته ، فقال له عبد الله بن العباس : فإن كنت سائرا ، فلا تسربنسائك وصبيتك ، فإنى لخائف أن تقتل كما قُتل عثمان ونساؤه وولده ينظرون إليه . فلم يلتفت الحسين إلى نصيح الناصحين ، بل سار إلى الكوفة في فئة قليلة لم يجاوز عددها ثمانين رجلا . فلما دنا منها ، بلغه نبأ مصرع

مسلم بن عقيل . كما لقيه الحر بن يزيد التيمي وقال له : ارجع فإني لم أدع لك خلفي خيرا . فلما أحسّ الحسين الخطر ، هم بالرجوع . ولكن خيل عبيد الله ابن زياد كانت له بالمرصاد ، فسار إلى كربلاء حيث نشب القتال في العاشر من شهر المحرم سنة ٦١ هـ . وقتل الحسين قتلة شنيعة . ولقد ظهر منه من آيات الصبر والاحتساب والشجاعة والورع والخبرة التامة بآداب الحرب والبلاغة ، ومن أهله وأصحابه رضی الله عنهم ، من النصر له ، والمواساة بالنفس ، وكرهية الحياة بعده ، ما أثار الإعجاب وأصبح مضرب الأمثال .

نعم ! لقد ذهبت شجاعة الحسين في القتال مضرب المثل . ذلك أنه لما بقي في ثلاثة أو أربعة من أصحابه ، دعا بسر اويل يمانية يلبع فيها البصر ، فنكته لكيلا تقع في أيدي العدو ، فقال له بعض أصحابه : لو لبست تحته ثباننا ، فأبى وقال : ذلك ثوب مذلة ولا ينبغي لي أن ألبسه . ثم قاتل وعليه قميص من خز وعلى رأسه عمامة ، وهو أحسن ما يكون استبسالا واستماتة . قال عبدالله بن عمر : « مارأيت مكسورا قط قد قتل ولده وأهل بيته وأصحابه ، أربط جأشا ولا أمضى جنانا منه ولا أجرا مقدما . والله مارأيت قبله ولا بعده مثله . وقد ظل الحسين حتى حمل عليه من كل جانب ، فضربت كفه اليسرى ضربة ضربها زرعة بن شريك التميمي ، وضرب على عاتقه . ثم انصرفوا وهو ينوء ويكبو . وحمل عليه وهو في تلك الحال سنان بن أنس بن عمرو النخعي ، فطعنه بالرمح فوقه . وحز رأسه ، ووجد به حين قتل ثلاث وثلاثون طعنة وأربع وثلاثون ضربة ، وسلب ما كان عليه من ثياب .

وأقام عمر بن سعد بعد قتل الحسين يومين ، ثم ارتحل إلى الكوفة ، وحمل معه بنات الحسين وأخواته ومن كان معه من الصبيان وعلي بن الحسين مريض . ثم أمر عمر بن سعد بحمل نساء الحسين وأخواته وبناته وجواريه وحشمه في المحامل المستورة على الابل ، فاجتازوا بهم على الحسين وأصحابه صرعى ، فصاح النساء وصاحت أخته زينب : يا محمداه ! صلى عليك ملائكة السماء ، هذا الحسين

بالعراء مُرَمَل بالدماء ، مقطوع الأعضاء ، وبناتك سبايا ، وذريتك مقتلة ، تسفى عليها الصبأ ، فأبكت كل عدو وصديق .

ولما رحل عمر بن سعد ، خرج قوم من بنى أسد الى الحسين وأصحابه ، فصلوا عليهم ودفنوا الحسين : حيث قبره الآن ، ودفنوا ابنه علي بن الحسين عند رجله ، وحفروا للشهداء من أهل بيته وأصحابه الذين صرعوا حوله مما يلي رجلى الحسين ، وجمعوهم فدفنوهم جميعاً معاً ، ودفنوا العباس بن علي في موضعه الذي قتل فيه .

ولما وصل رأس الحسين إلى الكوفة ووصل عمر بن سعد ومعه بنات الحسين وأهله ، جلس عبيد الله بن زياد في قصر الإمارة ، وأذن للناس بالدخول ، وأمر باحضار الرأس بين يديه ، وجعل ينظر إليه ويتسم ، وفي يده قضيب يضرب به ثناياه . وكان الى جانبه زيد بن أرقم ، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو شيخ كبير . فلما رآه لا يرفع قضيبه قال : اعل بهذا القضيب عن هاتين الثنتين ، فوالذي لا إله غيره ، لقد رأيت شفقتي رسول الله صلى الله عليه وسلم على هاتين الشفتين يقبلهما ، ثم بكى ، فقال له ابن زياد : أبكى الله عينيك ! فوالله لو لا أنك شيخ قد خرفت وذهب عقلك لضربت عنقك . فخرج وهو يقول : أنتم يامعشر العرب العبيد بعد اليوم . قتلتم ابن فاطمة وأمّرتم ابن مرجانة ، فهو يقتل خياركم ويستعبد شراركم .

قال الطبري : « فلما دخل برأس حسين صبيانه وأخواته ونسائه على عبيد الله بن زياد ، لبست زينب ابنة فاطمة أرذل ثيابها ، وتنكرت ، وحف بها إمامها . فلما دخلت جلست ، فقال عبيد الله بن زياد : من هذه الجالسة ؟ فلم تكلمه ، فقال ذلك ثلاثاً . كل ذلك لا تكلمه ، فقال بعض إمامها : هذه زينب ابنة فاطمة . فقال لها عبيد الله : الحمد لله الذي فضحك وقتلكم وأكذب أحدوثةكم ، فقالت : الحمد لله الذي أكرمنا بمحمد صلى الله عليه وسلم وطهرنا تطهيرا ، لا كما تقول أنت ، إنما يفتضح الفاسق ويكذب الفاجر . قال : فكيف رأيت صنع الله بأهل

بيتك؟ قالت: كتب عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم، وسيجمع الله بينك وبينهم فتحتاجون إليه وتخاصمون عنده. وثار تائرة ابن زياد فقال لها: قد أشفى الله نفسي من طاغيتك والعصاة المردة من اهل بيتك، فبكت ثم قالت: لعمرى لقد قتلت كهلى وأبرت (١) أهلى وقطعت فرعى واجتثت (٢) أصلى. فإن يشفك هذا فقد اشفتيت، فقال لها عميد الله: هذه شجاعة، قد لعمرى كان أبوك شاعراً شجاعاً. قالت: ما للمرأة والشجاعة، إن لى عن الشجاعة لشغلاً.

ولما نظر زياد إلى علي بن الحسين قال لشرطى: انظر هل أدرك هذا ما يدرك الرجال، فكشف إزاره عنه، فقال: نعم! قال: انطلقوا به فاضربوا عنقه، فقال له علي: إن كان بينك وبين هؤلاء النسوة قرابة فابعث معهن رجلاً يحافظ عليهن. وتعلقت به عمته زينب فقالت: يا ابن زياد! حسبك منا، أما رويت من دمائنا. وهل أبقيت منا أحداً؟ فاعتنقته فقالت: أسألك بالله إن كنت مؤمناً إن قتلتها لما قتلتني معه. وناداه علي فقال: يا ابن زياد! إن كانت بينك وبينهم قرابة فابعث معهن رجلاً تقياً يصحبهن بصحبة الاسلام، فنظر ابن زياد إلى زينب ثم نظر إلى الحاضرين فقال: عجبا للرحم، والله إنى لأظنها وددت لو أنى قتلتها معه. دعوا الغلام! انطلق مع نسائك.

ثم نودى: الصلاة جامعة! واجتمع الناس في المسجد، فصعد ابن زياد المنبر فقال: الحمد لله الذى أظهر الحق وأهله ونصر أمير المؤمنين يزيد بن معاوية وحزبه، وقتل الكذاب بن الكذاب الحسين بن علي وشيعته. ولكن عاطفة الحماسة بعد مقتل الحسين قد أصبحت أشد ما تكون حتى عند أكثر الناس فتوراً وتراخياً، وأصبح الشيعيون لا يبالون بالآلام والأخطار. يؤيد هذا رد ابن عفيف الذى انبرى لابن زياد، وعبر عن حنقه على بنى أمية وولاتهم فقال: يا عدو الله! إن الكذاب ابن الكذاب أنت وأبوك والذى ولاك وأبوه. يا ابن مرجانة! أتقتلون

(١) أبرت: أهملت

(٢) الجثت: القطع

أولاد النبيين ، وتكلمون بكلام الصديقين ؟ ولم يلبث هذا الشيعي أن قتل وصلب .
ولم يكتف عبيد الله بن زياد بما لحق بالحسين وأهل بيته من بلاء وماتعرضوا
له من إحن وخطوب ، بل إنه أمر برأس الحسين فنصب بالكوفة ، ثم طيف به فيها ؛
ثم بعث به وبرءوس أصحابه مع زمر بن قيس الذي دخل على يزيد بن معاوية وقال
له : فهاتيك أجسادهم مجردة ، وثيابهم مُرَمَّلة وخدودهم مُعَفَّرة ، تصهرهم الشمس
وتسقى عليهم الريح ، زوارهم العقبان والرخم ، بِقِيَّ سَبَسَبٍ ؛ فدمعت عين
يزيد وقال : قد كنت أرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين . لعن الله ابن
سُـيَّية! أما والله لو أني صاحبه لعفوت عنه . فرحم الله الحسين ، ولم يصله بشيء .
ولما جرى بنساء الحسين وأولاده ، وأدخلوا على يزيد بن معاوية ، رق لحالهم ،
وأمر فنزل النساء بداره مع علي بن الحسين ، واستقبلهن النساء من آل يزيد بالبكاء ،
وأقيمت المناحة على الحسين ثلاثة أيام . ثم أمر يزيد بمسيرهم إلى المدينة وكساهم
وأوصى رسوله بهم خيرا .

هكذا روى الدم الذكي أرض العراق ، وأهدر دم آل البيت ، ونكل بهم ، ولما
يمضي على وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم خمسون سنة . روى أبو خالد الأحمر
قال : دخلت على أم سلمة وهي تبكي ، فقلت : ما يبكيك ؟ قال : رأيت رسول الله صلى
الله عليه وسلم في المنام وعلى رأسه ولحيته التراب ، فقلت : مالك يا رسول الله ؟ قال :
شهدت قتل الحسين . وروى عن ابن عباس أنه قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه
وسلم فيما يرى النائم وهو قائم ، أشعث أغبر ، بيده قارورة فيها دم ، فقلت : بأبي أنت
وأمي يا رسول الله ! ما هذا الدم ؟ قال : هذا دم الحسين لم أزل ألتقطه منذ اليوم .
وكان لمصرع الحسين رنة أسي في العالم الإسلامي كله ؛ فقد رثاه الشعراء وبكاه
الناس . من ذلك قول سليمان بن كثير الخزامي :

ألم تر أن الأرض أضحت مريضة

لقد حسين والبلاد اقشعرت

وقد اعولت تبكي السماء لفقده

وأنجمه ناحت عليه وصلت

وكان لمقتل الحسين في أرض كربلاء أثر بعيد في إذكاء نار التشيع في نفوس الشيعة أنصار علي بن أبي طالب وأولاده من بعده وتوحيد صفوفهم . وكانوا قبل ذلك متفرقي الكلمة مشتتي الأهواء ؛ إذ كان التشيع قبل مقتل الحسين رأياً سياسياً نظرياً . فلما قتل ، امتزج التشيع بدمائهم وأصبح عقيدة راسخة في نفوسهم .

وقد ظهرت طائفة التوابين الذين يدعون الناس للأخذ بثأر الحسين ، وينظمون القصائد في رثائه وتحريض الناس على القتال . من ذلك قول عبد الله ابن الأحمر :

صَحَوْتُ وَقَدْ صَحُّوا الصَّبِيَّ وَالْعَوادِيَا

وقلت لأصحابي : أجيئوا المناديا

وقولوا له إذ قام يدعو إلى الهدى

وقبل الدعى : لبيك لبيك داعيا

ألا وانع خير الناس جدًّا ووالدا

حُسَيْنًا لأهل الدين إن كنت ناعيا

وأضحى حسين للرماح دريئة

وغودر مسلوباً لدى الطَّفِّ ثاويًا

فيا ليتني إذ ذاك كنتُ شهده

فضاربتُ عنه الشائنين الأعاديا

قتل الحسين بن علي في العاشر من شهر المحرم سنة ٦١ هـ على ما تقدم، وهذا الشهر مبارك يجله العرب قبل الإسلام وبعده . فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : أيها الناس ! سارعوا إلى الخيرات في هذا اليوم ، فإنه يوم عظيم مبارك ، قد بارك الله فيه على آدم . ومن مظاهر احترام المسلمين لهذا اليوم أنهم كانوا يصومونه ؛ فقد روى عن الرسول أنه لما هاجر إلى المدينة ، رأى اليهود يصومون هذا اليوم ، فسألهم عنه ، فأخبروه أنه اليوم الذي أغرق الله فيه فرعون وآله ، ونجى موسى ومن معه ، فقال عليه الصلاة والسلام : نحن أحق بموسى منهم ، فصامه وأمر أصحابه بصومه .

وقد سار الخلفاء الراشدون على سنة الرسول الكريم ، فكانوا يجلون هذا اليوم ويعظمونه ويصومون فيه ، حتى كان عهد يزيد بن معاوية ، واستشهد الحسين ابن علي في موقعة كربلاء في اليوم العاشر من شهر المحرم سنة ٦١ هـ على ما تقدم ، فتركت هذه المناساة في نفوس المسلمين آثارا مختلفة : فالأمويون السنيون اتخذوا من هذا اليوم عيداً يمتهجون فيه ، فيلبسون فيه الجديد من الثياب ، ويتزينون ويكتحلون ، و يقيمون الولائم ، ويقدمون الحلوى ؛ فيشير ذلك الفرح والسرور في نفوس أنصارهم . أما الشيعة من أنصار علي بن أبي طالب وأولاده ، فإنهم اتخذوا من هذا اليوم مأتماً ، يبكون فيه الحسين ، ويظهرون أشد مظاهر الأسى والحزن لقتله . وظل الشيعة يذكرون هذا اليوم ، فيبكي فيه الرجال والنساء ، وينشدن النساء من أهل البيت الشعر نادبات باقيات .

وقد ظل الشيعة يلقون في سبيل الاحتفال بذكرى هذا اليوم ألوان الاضطهاد من الأمويين والعباسيين ، حتى قامت الدولة الفاطمية الشيعية في بلاد المغرب ومصر ، وأصبح بنو بويه الشيعة أصحاب الأمر والنهي في الدولة العباسية السنية ، فغدا يوم عاشوراء عيداً من أعياد الفاطميين والبويهيين . وقد جعل الفاطميون يوم عاشوراء عيداً من أعياد الدولة ، تحتفل به الحكومة والشعب جميعاً احتفالاً يتفق وما له من مكانة في نفوس المسلمين ، فتعطل الأسواق ،

ويخرج المنشدون يتكسبون بالنوح والنشيد، ويسير الناس الى جامع عمرو بن العاص، ويخرجون الى الطرقات بعد الصلاة ينوحون ويبكون. وفي هذا اليوم يحتجب الخليفة الفاطمي عن الناس. ويركب قاضي القضاة والشهود، وقد لبسوا ملابس الحداد، ثم يسرون الى المشهد الحسيني، فيتخذون مجلسهم الى جانب القراء، حتى يصل الوزير فيجلس في صدر المكان، والقاضي عن يمينه، والداعي عن شماله. ثم يتناوب القراء تلاوة القرآن، وينشد الشعراء القصائد في رثاء أهل البيت زهاء ثلاث ساعات.

ومن مظاهر الاحتفال بيوم عاشوراء ذلك السماط الذي أطلق عليه «سماط الحزن». وكان يقدم فيه خبز الشعير والعدس والمملحات والمخللات والأجبان والالبان وعسل النحل. وكان الخليفة يحضر هذا السماط، ويجلس على كرسي الجريد بغير مخدة، متلثما هو وجميع رجال حاشيته، فيسلم عليه الوزير والأمراء والقاضي والداعي والأشراف وهم ملثمون حفاة. ويبدى الخليفة ابلغ مظاهر الحزن والأسى في هذا اليوم. واذا انتهى السماط طاف النواح بالقاهرة، وأغلق الباعة حوانيتهم الى ما بعد صلاة العصر. وفي يوم عاشوراء، كان الخلفاء الفاطميون ينحرون الإبل والبقر والغنم عند مشهد الحسين، وتوزع لحومها على الفقراء. ولا يزال الشيعيون في العراق وفارس الى اليوم يحتفلون بهذه الذكرى، فيبكون الحسين، ويلبسون السواد، ويقف دولا ب الأعمال حدادا عليه.

وقد قيل إن الحسين بن علي لما قتل وارسل الى يزيد بن معاوية، رد الرأس الى الجثة، ودفنا في دمشق. ثم نقلت في عهد الفاطميين الى عسقلان من أعمال فلسطين، وكان الفاطميون قد استولوا عليها حين فتحوا بلاد الشام. فلما تقلد الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالي الوزارة، أخرج رأس الحسين، وعطره، وحمله على صدره، وسعى ماشيا، إلى أن أحله في مقره الذي هو فيه بالقاهرة، حيث نجد المشهد الحسيني.

اللهم علّم معاوية الكتاب والحساب وقه العذاب

ينتسب معاوية بن أبي سفيان ، ذلك الصحابي الجليل ، إلى أعرق بيوت قريش . وهو الذي أسس الخلافة الاموية ، ونقل حاضرة الخلافة إلى دمشق ، وقام بيته بدور عظيم في التاريخ الاسلامي وفي الفتوح الاسلامية . وهو معاوية بن أبي سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، وأمه هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف . كان جده أمية من سادات قريش في الجاهلية ، وكان في الشرف والرفعة كما كان عمه هاشم بن عبد مناف . وكان تاجرا كثير المال والعيال . وكان له عشرة من الاولاد امتازوا بالشرف والسيادة ، منهم حرب وسفيان وابو سفيان . ولد معاوية في هذا البيت العريق قبل البعثة بخمس سنين ، وشب في هذه البيئة المترفة كما يشب فتيان قريش وسراتها . شب على حب الفروسية ورواية الشعر والعناية بالأدب والتفاخر ، حتى بعث الرسول صلى الله عليه وسلم وانتشر الإسلام في مكة . ولكن معاوية الفتى لم يكن قد فتح الله قلبه للإسلام بعد . ثم هاجر الرسول إلى المدينة ، وأخذ المهاجرون والأنصار يتهيئون لنضال قريش وبث الإسلام في ربوع الجزيرة العربية ، فالتقوا في « أحد » وبدر والخندق . وكان نضالا دمويا عنيفا ، نضالا بين مبدأين : مبدأ جديد يغلب الروحية ويطرح المادية ، ويسوى بين السيد والعبد وبين العربي والمولى ، ومبدأ عتيق ينادى بالمادية والآثرة وارشقراطية الدم والعصية القبلية في أشنع صورها .

تهميا المسلمون لفتح مكة والقضاء على آخر معقل للشرك وعبادة الأوثان في شبه جزيرة العرب ، ثم يسر الله لهم فتح مكة بعد مذاقوه من ألوان التعذيب . وكان فتح مكة واستيلاء المسلمين على البيت الحرام من أكبر العوامل التي ساعدت على

نجاح الدعوة الإسلامية؛ فقد اعتقدت القبائل العربية التي رفضت الدعوة بادية
 ذى بدء أن المسلمين تلحظهم عناية إلهية لا قبل لغيرهم بها، فسارعوا إلى الإسلام
 ودخلوا في دين الله أفواجا. وقد أسلم معاوية في ذلك اليوم كما أسلم أبو سفيان
 وأخوه وأمه، وعفا الرسول الكريم عن هؤلاء عفوا جميلا جرى مجرى الأمثال؛
 فقد حاربوه وتحلوا عنه وأذوه، ولكنه لما انتصر أبى أن يذيقهم من الكأس التي
 أذاقوه منها. ذلك أن أبا سفيان أراد أن يمنع الأذى والمذلة عن قومه، وأنهى
 العباس ذلك إلى الرسول، فأمر مناديا ينادى بمكة: من أغمد سيفه فهو آمن، ومن
 دخل المسجد فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن. وبذلك سوى الرسول
 بين بيت أبي سفيان وبيت الله، وهو شرف عظيم لم ينله أحد مثله.

ومن الغريب أن معاوية برغم أنه أسلم متأخرا، غدا من أشد أتباع الرسول
 إخلاصا وأوفرهم إيمانا وأكثرهم تعلقا بالدعوة المحمدية والدفاع عنها. وقد وثق
 الرسول الكريم بمعاوية ثقة عظيمة، فدعا ليكتب له الوحي، فأقبل على عمله هذا
 في إخلاص جم حتى دعا له الرسول وقال: «اللهم علم معاوية الكتاب والحساب
 وقرء العذاب». وكان معاوية بدوره يخلص للنبي ويحبه حبا جما. روى أن الرسول
 صلى الله عليه وسلم خرج مرة لحاجة، فاتبعه معاوية، فكساه أحد ثوبيه الذي كان
 على جلده. وقد احتفظ معاوية بذلك الثوب واعتز به. فلما حضرته الوفاة كان
 هذا الثوب أعز ما أهداه ولده يزيد. وروى أيضا أن الرسول صلى الله عليه
 وسلم جلس مرة يقص شعره ويقلم أظفاره، فما كان من معاوية إلا أن ابتلع بعض
 هذا الشعر، ثم خبا بعضه واعتز به؛ حتى إذا دنا أجله، دعا ابنه يزيد وقال له: احمل
 ذلك القميص دون كفى مما يلي جلدي، وخذ ذلك الشعر والأظفار فاجعله في فمي
 وعلى عيني ومواضع السجود مني. فان نفع شيء فذاك، والافان الله غفور رحيم.
 ثم توفي الرسول وأخذت البيعة لأبي بكر، فبايعه الأمويون وفيهم معاوية وأبوه
 أبو سفيان. وقد عكف معاوية في عهد أبي بكر على رواية الحديث، فروى عن
 أبي بكر وعمر وعثمان وأخته أم المؤمنين حبيبة بنت أبي سفيان. وقد أبلى بنو أمية

في حرب الردة بلاء حسنا ، وسار بعضهم إلى الشام فاشتهر أمرهم ونبه ذكرهم .
 ثم بويع عمر بن الخطاب وانتشرت جيوش المسلمين في بلاد الفرس والروم ،
 تفتح وتغزو وتعلو كلمة الاسلام . فلم يشأ معاوية أن يتخلف عن ذلك الجهاد
 المقدس ، بل اشترك في الجيوش التي سيرها عمر لفتح بلاد الشام سنة تسع عشرة
 روى أنه اشترك في الجيش الذي كان يقوده يزيد بن أبي سفيان ،
 فغزوا قيسارية وبها بطارقة الروم حتى فتحها الله عليهم في شهر شوال سنة
 تسع عشرة للهجرة ، فولى عليها معاوية أخاه . ثم توفي يزيد في شهر ذي الحجة من
 تلك السنة في دمشق ، فكتب عمر إلى معاوية ، بعهدته على ما كان يليه يزيد . من عمل
 الشام ، ورزقه الف دينار في كل شهر . ويرجع السبب في ذلك إلى أن عمر بن
 الخطاب كان يحب يزيد بن أبي سفيان لأنه أبلى البلاء الحسن في فتح بلاد الشام ،
 فلما مات جزع عليه جزعا شديدا وولى أخاه معاوية تخليدا لذكراه . فلما علم
 أبو سفيان بذلك أتى عمر وقال له : من وليت مكان يزيد يا أمير المؤمنين ؟ قال :
 أخاه معاوية ، قال : وصلتك رحم يا أمير المؤمنين !

ويبدو أن معاوية لما ولى بلاد الشام كان يعمل بالحديث الشريف الذي أثر
 عن الرسول صلى الله عليه وسلم : «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك
 كأنك تموت غدا» . فقد كان برغم ورعه وتقواه يعيش عيشة المترفين . فلما دخل
 عمر بن الخطاب هذه البلاد تلقاه معاوية في موكب عظيم ؛ فلما دنا منه قال له :
 إنك صاحب الموكب العظيم ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين قال : مع ما يبلغني من
 وقوف ذوى التاجات ببابك ؟ قال : مع ما يبلغني من ذلك ، قال : ولم تفعل هذا ؟
 قال : نحن بأرض جواسيس العدو بها كثيرة ، فيجب أن نظهر من عز السلطان
 ما نرهبهم به ؛ فان امرتي فعلت ، وإن نهيتي انتهت . فقال عمر لمعاوية : ما سألتك عن
 شيء إلا تركتني في مثل رواحب الضرس . ان كان ما قلت حقا إنه لرأى أريب ،
 إنه خدعة أديب قال : فرني يا أمير المؤمنين ! قال لا أمرك ولا أنهاك .

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يعرف من ورع معاوية وإيمانه

ما حببه فيه ، فأكبره وأجله . فقد ذم معاوية عند عمر يوماً فقال : دعونا من ذم
فتى من قریش ، من يضحك في الغضب ، ولا ينال ما عنده الا على الرضى ، ولا يؤخذ
ما فوق رأسه إلا من تحت قدميه .

ثم توفي عمر وتمت البيعة لعثمان بن عفان رضى الله عنهما ، فولى معاوية الشام
كلها . وقضى معاوية في هذه البلاد اثنتى عشرة سنة ، استطاع فيها ان يجلب الناس
فيه بحسن سياسته ونفاذ بصيرته ، وأن يؤلف بين القبائل العربية النازحة الى هذه
البلاد . وأصبحت دمشق في عهده كعبة القاصدين ومقصد الراغبين في ردف معاوية
وبره . وقد جند الجند واتخذ العدة ليوم قريب . فقد قتل عثمان بن عفان في
المدينة وتمت البيعة لعلى بن أبى طالب ، واعتقد الأمويون ان لعلى يدا في مقتله ؛
فهبوا مطالبين بالأخذ بثأره ، على الرغم من أن علياً نصح المطالبين بدمه أن
يتريشوا ، حتى إذا هدأت النفوس وعاد الأمن إلى نصابه ، أجرى الحق مجراه وتمكن
من إنزال الجزاء بقتلة عثمان . إلا أن نصائحهم لم تجد أذناً مصغية ؛ فقد ساء عائشة قتل
عثمان ، وانضم إليها طلحة والزبير ، ولم يصغوا لنصح الناصحين ولم يرعيا حرمة لوحدة
المسلمين التي كادت تتمزق شراً ممزقاً .

ولم يكفد على يفرغ من طلحة والزبير وأنصارهما بعد انتصاره في يوم الجمل
حتى تصدى له داهية العرب معاوية . فقد كان أعظم قرابة عثمان شأننا وأكثرهم
تحمساً في المطالبة بدمه . وأصبح النزاع سافراً بين بنى أمية المظاهرين لمعاوية وبين
بنى هاشم المظاهرين لعلى . وكان على ومعاوية في الشجاعة والبطولة فرسى رهان ،
وكادت الفتنة تطيح بالعالم الإسلامى كله . ووقف الفريقان يوم صفين وتهيئوا
للصراع وسفك الدماء . وقد صورت أم الخير بنت الحريش البارقية الخلاف
بين على ومعاوية ، وذكرت أسبابه في تلك الخطبة التي القتها يوم صفين :

يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شئ عظيم . إن الله قد أوضح الحق
وأبان الدليل ونور السبيل ورفع العلم ، فلم يدعكم في عمياء مبهمة ولا سوداء مدلهمة .
فإلى أين تريدون رحمكم الله ؟ أفراراً عن أمير المؤمنين ؟ أم فراراً من الزحف ؟ أم

رغبة عن الاسلام؟ ام ارتدادا عن الحق؟ أما سمعتم الله عز وجل يقول: «ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم» (سورة محمد ٤٧ : ٣١) . إنها إحن بدرية ، واحقاد جاهلية ، وضغائن أحمدية ، وثب بها معاوية حين الغفلة ليدركها ثارات بنى عبد شمس .»

وقد أصر معاوية على أن يقاتل عليا بجند الشام بعد أن أوغر صدورهم عليه، لإيوائه قتلة عثمان في جيشه . فلما بلغ عليا أن معاوية استعد للقتال ودعه أهل الشام ، توجه إلى الكوفة، ثم سار منها إلى صفين في تسعين ألفا، وسار معاوية من الشام في خمسة وثمانين ألفا. ثم كانت خدعة التحكيم واجتمع الحكمان : ابو موسى الاشعري عن علي، وعمرو بن العاص عن معاوية، وذلك في شهر رمضان سنة ٣٧ هـ . في هذا اليوم المشهود تجلى دهاء عمرو بأجلى مظاهره ، إذ استدرج أبا موسى حتى خلع عليا وثبت عمرو موكله معاوية . وهكذا استطاع معاوية بدهائه وبعد نظره وحسن حيلته أن ينجو من هزيمة محققة . فقد دب الخلاف في جند علي ، وظهر الخوارج، وخذله الكثيرون، وازداد أنصار معاوية عددا، والتف حوله الجند التفافا، وتفانوا في نصرته والدفاع عنه، في الوقت الذي كان فيه معاوية يعتمد على أهل الشام المعروفين بالولاء والإبقاء على اليهود ، بينما كان علي يعتمد على أهل الكوفة .

ثم قتل علي بن أبي طالب بالكوفة غدرا، فخلا الجو لمعاوية، وأخذ المسلمون يسارعون إلى بيعته؛ فقد بايعه الصحابة في المدينة والحجاز، كما بايعه الذين تخاذلوا عن بيعته أول الأمر . هكذا نال معاوية الخلافة بحد السيف تارة وبالمكيدة والسياسة تارة أخرى . فقد دعا المسلمون إلى الحسن بن علي بعد قتل أبيه واستخلفوه . إلا أن خلافته لم تثبت أمام قوة معاوية، وما كان من رواج الاشاعة بانهزام جيوشه أمام جند الشام، مما أدى إلى تخلي أهل العراق عنه، فلم يجد بدا من النزول عن الخلافة حقنا لدماء المسلمين .

وفي اليوم الخامس والعشرين من شهر ربيع الثاني سنة ٤١ هـ دخل معاوية

الكوفة حيث أخذت له البيعة بحضور الحسن والحسين ابني علي ، واجتمع عليه الناس ، فسمى ذلك العام عام الجماعة. ثم رحل الحسن إلى المدينة ، ولزم منزله حتى مات ، وبقي معاوية في الخلافة تسع عشرة سنة (٤١ - ٦٠ هـ) .

استطاع معاوية في خلال هذه الفترة الطويلة ، أن يضع للحكومة الإسلامية أسساً قوية وأن يؤسس دولة وطيدة الأركان ثابتة الدعائم ، وأخذ يعمل على تأليف قلوب العرب ونشر الإسلام. فبعث عبد الله بن سوار إلى بلاد السند بما يلي خراسان ، كما أغزى المهلب بن أبي صفرة هذه البلاد ، حتى وصل إلى لاهور. وتوجهت هممة المسلمين في عهده نحو الشمال والغرب ، حيث الدولة الرومانية الشرقية التي كانت تغير على البلاد الإسلامية القريبة منها ، فرتب معاوية الغزو إليها براً وبحراً ، وبلغ أسطول الشام في عهده ألفاً وستمائة سفينة ، فتح بها عدة جهات كجزيرة رودس وبعض الجزر اليونانية. أما في البر فقد رتب الشواتي والصوائف . ودخل المسلمون بخارى بقيادة سعيد بن عثمان كما دخلوا سمرقند . وفي سنة ٤٨ هـ جهز معاوية جيشاً لفتح القسطنطينية براً وبحراً ، ولكن جيش العرب لم يستطع فتحها لمئات أسوارها ومنعة موقعها. وفي سنة ٥٠ هـ أرسل معاوية إلى عقبة بن نافع - وكان يقيم ببرقة وزويلة منذ أيام عمرو بن العاص عشرة آلاف جندي ، فدخل إفريقية وتمكن من فتحها ، وأسلم على يديه كثير من البربر الذين عمل العرب على ادخالهم في جيوشهم ، وتسنى لهم أن يجذبوهم إلى الإسلام حتى وصل إلى بلاد السودان . وفي عهد معاوية تأسست القيروان على يد عقبة بن نافع الفهري الذي بنى بها المسجد الجامع ، فأصبحت مقراً لمعسكر المسلمين وأهلهم وأموالهم . واتخذ معاوية الوزراء وإن لم يلقبوا بلقب وزير ، مثل زياد بن أبيه ، كما أدخل نظام البريد في الإسلام ، وشيد بدمشق قصر الخضراء .

كان معاوية داهية من دهاة العرب ومن أوفرهم حظاً في السياسة . كان عاقلاً في دنياه ، ليبياعاً لما حلماً جيد السياسة حسن التدبير لأمور الدنيا ، عاقلاً حكيماً فصيحاً بليغاً ، يحلم في موضع الحلم ويشدد في موضع الشدة . إلا أن الحلم كان أغلب

عليه . وكان كريما باذلا للمال محبا للرياسة مشغوفا بها . كان يفضل على أشراف رعيته كثيرا ، فلا يزال أشراف قریش ، مثل عبد الله بن العباس وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن جعفر وعبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن أبي بكر وأبان بن عثمان ابن أبي بكر يفتدون عليه بدمشق ، فيكرم مشواهم ويحسن قراهم ويقضى حوائجهم . ولا يزالون يحدثونه أغلظ الحديث ويحبونه أقبح الجبه ، وهو يداعبهم تارة ويتغافل عنهم أخرى ، ولا يعيدهم إلا بالجوائز السنينة والصلوات الجملة . قال يوما لقيس بن سعد بن عبادة رضى الله عنه ، وهو رجل من الأنصار : « يا قيس ! والله ما كنت أود أن تنكشف الحروب التي كانت بيني وبين علي عليه السلام وأنت حي ، فقال قيس : والله إنى كنت أكره أن تنكشف تلك الحروب وأنت أمير المؤمنين ، فلم يقل له شيئا . » ومن أمثلة ذلك الحلم أن المسور بن مخرمة وفد على معاوية بدمشق ؛ فلما دخل عليه سلم ، فقال له معاوية : « ما فعل طعنك على الأئمة يامسور ؟ » فقال المسور : دعنا من هذا وأحسن فيما قدمنا له . قال : والله لتكلمن بذات نفسك . قال المسور : فلم أدع شيئا أعيبه عليه إلا بينته ، فقال معاوية : لا أتبرأ من الذنوب ، فمالك يامسور ذنوب تخاف أن تهلك إن لم يغفرها الله لك ؟ قال : بلى ! فقال معاوية : فما جعلك أحق أن ترجو المغفرة منى ؟ فوالله لما إلى من الإصلاح بين الناس وإقامة الحدود والجهاد في سبيل الله والأمر العظام التي لست أحصيها ولا تحصيها ، وإنى لعلى دين الله ، يقبل الله فيه الحسنات ، ويعفو عن السيئات ، والله لعلى ذلك . ما كنت لأخبر بين الله وبين سواه إلا اخترت الله على ما سواه .

كان معاوية يجعل يومه قسمة بين الله وبين شؤنه الخاصة . كان إذا صلى الفجر جلس للقاص حتى يفرغ من قصصه ، ثم يدخل فيؤتى بمصحفه فيقرأ أجزاءه ، ثم يدخل إلى منزله فيأمر وينهى ، ثم يصلى أربع ركعات ، ثم يخرج إلى مجلسه فيأذن لخاصة الخاصة فيحدثهم ويحدثونه ، ويدخل عليه وزراءه فيكلمونه فيما يريدون . ثم يؤتى بالغداء الأصغر ، ثم يدخل منزله ، ثم يخرج فيقول : يا غلام ! أخرج الكرسي !

فيخرج إلى المسجد فيوضع ، فيسند ظهره إلى المقصورة ويجلس على الكرسي . ويقدم الأحداث ، فيتقدم إليه الضعيف والأعرابي والصبي والمرأة ومن لا أحد له ، حتى إذا لم يبق أحد دخل فجلس على السرير ، ثم يقول : ائذنوا للناس على قدر منازلهم ، ولا يشغلني أحد عن رد السلام .

اتفق الخوارج فيما بينهم على أن يقتلوا أطراف النزاع : عليا ومعاوية وعمرو ابن العاص ، فقتلوا عليا بالكوفة . ولكن معاوية لم يكن أجله قد حان بعد ، حتى كان النصف من رجب سنة ستين ، فحضرته الوفاة بدمشق ، وتوفي بها وهو ابن ثمان وسبعين سنة . وكانت خلافته تسع عشرة سنة وثلاثة أشهر وعشرين يوما .

رحم الله معاوية ورحم من ترحم عليه !

٢٥ - عبد الله بن الزبير

كريم الجدات والأمهات والخالات

من أعلام الإسلام عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب. وهو من أكرم بيوتات العرب وأطيبهم منبأ. فأبوه الزبير بن العوام ابن عمه الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام، وابن أخى خديجة بنت خويلد زوج الرسول. وكانت فاطمة الزهراء بنت عمه الزبير بن العوام الذى يُعدُّ فى طليعة الصحابة الذين آزرُوا الرسول ونصروه، واشتركوا فى رفع لواء الإسلام. وأمه أسماء بنت أبى بكر الصديق ذات النطاقين، التى اشتهرت برواية الحديث، وعُرفت بالشجاعة والتقوى والورع؛ وخالته عائشة أم المؤمنين. فعبد الله بن الزبير - كما قال ابن عبد البر - كريم الجدات والأمهات والخالات.

لما هاجر الرسول عليه الصلاة والسلام الى يثرب، خرجت أسماء بنت أبى بكر، وهى حامل، مع من خرج من المهاجرين. فلما بلغت قُـسْبَاء على مقربة من يثرب، ولدت عبد الله، فكان أول من وُلد للمسلمين بعد الهجرة. وقد نالت ذلك الطفل نفحة من نفحات النبى الكريم. فقد خرجت به أمه فأنت الرسول فوضعتة فى حجره، فدعا بشمرة فضغها، ثم تفل فى فيه، فكان أول شئ دخل جوف عبد الله ريق رسول الله. ثم حنكه الرسول بالخبرة، ودعا له، وضمه إليه، وكنىه باسم جده وصديقه أبى بكر، وسماه باسمه.

هكذا شب عبد الله فى حجر النبوة، وأصبح من المقربين إلى قلب الرسول بعد أن تزوج من خالته عائشة. وساعد على ذلك أن عائشة لم تنجب، فعاملت ابن أختها معاملة الأبناء، فكلاؤه بعنايتها، وبسطت له جناح رعايتها. وهكذا

نشأ عبد الله بن الزبير في بيت أسس على التقوى : فأبوه ذلك الصحابي الجليل الذي شهد المشاهد كلها ، والذي قدر الرسول له قدره ، وعرف له سبقه الى الإسلام ، وصدق إيمانه بدعوته وتعلقه بمحبته ، حتى قيل إنه أول من سل سيفاً في الله عز وجل . وأم عبد الله هي بنت الصديق حبيب الرسول وصفيه الذي كان له كظله في سرائه وضرائه . حتى إذا بلغ عبد الله السابعة من عمره أحضره أبوه الزبير الى الرسول ليبايعه ، فلما رآه مقبلاً تبسم وبايعه .

في هذه البيئة المباركة الزكية الطاهرة التي تتضوع بأريج التقى وتزخر بسير الشهداء وأنباء النصر على الأعداء ، أخذ عبد الله يشب عن الطوق ، ففتفتح عيناه على ما يطهر قلبه ويثبت جنانه ، ويحكم صلته بنيه وبربه . حفظ القرآن وتفقه في الدين وجمع الحديث ، وكان صواماً قواماً طويل الصلاة ، نهاره صائم وليله قائم . فلما انتقل الرسول إلى جوار ربه ، وآلت الخلافة إلى جده أبي بكر ثم إلى عمر ، كان صاحبنا قد شب عن الطوق وترعرع ، وأصبح قتي شجاعاً ينبض قلبه بالتقوى والورع ، ويجيش صدره بحب الله وخشيته ، فلم يشأ أن يبقى في الحجاز فيحيا حياة الدعة والخمول ، وهو ابن الزبير البطل المغوار الذي اشترك في فتح مصر ، وآثر أن ينضوى تحت لواء المجاهدين في سبيل الله عسى أن يستشهد فيكتب له الخلود مع الخالدين .

ذلك أن الجيش الذي خرج به عبد الله بن سعد بن أبي سرح لغزو إفريقية في سنة ٥٢٧ هـ ، قد انقطعت أخباره عن مركز الخلافة ، فأرسل للخليفة عثمان رضى الله عنه عبد الله بن الزبير في جماعة لموافاته بأخبارهم . فلما وصل عبد الله الى إفريقية ، لم ترقه خطة ابن أبي سرح في قتال الأعداء ، إذ كان يقاتلهم كل يوم الى وقت الظهيرة ، ثم يعود الجيشان الى معسكرهما في اليوم التالي . فأشار عليه عبد الله بتقسيم جيش المسلمين إلى فرقتين : إحداهما تسير لقتال العدو أول النهار ، وتأخذ الأخرى قسطها من الراحة وتستعد لمباغته العدو . فما كان من ابن أبي سرح إلا أن نزل للفتى عبد الله عن قيادة الجيش لتنفيذ الخطة التي أشار بها . فلما حان

الموعد المضروب لانصراف الجيشين ، استعدت الفرقة التي لم تخرج للحرب أول النهار، وهجم بها على العدو الذي نهكته الحرب ، ثم غشيه في خيامهم وهزمهم هزيمة منكرة ، وقتل ملكهم جرجير ، وتم النصر للمسلمين . ولولا خطة ابن الزبير وحيلته لما أحرز المسلمون هذا النصر وغنمو امن هذه الحرب هذه المغنم الكثيرة ، حتى لقد قيل إن سهم الفارس بلغ ثلاثة آلاف دينار ، والراجل ألف دينار .

عاد ابن الزبير الى المدينة وأخبر الخليفة عثمان بانتصار المسلمين وما غنموه في ذلك الفتح ، فسر بذلك سرورا عظيما ، واستبشر المسلمون وفرحوا .

ثم قتل عثمان وانتشرت الفتنة بالمدينة المنورة ، فاضطرت ناراً ، وبويع لعل بالخلافة . ولكن عبد الله بن الزبير لم تطب نفسه بذلك ، فاشترك مع المطالبين بثأره وقاتل عنه ، فلم يرض على عن مسلكه هذا ، فقال : « مازال الزبير منا أهل البيت حتى نشأ عبد الله » . فلما نشب القتال بين جند علي من ناحية ، وبين بني أمية وعائشة وطلحة والزبير من ناحية أخرى ، اشترك عبد الله معهم في قتال علي . وكان عبد الله على رأس الرجالة ، فسقط جريحا بين القتلى ، وظنت عائشة أنه قتل ، وجزعت جزعا شديدا ، وأرسلت من يبحث عنه بين جيش الموتى ، فعشروا عليه وقد أثخته الجراح ، حتى قيل إنه كان به بضع وأربعون جراحا . فلما علمت عائشة بنجاة ابن أختها ، سرت سرورا عظيما ، وأعطت البشير الذي بشرها بنجاته عشرة آلاف درهم . كيف لا وقد أرادت أن تجعل منه خليفة للمسلمين ؟

على أن ما أصاب عبد الله في موقعة الجمل قد زهده في الانضواء تحت لواء أحد الفريقين المتنافسين ، حتى إذا انتصر معاوية بن أبي سفيان على جيش علي بن أبي طالب يوم صفين وانتهى التحكيم بمبايعة معاوية ، كان عبد الله فيمن بايعه بالخلافة .

وقد عرف معاوية لعبد الله بن الزبير شدة بأسه في القتال ، فلما جهز جيشا لفتح القسطنطينية في سنة ٤٨ هـ ، كان عبد الله بن الزبير في طليعة المشتركين من

الصحابة ، من أمثال عبدالله بن عباس ، وعبدالله بن عمر ، وأبي ايوب الأنصاري ، فساروا حتى بلغوا القسطنطينية ، واقتتل المسلمون والروم ، ولم يستطع جيش العرب فتح القسطنطينية ، لمتانة أسوارها ومنعة موقعها ، وفتك النار الإغريقية بسفن المسلمين .

ولكن معاوية خرج على ما أجمع عليه المسلمون من جعل الأمر شورى بينهم يختارون للخلافة من يصلح لها ؛ فعمل على أخذ البيعة لابنه يزيد ، فكتب إلى مروان بن الحكم عامله على المدينة يقول : « إني قد كبرت سني ودق عظمي ، وخشيت الاختلاف على الأمة من بعدي . وقد رأيت أن أتخير لهم من يقوم بعدي ، وكرهت أن أقطع أمرا دون مشورة من عندك ؛ فأعرض ذلك عليهم ، وأعلنني بالذي يردون عليك . . . » فلما عرض مروان هذا الأمر على الناس ، هاج القوم وماجوا ، فقال عبد الرحمن بن أبي بكر : « ما الخيار أردتم لأمة محمد ، ولكنكم تريدون أن تجعلوها هرقلية ، كلما مات هرقل قام هرقل ، وأقام الحسين ابن علي فأنكر ذلك ، وفعل مثله عبدالله بن الزبير . ومن ثم ظهر حزب المعارضة الذي أنكر البيعة ليزيد ، وعلى رأسه عبد الرحمن بن أبي بكر ، والحسين ابن علي ، وعبد الله بن الزبير . واستعمل معاوية كل ضروب الحيل والدهاء ، وزار المدينة المنورة لأخذ البيعة لابنه ، وتكلم مع المخالفين في شأن البيعة ، فقال عبدالله ابن الزبير : « نخيرك بين ثلاث خصال . قال : اعرضهن ! قال : تصنع كما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو كما صنع أبو بكر ، أو كما صنع عمر . » قال معاوية : « ما صنعوا ؟ » قال : « قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يستخلف أحدا فارتضى الناس أبا بكر . » قال : « ليس فيكم مثل أبي بكر وأخاف الاختلاف . » قالوا : « صدقت ، فاصنع كما صنع أبو بكر ، فإنه عهد إلى رجل من قاصية قريش ليس من بني أبيه فاستخلفه ، وإن شئت فاصنع كما صنع عمر . » وأخذت البيعة ليزيد برغم معارضة عبد الله وغيره من الصحابة رضوان الله عليهم . وهذا يدل على الشجاعة الأدبية الفائقة التي كان يتمتع بها عبد الله ، فلم يتردد في أن يقول الحق

في وجه معاوية خليفة المسلمين ، وعارضه جهارا ، وامتنع عن بيعه يزيد ، وضرب صفحا عما ناله من إيذاء في سبيل التمسك برأيه .

فلما استخلف يزيد وخرجت بلاد الحجاز عن طاعته ، كان عبدالله بن الزبير على رأس المعارضين لسياسته ، فبعث يزيد مسلم بن عقبة المري لقتال أهل الحجاز ، فدخل المدينة وأباحها للسلب ثلاثة أيام ، ثم سار إلى مكة ، ومات وهو في طريقه إليها . وبإيعاد عبدالله بن الزبير لنفسه بالخلافة وتبعه أهلها ، وانتصر على جيش يزيد بمساعدة أهل الحجاز وبعض الخوارج برغم مخالفتهم له في مبادئهم . ولما لامه بعض أنصاره على ذلك قال : « لو شايعتني الترك والديلم على قتال أهل الشام لشايعتها » . كما أعانه أيضا المختار بن أبي عبيد الثقفي ، ورمى الأمويون البيت بالمنجنيق . وقد رأى بعض المسلمين في الاستيلاء على مكة والمدينة ضرورة دعا إليها موقف أهل الحجاز العدائي ، وأن إحراق الكعبة لم يكن مقصودا ، وإنما الذي قصده الأمويون هو الجزء الذي زاده عبد الله بن الزبير . ولكن يزيد لم يلبث أن توفي ، ورفع الحصار عن مكة . وبإيعاد الحصين بن نعيم قائد الجند الأموي ابن الزبير على شريطة أن ينتقل إلى الشام ، فأبى ابن الزبير ، لأنه أراد أن يعيد إلى بلاد الحجاز مجدها ويجعلها مركزا للخلافة . ولو أن ابن الزبير سار إلى الشام لآلت الخلافة إليه واستقر له الأمر . ولم يكن عبدالله بن الزبير ليجرؤ على أن يدعو إلى نفسه في حياة الحسين بن علي . حتى إذا أنتقل الحسين إلى جوار ربه في موقعة كربلاء سنة ٦١ هـ ، أعلن ابن الزبير دعوته وأظهر أحقيته بالخلافة . وكانت مأساة كربلاء من أهم العوامل التي ساعدته على تحقيق أمنيته . ولقد بكى الحسين واستبكى الناس عليه وأظن في مآثره ، ولام أهل الكوفة على تخليهم عن الحسين ، ونالت خطبه قبولا من نفوس العلويين . وأهل الحجاز والساخطين على الحكم الأموي ، فالتفوا حوله ، وناصروه وآزره ، ورأوا فيه الزعيم المنشود الذي يأخذ بثأر الحسين ويخلصهم من الحكم الأموي . وقد رأى عبدالله بن الزبير أن الوقت لم يحن بعد لإعلان دعوته ، فاحتوى بالكعبة مكتفيا بلقب « العائد بالبيت » . ولكنه بعمله

هذا أتاح الفرصه للأمويين ليوحدوا كلمتهم ، ويلبوا شعهم ، ويقفوا في وجهه هذا ما يراه بعض المؤرخين ؛ أما البعض الآخر ، فيرى أنه لم يطمئن الى وعود القائد الأموي وخشى أن يكون ذلك مكيدة تنطوي على ابعاده عن ذلك المكان الذي تحرز فيه والذي يأوى أنصاره الذين كانوا يستميتون في الدفاع عنه . ونرى ذلك واضحا فيما قاله ابن الزبير للحصين : « لا والله لأفعل . لا أو من من أخاف الناس وأحرق بيته وانتهاك حرمة الله . »

انتشرت دعوة ابن الزبير في العراق ومصر في خلافة معاوية الثاني ومروان ابن الحكم ، حتى ولى عبد الملك بن مروان الخلافة في سنة ٦٥ هـ فوجد الأمة العربية كادت تمزقها العصبية القبلية التي دأب النبي صلى الله عليه وسلم على إخمادها ، حتى أشرفت الدولة الأموية على الزوال ، لولا أن أتاح الله لها عبد الملك بن مروان الذي وجه همه لقتال ابن الزبير ، وسيّر اليه الحجاج بن يوسف الثقفي ، الذي سار الى مكة ، فحاصرها وأرغم أهلها على طلب الأمان . وأخفقت سياسة عبد الله ابن الزبير ، لانه جعل مقر حكومته في الحجاز الذي انصرفت عنه العناصر السياسية الى الشام والعراق ، فأصبح مأوى الطبقة الارستقراطية التي مالت الى حياة اللهو والمجون ، حتى إن دعوة ابن الزبير لم تلق قبولا لديهم .

على أن العظة والعبرة التي نستخرجها من محنة ابن الزبير ، هي أن الأم الطيبة المنبت تنفت في صدر ابنها من قوتها قوة ، ومن إيمانها إيمانا . فقد كره عبد الله إهدار دماء المسلمين وأراد أن ينكص على عقبه ، فدخل على أمه أسماء فقال لها : إن الموت لراحة ، فقالت له : لعلك تمنيته لي ، ما أحب أن أموت حتى يأتي علي أحد طرفيك : إما قتلت فاحتسبك ، وإما ظفرت بعدوك فتقر عيني . ثم دخل عليها في اليوم التالي فقالت له : لا تقبلن منهم خطة تخاف فيها على نفسك الذل مخافة القتل ، فوالله لضربة بسيف في عز ، خير من ضربة بسوط في ذل . فخرج الى الناس وقاتل في المسجد حتى قتل رحمه الله في سنة ٧٣ هـ .

وقد ضربت أسماء بنت الصديق أروع الأمثلة لأشجع الأمهات وأكرمهن ؛

فلما حمل اليها نبأ استشهاد ابنها عبد الله غسلته وكفنته ، ثم قامت فصلت عليه .
وكانت تقول قبل ذلك : اللهم لا تمتني حتى تقر عيني بجثته ! . ولكنها برغم هذا
ظلت تندبه وتبكيه حتى كف بصرها . وكانت تقول : والله ما كان منافقا ولكنه
كان صواما قواما وصولا ! . ثم ماتت بعد ذلك بقليل .

كان عبدالله — وهذه سيرته — تقياورعا ، صواما قواما ، طويل الصلاة ، عظيم
الشجاعة ، قسم الدهر على ثلاث ليال : فليلة هو قائم حتى الصباح ، وليلة هو
راكع حتى الصباح ، وليلة هو ساجد حتى الصباح . وكان يطيل القراءة في الصلاة .
وقد عرف عبدالله بن الزبير كيف يستغل عبث يزيد بن معاوية ومجونه لمصلحة
دعوته ، فكان يقول حين يخطب الناس : يزيد الخمر ، ويزيد الفجور ، ويزيد
الفهود ، ويزيد القرود ، ويزيد الكلاب ، ويزيد النشوات ، ويزيد الفلوات ، .
روى عن عبدالله بن سعيد أنه قال : ركع ابن الزبير يوما ركعة فقرأت البقرة
وآل عمران والنساء والمائدة وما رفع رأسه . وروى هشيم عن مغيرة أنه قال :
رأيت ابن الزبير يواصل من الجمعة الى الجمعة ، فاذا كان عند إبطاره من الليلة
المقبلة ، يدعو بقده ثم يدعو بقعب من سمن ، ثم يأمر فيحلب عليه ، ثم يدعو
بشيء من صبر فيذره عليه ثم يشربه . فأما اللبن فيعصمه ، وأما السمن فيقطع عنه
العطش ، وأما الصبر فيفتح أمعاه .

أما عن شجاعته ، فقد رأينا موقفه في حرب إفريقية وما كان من انتصاره
على جرجير ملك الروم ، كما رأينا موقفه في مكة : تفرق عنه أنصاره فأبى أن
ينكص على عقبيه ، ثم حمل على أعدائه ، وكان يضرب بسيفين ويقول :

لو كان قربي واحد كُفَيْتَه

أوردته الموت وذكَيْتَه

وكان يقول :

ولسنا على الأعقاب تدّ مى كلومنا

ولكن على أقدامنا يقطرُ الدّم

كما قاتل عن عثمان وحارب عليا ووقف في وجه معاوية .

هذه سيرة عبدالله بن الزبير ابن بنت الصديق، وحفيد صفيّة بنت عبد
المطلب عمّة الرسول، وابن أخت عائشة أم المؤمنين، وأحد مشاهير الصحابة
رضوان الله عليهم أجمعين، وأعلام المسلمين المبرزين. جعل الله هذه عظة
للمتعظين العاملين ليوم الدين .

٢٦ - عبد الملك بن مروان

ماذا كرتُه حديثاً إلا زادني فيه ولا شعراً إلا زادني فيه

تحدث عن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس ابن عبد مناف . وأمه عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن أبي العاص بن أمية . يجتمع نسبه من جهة أبيه وأمه في أبي العاص ، وكان يضرب بأمه المثل في الخصال الحميدة والصفات الكريمة ، وفيها يقول عبيد الله بن الرقيات ممدحا عبد الملك :

أنت ابنُ عائشةَ التي فضلتُ أرومَ نساءها
لم تلتفتْ للداتها ومضتْ على غلوائها
وكدتْ اغرَّ مباركا كالشمس وسطاً سماها

ولد عبد الملك بالمدينة سنة ست وعشرين من الهجرة ، في خلافة عثمان بن عفان ونشأ نشأة عالية ، وأخذه أبوه بحفظ القرآن ، ورواية الحديث ، وحفظ الشعر حتى برع فيه . قضى عبد الملك طفولته في المدينة المنورة التي أصبحت حاضرة الدولة الإسلامية ، وتدفقت إليها الأموال وأخذ المسلمون يبنون فيها القصور ويشيدون الدور ويجيئون حياة مترفة هينة . وكان أبوه مروان بن الحكم من أقرب المقربين إلى عثمان الذي قر به إليه وأعطاه مالا كثيراً . في هذه البيئة المترفة شب عبد الملك ، كما يشب صبية بني أمية ، وترعرع في بحبوحة العز والترف بفضل ما حباه الله من أبوين كريمين وثروة طائلة .

ثم قضى عثمان بن عفان وهو لم يزل في التاسعة من عمره ، وثار الفتنة بين أنصار

على وأنصار معاوية . غير أن مروان بن الحكم آثر أن يعتمد عن هذه الفتن الدامية ، فاعتزل السياسة بعد موقعة الجمل ، وباع عليا وأقام بالمدينة ، وظل على ذلك حتى آتت الخلافة إلى معاوية . وكان عبد الملك قد بلغ من العمر خمسة عشر ربيعاً . قتي مو فور القوة راجح العقل ، قد أخذ من العلم بنصيب كبير . ولا غرو فقد كانت المدينة في ذلك العصر كهبة القصاد من العلماء والمحدثين والفقهاء ، فأغترف الفتي عبد الملك من ذلك المورد الزاخر ما شاء الله أن يغترف .

ثم توفي معاوية وخلفه ابنه يزيد . وكان عبد الملك قد بلغ الرابعة والعشرين من عمره ، اكتملت رجولته ، وتفنق ذهنه ، وصفت نفسه ، فانتقل هو وأبوه إلى دمشق ، حيث قرهما يزيد اليه وأكرمهما وبالغ في إكرامهما . ولا شك أن عبد الملك نعم بحياته الجديدة بدمشق ، حاضرة الأمويين وملاذمهم ، فقد كان البلاط الأموي قد بلغ في ذلك العهد الغاية في الروعة والأبهة .

نعم عبد الملك - شأنه في ذلك شأن شباب بني أمية - بمباهج هذه الحياة الجديدة . غير أنه كان يستنكر هذه السياسة الطائشة التي كان يسير عليها يزيد بن معاوية حين جهز جيشا إلى أهل مكة . فقد روى أن عبد الملك قال : أعوذ بالله ! أبيعث إلى حرم الله ؟ ولما علم بنبا الجيش الذي سيره يزيد لقتال عبد الله بن الزبير لم يقره عبد الملك على ذلك . روى يحيى الغساني قال : لما نزل مسلم بن عقبة المدينة ، دخلت مسجد رسول الله ﷺ فجلست إلى جنب عبد الملك ، فقال لي عبد الملك : أمن هذا الجيش أنت ؟ قلت . نعم قال شككتك أمك ! أتدرى إلى من تسير ؟ إلى أول مولود ولد في الإسلام ، إلى ابن حوارى رسول الله ﷺ وإلى ابن ذات الناطقين . أما والله إن جنته نهاراً وجدته صائماً ، ولئن جنته ليلاً لتجدنه قائماً ، فلو أن أهل الأرض أطبقوا على قتله لا كبهم الله جميعاً في النار .

ثم توفي يزيد بن معاوية وخلفه معاوية الثاني في سنة ثلاث وستين للهجرة ، ثم مات

معاوية الثاني سنة أربع وستين، فهاج عرب الشام، وكانوا عصب الدولة وقوتها بفضل اتحادهم وتماسكهم. غير أن هذه الوحدة ما لبثت أن تفككت أو صالها حين مالت كلب إلى بنى أمية وأصبحت قيس ضلعهم مع عبدالله بن الزبير، وانقسمت كلب نفسها: فمال فريق منهم إلى خالد بن يزيد وهو - وإن كان صغيراً - إلا أنه كان فصيحاً بليغاً. ومال فريق آخر إلى مروان بن الحكم، لسنه وشيخوخته. واستمر النزاع بين أنصار بنى أمية حتى عقدوا مؤتمر الجابية، وبايعوا فيه مروان بن الحكم بالخلافة في ذي القعدة سنة ٥٦٤. وكان عبد الملك قد بلغ الثامنة والعشرين من عمره. وقد اضطلع مروان بالحكم في وقت كادت الأحداث أن تطيح بالدولة الأموية، فقد خرج عبدالله بن الزبير بالحجاز وامتدت دعوته إلى مصر والعراق، غير أن مروان استطاع أن يقف في وجه ابن الزبير، وأن يقاوم مقاومة الأبطال. فقد استرد مصر وطرده عبد الرحمن ابن جحدم عامل ابن الزبير منها، وولى عليها ابنه عبدالعزيز بن مروان، وأعد جيشين سير أحدهما إلى الحجاز والآخر إلى العراق، ثم عاجلته المنية في سنة ٥٦٥ بعد أن عهد بالخلافة لولده عبد الملك.

اضطلع عبد الملك بن مروان بعبء الخلافة الفادح وهو في التاسعة والعشرين من عمره، في وقت كادت الأمة العربية أن تمزقها العصبية القبلية التي دأب النبي ﷺ على إخمادها حتى أشرفت الدولة الأموية على الزوال، لولا أن أتاح لها هذا الفتى الأموي الذي امتاز برجاحة العقل، والقدرة على تصريف الأمور والحزم في غير عنف واللين في غير ضعف. ولولم يقدر لعبد الملك أن تتول إليه أزمة الأمور في هذه الأوقات العصبية، لتفرقت كلمة المسلمين وأكلت العصبية الأخضر واليابس، وتبددت الجهود التي بذلها الخلفاء منذ وفاة الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام لنشر الإسلام وتوطيد دعائمه ووضع لوائه. وتتمثل هذه السياسة الرشيدة التي أخذ عبد الملك نفسه بها في هذه الخطبة التي خطبها بعد أن تمت له البيعة.

« أما بعد فلست بالخليفة المستضعف ، ولا الخليفة المداهن ، ولا الخليفة المأفون .
 الا وأن من كان قبلي من الخلفاء كانوا يأكلون ويطعمون من هذه الأموال ، ألا
 وإني لا أداوي ادواء هذه الأمة إلا بالسيف حتى تستقيم لي قناتكم . تكافوننا
 أعمال المهاجرين ولا تعملون مثل أعمالهم ؟ . فلم تزدادا إلا عقوبة حتى يحكم السيف
 بيننا وبينكم . هذا عمرو بن سعيد ، قرابته قرابته وموضعه موضعه ، قال برأيه هكذا
 فقلنا بأسيافنا هكذا . ألا وإنا نحمل لكم كل شيء إلا وثوبا على أمير أو
 نصب راية » .

وكانت الدولة الاسلامية في ذلك العهد أحوج ما تكون إلى هذه السياسة
 الحازمة الصارمة لترأب الصدع وتلم الشعث وتلزم السائرین حدودهم ، وقد استطاعت
 سياسة عبد الملك ابن مروان أن ترد إلى الأمة الاسلامية قوتها ، وان تقر السكينة
 والطمأنينة في الأمصار الاسلامية ، قاصيها ودانيها . ففي مصر انتشر السلام وامتد
 الأمن في عهد عبد العزيز بن مروان ، . وفي الحجاز قضى علي بن الزبير قضاء مبرما
 بفضل ساعده الأيمن الحجاج بن يوسف الثقفي الذي ولي الحجاز سنة ٧٣ هـ ، وظل بها
 إلى سنة ٧٥ هـ حتى استقامت قناته واستسلم المناوئون له . ويؤخذ على عبد الملك
 حصار مكة وضرب الكعبة بالمجانيق . على أن بعض المؤرخين يرى أن عبد الملك
 لم يرد أن يحط من شأن الكعبة ، وإنما اضطر إلى قتال عبد الله بن الزبير ، فحدث
 ما حدث عن غير قصد . وذلك أن الحجاج لما نصب المجانيق على الكعبة ، جعل
 هدفه الزيادة التي زادها ابن الزبير في الكعبة ، إذ كان الأمويون يعتبرون ذلك
 بدعا في الدين .

ثم سير عبد الملك الحجاج إلى العراق ، فدخل الكوفة وخطب أهلها خطبته
 المشهورة ، التي أندرهم فيها وتوعدهم . ثم سار إلى البصرة وفعل بأهلها ما فعل بأهل
 الكوفة ، واستطاع بسياسة الحزم والعنف أن يخضع العراق وما والاها من بلاد المشرق

نسلطان عبد الملك الذي توطدت دعائم ملكه، فانتشر الأمن في بلاده بقضل يقظته ودأبه على العمل لخير رعاياه. فقد كان يميل إلى إقرار العدل ويكره تخطي حدود الاعتدال في عقوبته، وتمثل هذه السياسة الرشيدة في وصية عبد الملك لأخيه عبد العزيز حين ولي مصر، إذ قال له: أبسط بشرك وألن كنفك، وآثر الرفق في الأمور فإنه أبلغ بك. وانظر حاجبك فليكن خير اهلك، فإنه وجهك ولسانك، ولا يقفن أحد ببابك الا أعلمك مكانه لتكون أنت الذي تأذن له أو ترده.

وفي عهد عبد الملك فتحت هرقله، وغزت جيوشه ارمينية وصنهاجة بالمغرب، وانتشر الاسلام في ربوع المغرب وبلاد ماوراء النهر، وبدأت الدولة الاسلامية أوفر ما تكون قوة واشد ما تكون وحدة. لذلك يعتبر عبد الملك بن مروان بحق المؤسس الثاني للدولة الأموية، لأنه أقام صرح مجدها على أسس لم يسبقه اليها من جاء قبله من الخلفاء. ولم يمض سبع سنين على خلافته حتى استنقمت له الأمور وهدأت الاحوال، وساد السلام في البقية الباقية من عهده وعهد من جاء بعده من أولاده.

ولكي يقيم ملكة على أسس سليمة، قام عبد الملك بعدة اصلاحات خلدها له التاريخ فقد ضرب الدينار الاسلامي لأول مرة في تاريخ الاسلام، وكان يرمى من وراء ذلك الى اصلاحات اقتصادية واسعة النطاق. ذلك أن ضبط الدينار سيضبط الخراج ويضبط الجزية، وبدعم المعاملات التجارية، فامتلاً بيت المال واستطاع عبد الملك بما يجمع لديه من أموال طائلة، أن يقوم بهذه الاصلاحات الواسعة النطاق. كما عرب الدواوين بعد أن كانت بالفارسية في العراق واليونانية في مصر والشام، فنقل ديوان مصر في اليونانية والقبطية الى العربية في عهد الوليد بن عبد الملك. وهو أول من كتب الكعبة بالديباج.

ولد عبد الملك في المدينة كما تقدم ودرج في ربوعها وشب تحت سمائها، فأشرب

قلبه الورع والتقوى والایمان الصحيح لمجاورته قبر الرسول عنیه افضل الصلاة والسلام .
فقد أخذ نفسه يحفظ القرآن ورواية الحديث والتفقه في الدين . قال ابن سعد : كان
عبد الملك زاهدا ناسكا بالمدينة قبل الخلافة . وقال نافع : لقد رأيت المدينة وما بها
شاب اشد تشميرا ، ولا افقه ولا انسك ولا أقرأ لكتاب الله من عبد الملك بن مروان .
وكان يكثر من الصلاة والخشوع لله روى يحيى بن سعيد قال : من صلى في المسجد ما
بين الظهر والعصر : عبد الملك بن مروان وفتيان معه ، كانوا اذا صلى الامام الظهر قاموا
فدخلوا الى العصر ، فقبل لسعيد بن المسيب ؟ لو قمتا فصلينا كما يصلي هؤلاء ، فقال سعيد
ابن المسيب : ليست العبادة بكثرة الصلاة والصوم ، وإنما العبادة التذكر في أمر الله
والورع عن محارم الله

وقد ضرب عبد الملك في العلم بسهم وافر ، فشهد له عبد الله بن عمر ، اذ قيل له : انكم
معشر اشياخ قريش يوشك ان تنقضوا فن نسأل بعدكم ؟ فقال ابن عمر : ان لمروان
ابنا فقيها فاسألوه . كما دخل عبد الملك على ابى هريرة رضى الله عنه ، فقال أبو هريرة
هذا يملك العرب . وقالت ام الدرداء لعبد الملك : ما رأيت أحسن منك محدثا ولا اعلم
منك مستمعا . وقال الشعبي . ما جالست احدا الا وجدت لى عليه الفضل الا عبد الملك
ابن مروان ، فاني ماذا كرته حديثا الا زادني فيه ، ولا شعرا الا زادني فيه . سمع عبد الملك
من عثمان و ابى هريرة وأبى سعيد وام سلمة ابن عمر ومعاوية ، وروى عنه عروة
والزهري ويونس بن ميسرة وغيرهم .

وكان عبد الملك بحكم ثقافته هذه بليغا فصيحجا . روى عن الاصمعي انه قال :
اربعة لم يخلفوا في جد ولا هزل : الشعبي وعبد الملك بن مروان والحجاج بن يوسف وابن
القرية . وكان عبد الملك يحفظ الشعر ويرويه ويستسيغه ويميز قائله الاجازة الحسنة دخل
عليه الاخطل يوما فأنشد :

شمس العداوة حتى يستفاد لهم واعظم الناس احلاما اذا قدروا

فقال عبد الملك : خذ بيده يا غلام فاخرجه ثم الق عليه من الخلع ما يغمره . ثم قال : ان لكل قوم شاعرا وشاعر بنى أمية الأخطل .

كان عبد الملك حكيما ، أجرى كلامه مجرى المثل فقد قيل له : من أفضل الناس؟ قال : من تواضع عن رفعة ، وزهد عن قدرة ، وأنصف عن قوة . وقال ابن عائشة : « كان عبد الملك اذا دخل عليه رجل من افاق من الآفاق قال : اعفتي من أربع وقل بعدها ماشئت : « لا تكذبني فان الكذوب لا رأى له ، ولا تجبني فيما لا أسألك فإن فيما لا أسألك عنه شغله ، ولا تطرنني فاني اعلم بنفسى منك ، ولا تحملي على الرعية فاني الى الرفق بهم أحوج ، حتى قيل عن عبد الملك : « معاوية احلم وعبد الملك احزم .

مات عبد الملك سنة ست وثمانين للهجرة . ولما اشرف على الموت قال والله لو ددت انى كنت منذ ولدت الى يومى هذا حمالا ، ثم اوصى بنيه بتقوى الله ونهاهم عن الفرقة والاختلاف وقال : كونوا بنى أم برره ، وكونوا فى الحرب وللمعروف منارا ، فان الحرب لم تدن منية قبل وقتها ، وإن المعروف يبقى اجره وذكره ، واحلوا فى مرارة ، ولبنوا فى شدة ، وكونوا كما قال ابن عبد الاعلى .

ان القداح اذا اجتمعن فراها بالكسر ذو حنق وبطش باليد عزت فلم تكسر وان هى بددت فالكسر والتوهين للمتبدد عاش عبد الملك زاهدا ومات زاهدا . اطيب الله ثراه وجعل الجنة مثواه .

٢٧ - الوليد بن عبد الملك

« رَحِمَ اللهُ الوليدَ وأينَ مثلَ الوليدِ » ؟

نتحدث الآن عن الوليد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص ابن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف . وأبوه عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي العظيم الذي يعتبر المؤسس الثاني للدولة الأموية ، وجده مروان بن عبد الحكم الذي أقال الدولة الأموية من عثرتها وأنقذها من الأخطار التي كادت أن تودي بها . وعهد الوليد هو العهد الذي ائنت فيه تمار الحضارة الأموية فربت واهتزت وانبتت من كل زوج بهيج . وفي عهده تألق بلاط الخلفاء بدمشق ، وتكدست الأموال في بيت مال المسلمين ، واستؤنفت الفتوح الإسلامية الكبرى بعد عمر بن الخطاب . وبلغت الدولة الإسلامية في عهده أقصى اتساعها ، فامتدت من جبال البرانس غربا إلى بلاد الصين شرقا ، ومن آسيا الصغرى شمالا إلى بلاد النوبة جنوبا .

توفي عبد الملك بن مروان سنة ٨٦ هـ ، فخلفه ابنه الوليد ، وكان أبوه قد أوصى له بالخلافة من بعده على أن يخلفه أخوه سليمان . وعلى الرغم من أن الوليد شب مترفا ، استطاع أن يقود الدولة الإسلامية في حزم اثار إعجاب المؤرخين واصحاب السير واستطاع برغم سوء رأى أهله فيه أن يوجه الفتوح الإسلامية توجيها يشهد له بحسن الحيلة وسعة الافق ورجاحة العقل .

ولم يحفظ التاريخ من سيرة الوليد الخاصة ما يستحق ان يذكر ، إنما خلد ذكر فتوحه العظيمه وآثاره الرائعة التي طاولت الزمن وبقيت على مر الايام وكر العصور . والواقع ان تاريخ الوليد هو تاريخ ثلاثة من أبطال الاسلام وأعلامه وفحولته ومشاهير قواده

الفاتحين ، الذين دوخوا البلاد وأوغلوا في الغزو وبسطوا رقعة الدولة الإسلامية ، ونعني بهم : قتيبة بن مسلم الباهلي ، فاتح بلاد ماوراء النهر ، ومحمد بن القاسم بن محمد الثقفي ، فاتح بلاد السند ، وموسى بن نصير ، الذي آتم فتح بلاد المغرب وفتح بلاد الاندلس . وتشهد سير هؤلاء الأبطال بما أوجب ذلك العصر من مشاهير الرجال . ولن نخرج عن الموضوع إذا نحن عرضنا لما قام به كل من هؤلاء في إعلاء لواء الإسلام ، والتضحية في سبيل ذلك بكل ما يملكون من جهد . ولا شك أنهم استمدوا هذه القوة الخارقة والقدرة الفائقة من روح ذلك العاهل الأموي الذي كان يجلس على عرش الخلافة في دمشق ويوحى إلى القادة بما يفعلون .

أما قتيبة بن مسلم ، فقد ولاء الحجاج خراسان سنة ٥٨٦ هـ ، فخرج إلى بلخ فتلقيها دهاقينها وعظاؤها وساروا معه . ولما عبر نهر جيحون قابله ملك الصغانيين واهدى إليه كثيرا من الهدايا وسلم إليه بلاده . ثم توالت انتصاراته ، ففي سنة ٨٧ غزا بيكند ، وتقع على مرحلة من بخارى ، حيث أغار الصغد وقتلهم قتالا شديدا ، فانهزموا وتفرقوا وطلبوا الصلح . وفي ربيع سنة ٥٨٨ كانت الراية الإسلامية تحفق ببلاد كرمينية بنواحي الصغد بين سمرقند وبخارى . ثم سار قتيبة إلى بخارى فتم له فتحها بعد أن لقي عناء كبيرا . وفي سنة ٥٩٣ هـ فتح مدن خوارزم صلحاء ، ثم فتح سمرقند بعد قتال شديد ، ووطد مركزه في بلاد ماوراء النهر . وقد قرر هذا الفاتح العظيم أن يمد حدود الدولة العربية في أواسط آسيا ويعبر نهر جيحون ميمما شطر بخارى ، حيث التقى بجيش مؤلف من عشرين ألف مقاتل من خوارزم وبخارى وكش ونسف ، وانتصر انتصارا مبينا .

وقد قدر الخليفة الوليد لقائده العظيم هذه الأعمال ، فأرسل إليه يقول : « قد عرف أمير المؤمنين بلاءك وجدك واجتهادك في جهاد أعداء المسلمين ، وأمر المؤمنين رافعك وصانع بك الذي يجب لك . فآتمم مغازيك وانتظر ثواب ربك ، ولا تغيب عن أمير المؤمنين كتبك حتى كأني أنظر إلى بلائك والثغر الذي أنت فيه . »

وكان من أثر فتح بلاد ماوراء النهر أن دخل الإسلام فيها . ذلك أن قتيبة لما
وصل إلى سمرقند، وجد فيها كثيرا من الأصنام . وكان عبادها يعتقدون أن كل من
اعتدى عليها مات لساعته . على أن ذلك الفاتح المسلم لم يأبه لهذه المخاوف التي أثارها
تلك الخرافات . ومن ثم لم يحجم عن إحراق الأصنام . وقد روى المؤرخون أن قتيبة أتى
بالأصنام ، فكانت كالعصر العظيم وأخذ ما عليها ، وأمر به فاحرقت ، فجاءه غوزك فقال :
ان شكرك على واجب . لا تتعرض لهذه الأصنام ، فإن منها أصناما من إحراقها هلك
فقال قتيبة : أنا أحرقها بيدي ، فدعا بالنار فكبر ، ثم أشعلها فاحترقت . »

ولكن أطماع قتيبة لم تقف عند حد ، إذ أراد أن تدرك جيوش المسلمين مشارف
بلاد الصين ، فمضى قدما في سنة ٩٦ هـ إلى حدود الصين على رأس جيش كثيف
من المسلمين . وبينما هو في طريقه إليها ، جاءه نبأ وفاة الوليد ، فلم يثنه ذلك عن
مواصلة الغزو ، بل تابع سيره حتى قرب من بلاد الصين . فأرسل إلى ملكها وفدا
برياسة هبيرة بن المشرج الكلابي . وبعد أن دارت بينه وبينهم عدة مراسلات ،
قال ملك الصين . وجهها كلامه إليه : « انصرفوا إلى صاحبكم فقولوا له ينصرف ،
فأني قد عرفت حرصه وقلة أصحابه ، وإلا أبعث عليكم من يهلككم ويهلكه . فقال
هبيرة : « كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله في بلادك وآخرها في
منايت الزيتون ؟ وكيف يكون حريصا من خلف الدنيا قادرا عليها وغزاك ؟ وأما
تخوبتك إيانا بالقتل ، فإن لنا آجالا ، إذا حضرت فأكرمها القتل ، فلسنا نكرهه
ولا نخافه . » فأجابه ملك الصين : « فما الذي يرضى صاحبك ؟ فقال هبيرة . إنه قد
حلف ألا ينصرف ، حتى يطاء أرضكم ، ويختم ملوككم ، ويعطى الجزية ، فدفع الملك
الجزية ، وعاد قتيبة إلى مرو . »

أما القائد الثاني الذي يفخر به عهد الوليد ، فهو محمد بن القاسم بن محمد الثقفى ،
الذي عهد إليه الحجاج بن يوسف أن يغزو بلاد الهند . فسار إليها في سنة ١٩ هـ وحاصر

نغر الديبل وفتحته عنوة، وواصل فتوحه في هذه البلاد، حتى بلغ نهر السند، وكان يعرف
إذ ذاك باسم نهر مهران. وهنا التقى محمد بن مسلم بداهر ملك السند، وكان هو وجنده
يقاتلون الفيلة فاقتتلوا قتالاً شديداً انتهى بقتل داهر وهزيمة أصحابه، وقال رجل من
محمد مفاخرأ:

الخليل تشهد يوم داهر والقنا ومحمد بن القاسم بن محمد
إني فرجت الجمع غير معرد حتى علوت عظيمهم بمهند
وتركته تحت المجاج مجدلا متعفر الخدين غير موسد

وبذلك استطاع محمد بن القاسم أن يمد فتوحه في كافة بلاد السند، ثم تابع هذه
الفتوح حتى وصل إلى الملتان ودخاها.

وفي هذه الأثناء كان التوفيق يحالف جنود المساهين في جهة أخرى ذلك أن موسى
ابن نصير مولى عبد العزيز بن مروان، قد قلده الوليد بن عبد الملك إفريقية في
سنة ٨٨ هـ، فخرج من مصر على رأس جيش قاصداً هذه البلاد. فلما بلغها ضم إليه جيشاً
آخر جعل على مقدمته موله طارق بن زياد. وقد أخذ موسى يقاتل البربر ويبسط
نفوذ الأمويين وينشر الإسلام في أرجاء بلاد المغرب حتى بلغ طنجة، وكانت قصبة
بلادهم وأم مدائنهم، فحاصرها حتى تم له فتحها وأسلم أهلها. وبهذا تمكن موسى من
فتح بلاد المغرب كلها، ولم يقف في طريقه غير قلاع سبته الحصينة على مجاز الزقاق.
وكانت كغيرها من بلاد جنوبي بحر الروم تحت حكم امبراطور الروم خير
أنها لبعدها عن القسطنطينية كانت تتوجه إلى مملكة اسبانيا بطلب المعونة.

وكما تطلع قتيبة بن مسلم إلى حدود الصين ومحمد بن القاسم إلى بلاد السند، تشوق
موسى بن نصير إلى بلاد الأندلس عبر بحر الزقاق، فأراد أن يكتسب إلى الإسلام
نصراً جديداً وأن يكتسب أجر فتح بلاد الأندلس.

وفي شهر شعبان سنة ٨٩٢ هـ القت السفن التي تقل جنود موسى بقيادة طارق مرساها

قبالة الجزيرة الخضراء عند صخرة الأسد، ونزل المسلمون في مكان يقال له البحيرة جنوبى اسبانيا . وبذلك فتح موسى في التاريخ الإسلامى صفحة جديدة مجيدة، تؤذن بتطور عظيم في مجرى التاريخ الإسلامى كله . ففي اسبانيا ائنت الحاضرة العربية، فاغترفت منها أوربا المتعطشة ما شاء لها أن تغترف . وأوغل موسى في بلاد الأندلس وأتم فتحها عدا الأقاليم الجبلية الشمالية التى التجأ إليها أشراف القوط وكبرائهم . ولم تقف أطماع موسى عند حد جبال البرانس، بل عزم على مواصلة الفتوح في جنوب بلاد فرنسا الحالية، على أن يتجه شرقا حتى يصل إلى القسطنطينية التى عجز العرب عن فتحها، ثم يستمر في فتوحه حتى يلحق بدمشق حاضرة الخلافة الأموية في ذلك الحين . وبذلك يجعل البحر الأبيض المتوسط بحيرة عربية . وكاد أن يهزم بتنفيذ مشروعه هذا، لولا أن الوليد استدعاه، فوصل إلى دمشق سنة ٩٦ هـ بعد أن ولى ابنه عبد العزيز بلاد الأندلس وابنه عبد الله إفريقية . ولـكنه لم يدرك دمشق إلا بعد وفاة الوليد، وكان قد خلفه أخوه سليمان بن عبد الملك .

ومن عجب أن ذلك الفاتح العظيم والقائد الشهم قد ختمت حياته خاتمة محزنة لا تليق بجهاده في سبيل رفع لواء الإسلام واعلاء كلمته . فقد سخط عليه سليمان بن عبد الملك وانتقم منه شر انتقام، كما انتقم من قتيبة بن مسلم ومحمد بن القاسم .

غيرالفتح الإسلامى حال أهل الأندلس بوجه عام . فقد زال الحكم القوطى وزالت آثاره عن تلك البلاد، ولم يبق للقوط شوكة، وآلت أملاكهم وأموالهم إلى العرب الفاتحين . أما اليهود الذين ذاقوا الذل والهوان في حكم القوط، فقد سمح لهم العرب بمزاولة التجارة وأمنوهم على أنفسهم وأولادهم . وأحسن العرب معاملة الرقيق الذين حل بهم للبؤس والشقاء، فنالوا في عهد العرب كثيراً من الحقوق الذين حرّموا منها في عهد القوط . وكان هم العرب منصرفاً إلى توطيد السلام بين الأجناس المختلفة، فانقاد الأسبان لحكمهم لما أنسوا فيه من التسامح الذى كانوا يندشونه .

ولم يكن الفتح هو كل شيء في سيرة الوليد . فقد أتم السياسة الإصلاحية التي بدأها أبوه من قبل ، وتعنى بها تعريب الذواوين حتى تبدو الدولة الإسلامية عربية في كل شيء في تقاليدها وفي نظمها وفي حضارتها . فنقل الوليد ديوان مصر من اليونانية والقبطية إلى العربية . ويعتبر هذا العهد فاتحة غلبة العربية في مصر . فقد تم تعريبها وبدأ العرب يتولون المناصب الرئيسية فيها . وكان للأموال الطائلة التي تدفقت إلى بيت المال في عهد الوليد بفضل السياسة الاقتصادية التي وضع أبوه أساسها أثر عظيم . فقد كلف الوليد بالعمارة كلفاً شديداً جعلها مسلاته وملهاته . فجعل دمشق وضواحيها بالمباني العامة ، حتى تصبح بحق الحاضرة الإسلامية الكبرى لهذه الإمبراطورية الشاسعة الأطراف . وقد سار كلف الوليد بالعمارة سير الأمثال . قيل : أن الناس في دمشق كانوا يتكلمون عن العمارات وجمالها ، وفي عهد سليمان عن الطعام والنساء . وفي عهد عمر بن عبد العزيز عن الدين والقرآن .

بنى الوليد مسجد دمشق بين سنتي ٨٨ و ٩٦ هـ . ولما عزم على بناء مسجده جمع زعماء النصارى في دمشق ، وعرض عليهم رغبته في إدماج كنيسة القديس يوحنا في مسجد المسلمين ، واستعداده لأن يعرضهم عنها بكنيسة أخرى في أي مكان شاءوا ، وأن يدفع إليهم ثمنها مضاعفاً فأبوا واحتجوا بالعهد الذي أخذه المسلمون على أنفسهم بأن لا يتعرضوا للكنائس النصارى بسوء . ولكن الوليد أدخل الكنيسة في المسجد ، وأمر بأن يكتب بالذهب على اللازورد في حائط المسجد : « ربنا الله لا نعبد إلا الله » أمر ببناء هذا المسجد . وهدم الكنيسة التي كانت فيه عبد الله الوليد أمير المؤمنين في ذي الحجة سنة سبع وثمانين . وقيل إن السجلات التي اشتملت على نفقات البناء نقلت إلى قصر الوليد على ثمانية عشر بعيراً لبحثها وإقرارها ، فأقرها الخليفة الأموي دون بحث أو مراجعة وقال : هو شيء أخرجنه الله ولا نرجو من ورائه شيئاً . ومما يذكر أن سفراء إمبراطور الروم رغبوا في زيارة مسجد دمشق الذي بناه الوليد ، فلما

مروا بصحن المسجد واستقبلوا القبلة، رفعوا رموسهم ونكس رؤسهم رأسه واصفر وجهه، فسأله من معه فقال: انا معشر أهل رومة نقول ان بناء العرب قليل، فلما رأيت ما بنوا علمت أن لهم مدة لا بد أن يبلغوها. ولما اتصل هذا القول بمسامع عمر بن عبد العزيز قال: انى أرى أن مسجدكم هذا غيظ على الكفار، وترك ما عزم عليه من نزع الفسيفساء الموجودة به.

ومما يسجل للوليد بالفخر عمله على اصلاح الحرم النبوى الشريف . فقد أمر عمر ابن عبد العزيز عامله على المدينة بادخال حجرات زوجات الرسول عليه الصلاة والسلام فى المسجد، فأصبحت مساحته مائتى ذراع فى مثلها . وكتب الى امبراطور الروم يطلب منه العمال لعمارة مسجد الرسول ، فبعث اليه أربعين رجلا من الروم، وأربعين، من القبط وأربعين ألف مثقال من الذهب، وأحمالا من الفسيفساء . فبنوا الأساس والجدار والأساطين بالحجارة ، وجعلوا عمد المسجد من الحجارة المحشوة بعمد الحديد والرصاص ، وجعل المحراب والمقصورة من خشب الساج كان الوليد يحب الشعر ويقرضه ويطرب لسماع جيده ، كما كانت زوجته أم البنين مشهورة بالفصاحة والبلاغة وقوة الحججة وبعد النظر . وكانت لها مكانة ملحوظة فى قصر الخليفة ، وكان الوليد يستشيرها فى مهام الأمور .

كان الوليد محبا للخير، « يختن الأيتام ويرتب لهم المؤدين ، ويرتب للمرضى من يخدمهم وللأضرار من يقودهم . وعمر المسجد النبوى ووسعه، ورزق الفقهاء والضعفاء والفقراء ، وحرّم عليهم سؤال الناس ، وفرض لهم ما يكفيهم، وضبط الأمور أتم ضبط . قال ابن أبى عمير : « رحم الله الوليد وأين مثل الوليد ؟ افتتح الهند والأندلس وبنى مسجد دمشق ، وكان يعطينى قناع الفضة أقسمها على قراء مسجد بيت المقدس .

وفى سنة ٩٦ هـ توفى الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموى السمع الجواد البار بالفقراء والمعوزين ، ورافع لواء الحق والدين . رحمه الله ورحم من ترجم عليه .

٢٨ - عبد العزيز بن مروان

« قدمت مصر في إمرة مسلمة بن مخلد فتمنيت بها أمانى فأدركتها »

من أعلام الاسلام وخيرة الولاة الذين حكموا مصر في العصر الأموي ، عبد العزيز ابن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس . ولد عبد العزيز من أبو بن كريمة فابوه مروان بن الحكم ، وكان من ذوى الرأى والفصاحة والشجاعة ، ومن أكثر المسلمين تلاوة للقرآن ورواية للحديث . وأمه ليلى ابنة زياد بن الأصبح الكندى ، وكان يقال لعبد العزيز ابن ليلى نسبة إلى أمه كما يقال له ابن مروان نسبة إلى أبيه مروان اتخذ عثمان بن عفان مروان وزيراً له ومشيراً ، ولما آلت الخلافة إلى علي اعتزل مروان السياسة بعد موقعة الجمل المشهورة ، وبابع علياً وأقام في المدينة حتى آلت الخلافة إلى معاوية ، فولاه المدينة مرتين . ولمسات معاوية قربه ابنه يزيد إليه ، فظل في دمشق حتى مات يزيد ، واحتدم النزاع بين اليمن وهم عرب الجنوب ، ومضروهم عرب الشمال . وعقد أنصار بنى أمية مؤتمر الجابية الذى بايعوا فيه مروان بالخلافة سنة ٦٤ هـ ، ثم خالد بن يزيد ، ثم عمرو بن سعيد بن العاص من بعده . وانتقل الملك من الفرع السفىانى إلى الفرع المروانى . أما قيس فقد اجتمعت بمرج راهط ، وبايعت عبد الله بن الزبير ، فانحصرت الخلافة بينه وبين مروان ، وامتد النزاع إلى سائر الولايات الاسلامية . قضى عبد العزيز أيامه مع أبيه مروان في المدينة حيث الصخب والخلاف وكثرة تبديل عمال بنى أمية ، ليكونوا عيوناً للخلفاء على من تحدثه نفسه بالخروج على سلطانهم . وقد قضى عبد العزيز معظم حياته في المدينة ، حتى أمر ابن الزبير بطرد عمال يزيد بن معاوية من هذه البلاد ، فرحل أبوه مروان بن الحكم بولده وأهل بيته إلى دمشق وبقي بها حتى آلت الخلافة إليه .

في هذه البيئة المترفة وفي ذلك الجو الصاخب، ولد عبد العزيز بالمدينة المنورة التي قضى بها أبوه معظم حياته، فنشأ عبد العزيز كما كان ينشأ أبناء الأشراف، فتعلم الفروسية وطلب العلم وتفقه في الدين وروى الحديث وتوفر على دراسة الأدب. ولما شب عن الطوق وبلغ مبلغ الرجال، تزوج من أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب، وأنجب منها ابنه عمر بن عبد العزيز الذي أصبح حكمة غرة في جبين الدولة الأموية، كما أصبح أبوه عبد العزيز من قبل غرة في جبين ولاية مصر في العصر الأموي.

وقد صهرت الحوادث عبد العزيز وحنكته التجارب قبل أن يتقلد ولاية مصر بشأى عشرة سنة. فقد قدم هذه البلاد مع مسلمة بن مخلد الذي وليها من قبل معاوية في سنة ٥٤٧هـ، وظل بها إلى أن مات في عهد ابنه يزيد سنة ٥٦٢هـ. وعمل عبد العزيز تحت إمرة هذا الوالي المصاحح الورع السمع الذي عرف بعطفه على القبط، فسمح لهم بأن يبنوا كنيسة في القسطنطينية، وبنى في الروضة مقياساً للنيل وداراً للصناعة، ورد الروم حين كانوا نزولوا البرلس سنة ٥٣٣هـ، كما غنى ببناء المساجد وإصلاحها، وأم المسلمين في الصلاة طوال مدة ولايته. بل لقد أفاد عبد العزيز من اتصاله بقيس بن كليب الذي اتخذ مسلمة حاجباً له. وكان لذلك كله أثر بعيد فيما اكتسبه هذا الشاب من خبرة، وما عرف عنه من كفاية، وما اتصف به من دماثة الخلق ولين العريكة وفي هذه الفترة السعيدة من حياة عبد العزيز تمت آماله واكتملت، حتى لقد أصبحت نفسه تجيش بالآمانى والآمال التي لا يفكر فيها إلا الشباب الطموح إلى المجد. فقد أثر عنه أنه قال: «قدمت مصر في إمرة مسلمة ابن مخلد، فتمنيت بها آمانى فأدر كتبها: تمنيت ولاية مصر، وأن أجمع بين امرأتى مسلمة، ويحجبنى قيس بن كليب حاجبه. فتوفى مسلمة فقدم مصر فوليتها، فحجبه قيس، وتزوج امرأتى مسلمة وهما أم كلثوم الساعدية وأزوى بنت راشد الخولاني».

ولما آلت الخلافة إلى مروان بن الحكم، جرد بعد موقعة مرج راهط جيشاً بقيادته إلى مصر لاستخلاصها من عامل عبد الله بن الزبير، وسار ابنه عهد العزيز في جيش

آخر إلى أيلة عند العقبة . ونشط ابن جحدم لحربه ، وأشار عليه بعض رجاله بأن
يحفر خندقاً موقعه الآن جهة الفرافة ، فتم حفره في شهر واحد . ولكن جيوش هذا
الوالي وخندقه ومراكبه لم تنفعه ولم تحمل دون إلحاق الهزيمة به ، ودخل مروان عين
شمس ، ثم دخل الفسطاط في أول شهر جمادى الأولى من سنة ٦٥ هـ ، وبني الدار البيضاء
لتكون مقره . وبايعه الناس إلا نفرًا ظلوا على تمسكهم ببيعة ابن الزبير ، فضرب
أعناقهم كما قتل سيد لحم ، فسار زهاء ثلاثين ألفاً منهم وهم مدججون بالسلاح ،
ووقفوا بباب مروان ثائرين ، فتوسط بعضهم في الصلح وانصرف الثائرون . وفي ذلك
اليوم المشتهر توفى عبد الله بن عمرو بن العاص ، ولم يستطع الناس أن يشيعوا جنازته ،
فدفن في داره .

ولما عزم مروان بن الحكم على العودة إلى دمشق ، ولى ابنه عبد العزيز مصر ولاية مطلقاً ،
بمعنى أنه جعل إليه صلاتها وخراجها ، وكان بعض المصريين ، أو بعبارة أدق ، بعض
العرب النازلين في مصر في ذلك الوقت ، على الشنآن والبغض لمروان ولبنى أمية وخاف
عبد العزيز عاقبة مقامه في هذا البلد وأفضى بذلك إلى أبيه ، فرسم له الخطة المثلى التي
ينبغي له أن يسير عليها ، فيتألف قلوب الناس على اختلافهم . وفي هذه الخطة بين مروان
لابنه أن ذلك لا يمكن تحقيقه إلا إذا أسره بمجوده وإحسانه ، وجذبهم إليه بالموودة والبشاشة
ولين الجانب ، وأظهر لكل زعيم منهم أنه خاصته دون غيره من الزعماء . وبهذا
يتفانى الجميع في خدمته ويجمع الكل على طاعته ، قال عبد العزيز : يأمر المؤمنين !
كيف المقام ببلد ليس به أحد من بني أبي ؟ فقال مروان : يا بني ! عثمهم باحسانك
يسكونوا كلهم بني أبيك ، واجعل وجهك طلقاً تصف لك مودتهم ، وأوقع إلى كل
رئيس منهم أنه خاصتك دون غيره . يكن عيناك على غيره وينقاد قومه إليك . وقد
جعلت معك أخاك بشراً مؤنساً ، وجعلت لك موسى بن نصير وزيراً وشيراً وما عليك يا بني
أن تكون أميراً بأقصى الأرض ؛ أليس ذلك أحسن من إغلاقتك بابك وخمولك في منزلك ؟ .

هذه هي النصيحة الذهبية التي زود بها مروان ابنه عبد العزيز عند توليته مصر .
 ولم يفتر هذا الخليفة الذي حنكته التجارب وصهرته الحوادث، أن يزيد ابنه من
 النصائح في وصية أخرى تكفل له الراحة والطمأنينة في هذا البلد : فأوصاه بتقوى الله
 في السر والعلانية ، وبالبر بالفقراء ، كما نصح له بأن ينجز وعده إذا وعد ولو حال
 دون ذلك خرط القتاد ، وبأن تكون المشورة رائده قبل الفصل في أمور ولايته .
 وبذلك تلهج الألسنة بالدعاء له ويأمن الفتن والقلاقل . فقال : «أوصيك بتقوى الله في
 سر أمرك وعلانيتك ؛ فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . وأوصيك أن لا
 نجعل لداعي الله عليك سبيلاً، فإن المؤذنين يدعون إلى فريضة افترضها الله عليك، إن
 الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً» (٤ : ١٠٤) وأوصيك أن لاتعد الناس
 موعداً إلا أنفذته وإن حملت على الأسننة . وأوصيك أن لا تعجل في شيء من
 الحكم حتى تستشير ، فإن الله عز وجل لو أغنى أحداً عن ذلك لأغنى محمداً صلى الله
 عليه وسلم عن ذلك بالوحي الذي يأتيه . قال الله عز وجل : وشاورهم في الأمر
 (٣ : ١٥٣) .

خرج مروان من مصر في شهر رجب من سنة ٥٦٥ هـ ، وولى ابنه عبد العزيز هذه
 البلاد صلاحاتها وخراجها على ما تقدم . ثم مات مروان في مسهل شهر رمضان من تلك
 السنة ، وكان قد ولى عهده ابنه عبد الملك ثم عبد العزيز ، وأقره أخوه علي ولايته .
 وفي عهد ولاية عبد العزيز بن مروان كان السلام منتشرًا والأمن مستتبًا بفضل حسن
 سياسته حتى كان من خيرة الولاة الذين حكموا مصر في العهد الأموي . وقد عمل عبد العزيز
 بنصائح أبيه فنجحت سياسته في مصر نجاحاً ظاهراً ، وأتى في عهده بكثير من ضروب
 الإصلاح : فبنى مقياساً للنيل ، وزاد في الجامع العتيق الذي بناه عمر بن العاص ، فنسب
 إليه من ناحية الغرب ، وأدخل في شماله رجة فسيحة . وأقام على خليج أمير المؤمنين
 قنطرة عند الحراء القصوى بطرف الفسطاط ونقش عليها اسمه (٦٩ هـ) . واتخذ مدينة

حلوان داراً لإقامته (٥٧٣) بعد أن أصيب بداء الجدام ، أو بسبب انتشار الوباء في
الفسطاط ، مما يدل على أنه اعتزم أن يتخذها حاضرة للبلاد ، واتخذ بها حرسه وشرطته
وأنشأ بها بركة كبيرة ساق إليها الماء من العيون القريبة من المقطم على قناطر تصل
عيون الماء بالبركة . وفي حلوان غرس عبد العزيز الأشجار والنخيل وبني المساجد
وغيرها من العمارات الفخمة ، حتى قيل إنه بذل في سبيل ذلك مليون دينار وبلغ
من عنايته بفن العمارة والتماثيل أنه بنى في الفسطاط حماماً لابنه زيان ، وأقام على بابه صنماً
عجيباً من الزجاج على شكل امرأة . وأطلق على هذا الحمام اسم أبي مرة وقد سميت
القيسارية التي كانت ملكاً لعبد العزيز ، قيسارية أبي مرة ، وكانت تعرف في زمن ابن
دقاق المتوفى سنة ٧١١ هـ باسم حمام بثينة .

طالت ولاية عبد العزيز على مصر ، فأتيح له أن يأتي بكثير من ضروب الإصلاح ،
واستطاعت البلاد أن تظهر في عهده بمظهر النشاط الأدبي والمادي . وقد أطنب الشعراء
فيما أتاه هذا الوالي من أعمال البر والاحسان والكرم ، حتى قيل إنه « كان له ألف
جفنة تنصب حول داره ومائة جفنة تحمل على العجلات ويطف بها على قبائل مصر .
وفي ذلك يقول الشاعر :

كل يوم كأنه يوم أضحى
عند عبد العزيز أو يوم فطر
وله ألف جفنة مترعات
كل يوم تُمدُّها ألف قدر

وقال الشاعر أيضاً في وصف جفان عبد العزيز بن مروان :

لا يرهبُ الناسُ أن يعدلوا
بعبد العزيز بن ليلى أميرا

ترى قدره مُعلنا بالفناء

يَلْتَقِمُ بعدَ الجزور الجزوراً

كان مروان يطمع في الخلافة ويرى أنه أحق الناس بها بعد عثمان لأنه كان شيخ بني أمية ، وغضب بعد أن آلت الخلافة إلى يزيد بن معاوية. فلما آلت الخلافة إليه ، خلع خالد بن يزيد وعمرو بن سعيد بن العاص من ولايه العهد ، وولاها ابنه عبد الملك ثم عبد العزيز. ولما آلت الخلافة إلى عبد الملك كتب إلى أخيه أن يخلع نفسه من ولاية العهد ليعهد لولديه الوليد وسليمان ، واكن عبد العزيز أبي ذلك وكتب إلى أخيه كتاباً شديداً قال فيه : إن لم يكن لك ولد فلنا أولاد ويقضى الله بما يشاء . وقد أثار هذا الكتاب غضب عبد الملك حتى انه دعا عليه

ولكن الأصعب بن عبد العزيز الذي كان أبوه يرشحه لولاية العهد توفي في شهر ربيع الآخر سنة ٨٦ هـ . وكان لموته أثر بعيد في نفس أبيه الذي حزن على وفاته حزناً شديداً ، وسارع إليه المرض واشتدت وطأته عليه . ولما أحس بدنو أجله جعل يقول : ألا ليتني لم أك شيئاً مذكوراً ، ألا ليتني كنا من الأرض أو كراعى إبل في طرف الحجاز ثم مات هذا الوالي المصلح الورع ليلة الاثنين لثلاث عشرة ليلة خات من شهر جمادى الأولى سنة ٨٦ هـ ، وحمل في الليل من حلوان إلى القسطنطينية فدفن بها .

ولى عبد العزيز بن مروان مصر عشرين سنة وعشرة أشهر وثلاثة عشر يوماً . وبعد أطول ولاية مصر الإسلامية عهداً . وعلى الرغم من أن مصر كانت طعمة له ، كان له حرية التصرف في خراجها ، مع امتداد نفوذه إلى بلاد المغرب التي يولى ولايتها من قبله ، فيسير على هديه ويصدرون عن رأيه ويعملون بمشورته — على الرغم من هذا كله — لم يترك عبد العزيز بن مروان عند وفاته من المال النض غير سبعة آلاف دينار — عدا أملاكه في حلوان وقيسارية أبي مرة وما خلفه من الخيل والرقيق ومن الثياب

المرقع بعضها . فلا عجب إذا أجمع الناس على محبته ورضوا عنه وعن ولايته، ورثاه
الشعراء أحسن رثاء ، فقال سليمان بن أبان الأنصاري :

فمن ذا الذي يبني المكارم والعلل

ومن ذا الذي يهدي له بعدك الشعر^(١)

فكنت حليف العرف والخير والندا

فمتن جميعا حين غيبك القبر

فبعدك لا يرجي وليد لنفعة^(٢)

وبعدك لا يرجي عوان ولا بكر

ورثي محمد بن عمرو بن الوليد بن عقبة - عبد العزيز وابنه الأصبغ

فقال :

أبعد الخليفة عبد العزيز

وبعد الأمير كذا وابقه

فما مصر لي بعد عبد العزيز

ز والأصبغ الخير بالموئقة^(٣)

إمامي هدى وهديني تقى

وأهل الوفاء وأهل الثقة

١ - الشعر المكتوب والمراد هنا لازمة وهو المدح .

٢ - لعلها نعمة

٣ - وسط بين الكبر والصغر

٣٠ - طارق بن زياد

« يطارق تقدم لشأنك »

وهب طارق من نومه مستبشرا وثابت نفسه ببشرى الرسول ولم يشك في النصر

ان سيرة طارق بن زياد لتصور لنا مدى تسامح الاسلام وعدالته ومساواته بين كافة المسلمين عربهم وعجمهم ، حتى ان كثيرا من الموالى قادوا الجيوش وتسلموا أعلى المناصب ، وعملوا على نشر الاسلام وإعلاء كلمته ورفع لوائه .

كان طارق أحد الموالى الذين كان لهم شأن في الفتوح الاسلامية . ومن عجب أن يختلف المؤرخون وأصحاب السير في نسب قائده فذ وفاتحه مشهور مثله ، فيذكر بعض أنه بربرى الاصل ينتمى الى نفزاوة من بربرى إفريقية ، وهى البلاد التى يطلق عليها اسم تونس الآن . وفى رواية اخرى أنه ينتمى الى زنانة وبرى بعض آخر أنه من موالى الفرس من مدينة همدان . وقيل ان اسمه طارق بن عمرو وليس طارق بن زياد . ولكن مما لا شك فيه أنه كان مولى لموسى بن نصير ، وأن موسى وثق به فقربه اليه ، وأمره على بعض الجيوش حين تقلد ولاية افريقية من قبل الخليفة الوليد سنة ٨٨ هـ ثم خرج من مصر ، فلما بلغ افريقية ضم اليه جيشا آخر جعل على مقدمته مولاة طارق ابن زياد .

أخذ هذان القائدان يقاتلان البربر ويبسطان نفوذ الأمويين وينشران الاسلام فى ربوع هذه البلاد ، حتى بلغا طنجة ، وكانت حاضرة بلادهم وأم مدائنهم ، فحاصراها حتى فتحت وأسلم أهلها .

وبذلك تمكن موسى ومولاة طارق من فتح بلاد المغرب كلها ، ولم يقف فى طريقهما غير قلاع سبتة الحصينة على مجاز الزقاق . وكانت سبتة كغيرها من بلاد جنوبي بحر

الروم تحت حكم امبراطور الروم غير أنها لبعدها عن القسطنطينية اتجهت الى مملكة اسبانيا بطلب المعونة ، فهي تابعة للروم من ناحية الحكم ، مضافة في الحقيقة الى ملك طليطلة لحمايتها والدفاع عنها . على أن معاونة اسبانيا لها لم تكن كافية لصد تيار العرب الفاتحين ، الذين امتدت فتوحهم من بلاد الصين شرقا الى أعمدة هرقل غربا ، أى الى سواحل المحيط الاطلسي ، ورأوا مضيق هرقل ورنوا بأنصارهم الى ولايات اسبانيا المشرقة .

وكانت اسبانيا قد أصابها البؤس والشقاء في أواخر عهد القوط ، بسبب إتهال كاهل الطبقة الوسطى بالضرائب ، التي كانوا يجمعونها للاغنياء ورجال الدين الذين أصبح لهم نفوذ ملحوظ في شئون الدولة ، وحاول اليهود إشعال نار الثورة غير مرة ، لما نزل بهم من ضيق وعنت ؛ واخذت الطبقة الدنيا من العبيد الى زراعة ضياع الأغنياء ، وتفشى الوباء حتى مات أكثر من نصف سكان اسبانيا .

تلك حال بلاد الاندلس في الوقت الذي كان أهل شمال أفريقية يمتعون بحكم العرب وينعمون بعدلهم . فلا عجب اذا تمني الاسبان ، وبخاصة اليهود والعبيد ، الخلاص من نير الحكم القوطي الجائر .

وقد جلس على عرش اسبانيا « وتيكا » ويسميه العرب « غيطاشة » . لكنه لم يلبث أن عزل وخلفه « أخيلا » ، فعزل في السنة نفسها على ايدي نبلاء القوط ورجال الكنيسة ، الذين ولوا مكانه « رودريك » قائد الجيش القوطي ، ويسميه العرب « لذريق » . ولكن هذا الملك الجديد لم يلبث ان أغرق في الشهوات حتى نفرت منه القلوب ، ومهد بذلك السبيل لظهور حزب اخيلا الذي حاول استرداد عرشه ، وانضم اليه « جوايان » حاكم سبتة من قبل القوط . وقد أضمر هذا الحاكم العداوة للملك بسبب سوء مسلكه مع ابنته ، وانضم الى المؤتمرين ، وعول على الانتقام لنفسه ، ووجد في جيوش البربر والعرب في شمال افريقية خير من يقوم على تحقيق أغراضه وارواء حقه .

زار جوليان موسى بن نصير وهون عليه حال الانداس ، ووصف أهلها بضعف
البأس ، وعاهده على الانحراف الى المسلمين وتأيدهم في حروبهم . ولكن موسى لم يطمئن
اليه ، وخشى أن يكون قد اراد التغرير بجيوش المسلمين . ولكن جوليان عول على أن
يثبت له صدق اخلاصه ، فأغار على الجزيرة الخضراء جنوبي اسبانيا ، وعاد محملا
بالغنائم ، فاطمان المسلمون اليه ووثقوا به .

ولم يرمو موسى بدا من الرجوع الى الخليفة الوليد الذي تردد أول الأمر ثم أمر موسى
أن يرتاد الطريق ، فأرسل طريف بن مالك ، وكان من البربر (واليه تنسب جزيرة
طريف على المجاز) ، فسار على رأس خمسمائة مقاتل جاز بهم البحر في أربع من سفن
جوليان ، وغزا بعض ثغور اسبانيا الجنوبية بمساعدة ، وعاد محملا بالغنائم بعد أن اقتنع
بانعدام وسائل الدفاع في اسبانيا .

وقد شجع نجاح طريف في هذه الغزاة موسى بن نصير على فتح اسبانيا . فندب
لهذا الأمر الخطير مولاة طارق بن زياد قائد جيشه وحامكم طنجة! وقد توسم فيه صدق
العزيمة وقوة الشكيمه ، فوق ما امتاز به من قوة البيان ، والقدرة على التأثير في قلوب
سامعيه ، وما اشتهر عنه من الإخلاص في الجهاد . . .

رجل هذا شأنه وتلك سريره خير من يضطلع بهذا العمل الجليل . هذا إلى أن طارقا
كان من بربر إفريقيا ، وأن جل جنده كانوا من البربر ، فهو يستطيع إذن أن يصل إلى شرف
قلوبهم ويؤثر في نفوسهم ويحسن توجيههم ، ويأخذ بأيديهم في طريق الفوز والنجاح .
وفي شهر شعبان سنة ٥٩٢ هـ عبر طارق البحر في أربع سفن أعدها له جوليان ، وسار
على بركة الله على رأس سبعة آلاف من المسلمين وأخذ طارق وهو على سطح سفينته
يتأمل عجائب الكون ، وينظر إلى السماء متوجها إلى الله بقلبه ، يلتمس منه العون ،
ويذكر الرسول الكريم وما لاقاه في سبيل نشر الدعوة من محن وآلام ، إذ أخذته
سنة من النوم « فرأى النبي ﷺ وحوله المهاجرون والأنصار ، قد تقلدوا السيوف ،

وتنكبوا القسي ، فيقول له رسول الله ﷺ ياطارق تقدم لشأنك ، ونظر إلى أصحابه
قد دخلوا الأندلس قدامه . ثم هب طارق من نومه مستبشراً ، وثابت نفسه ببشراه
ولم يشك في النصر .

وهذا شأن كل من يخلص لدينه ويتمسك بعقيدته ، ولا يألو جهداً في تحقيق غايته
والظفر بأمنيته .

نعم كان هذا شأن طارق وجنده الذين أصبحوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه
بعضاً ، فان السفن لما ألتقت باذن الله مرسهاها قبالة الجزيرة الخضراء ، ونزل المسلمون
في مكان يقال له البحيرة جنوبي اسبانيا ، أمرع الملك لذريق ، وكان مشغولاً بثورة
أخيلا في ببلونة شمالي أسبانيا ، نحو الجنوب لتخليص بلاده ، وجمع جيشاً جراراً قيل
إنه بلغ سبعين ألفاً وقيل مائة ألف .

ولكن ذلك الجيش الجرار المزود بكامل العدة والسلاح ، لم يثن عزيمه طارق
أو يضعف إيمانه ، بل أخذ يفتح القلاع والمدن . وقد قيل إن امرأة عجوزاً من أهل
الجزيرة الخضراء وقعت في أيدي المسلمين . فلما رأت طارقاً قالت : « إنه كان لها
زوج عالم بالحدثان ، فكان يحدثهم عن أمير يدخل بلدهم هذا ، فيتغلب عليه ، ويصف
من نعته أنه ضخم الهامة ، فأنت كذلك ، ومنها أن في كتفه اليسرى شامة عليها شعر ،
فإن كانت فيك فأنت هو . فكشف ثوبه فاذا بالشامة في كتفه على ما ذكرت فاستبشر
بذلك ومن معه .

بعث طارق إلى موسى بن نصير يطلب منه المدد ، حتى يستطيع الوقوف أمام
لذريق ، فأمدته بخمسة آلاف ، فبلغ جنده اثني عشر ألفاً . وقد ثارت مخاوف المسلمين
حين علموا بدنو جيش لذريق ، فلم يزد طارق إلا حماسة واستبسالا ، فقام في أصحابه
فحمد الله وأثنى عليه ، وألقى عليهم خطبته الخالدة ، التي حثهم فيها على الجهاد والتدرع
بالصبر ، ومنامهم الأمانى الطيبة ، وبشرهم بما سيفتحون من بلاد ، ويصيبون من غنائم

وينعمون في دنياهم وآخرتهم فقال :

« أيها الناس أين المفر؟ البحر من ورائكم ، والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصديق والصبر . واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضياع من الأيتام في مأدبة اللثام ، وقد استقبلكم عدوكم بجيشه ، واسلحته وأقواته موفورة ، وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم ، ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم . وإن امتدت بكم الأيام على انتقاركم ولم تنجزوا لكم أمرا ، ذهبت ربحكم وتعوضت القلوب من رعبها منكم ، الجرأة عليكم . فادفعا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم ، بمناجزة هذه الطاغية ، فقد القت به اليكم مدينته الحصينة ، وإن انتهز الفرصة فيه لممكن أن سمحتم لأنفسكم بالموت . وإني لم احذركم أمرا أنا عنه بنجوة ، ولا حملتكم على خطة أرخص متاع فيها النفوس ، ابدأ بنفسى . واعلموا انكم ان صبرتم على الاشق قليلا ، استمتعتم بالارفة الا لاذ طويلا . فلا ترغبوا بانفسكم عن نفسي ، فما حظكم فيه بأوفى من حظى . وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان ، الرافلات في الدر والمرجان ، والحلل المنسوجة بالمعقمان (الذهب) ، المقصورات في قصور الملوك ذوى التيجان . وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عزبانا ، ورضيكم ملوك هذه الجزيرة أصهارا وأختانا . ثقة منه بارتياحكم للطعان ، واستماحكم بمجالدة الأبطال والفرسان ، ليكون حظه منكم ثواب الله على اعلاء كلمته واظهار دينه بهذه الجزيرة ، وليكون مغنمها خالصة لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم . والله تعالى ولي انجادكم على ما يكون لكم ذكرا في الدارين . واعلموا أنى أول مجيب الى ما دعوتكم اليه ، وإنى عند ملتقى الجمعين ، حامل بنفسى على طاغية القوم لذريق ، فقاتله ان شاء الله تعالى . فاحملوا معى ، فان هلكت بعدي ، فقد كفيتكم أمره ، ولم يعوزكم بطل عاتل تسندون أموركم اليه ، وإن هلكت قبل وصولي اليه ، فاخلفوني في عزيمتى هذه ، واحملوا بأنفسكم عليه ،

واكتفوا لهم من فتح هذه الجزيرة بقتله ، فانهم بعده يخذلون .
كان لخطبة طارق الرائعة أثرها البعيد في نفوس جنده وأنصاره ، فألهبت حماسهم
وأججت حميتهم ، وأيقنوا أنهم اذا عملوا بنصيحته ، تغلبوا على عدوهم ، وأزالوا كل
عقبة في سبيلهم ، وحققوا آمالهم على يديه ، فصاحوا صيحة رجل واحد ، وهم يقولون
لقائدهم وزعيمهم الذي اطمأنوا اليه وعقدوا آمالهم عليه : « فانتا معك وبين يديك » .
هذه العبارة القصيرة القوية تصور لنا ذلك الأثر العميق الذي أحدثته خطبة طارق
في نفوس سامعيه .

ولما أصبح الصباح ، أقبل لذريق وهو على سريره ، محمولا على دابتين ، وعليه
مظلة مكحلة بالدر والياقوت والزبرجد ، تحف به البنود والاعلام . وبين يديه جنده
الكثيف من العبيد والمستضعفين الذين ينقصهم النظام والاخلاص . وأقبل طارق في
بساطته ، يحف به أصحابه الذين عمر الاخلاص قلوبهم ، وعليهم الزرد ، من فوق رؤوسهم
« العمام البيضاء » ، وبأيديهم القسي العربية . وقد امتشقوا السيوف وتقلدوا الرماح . والتقى
جيش طارق بجيش لذريق على مقربة من وادي لسكة (ويسميه العرب وادي بكة)
الذي يصب في المضيق عند رأس الطرف الأغر ، وأخذ طارق وجنده يحملون على
العدو ، ثم هجم على لذريق فصر به بسيفه فقتله . وقيل انه جرح فرمى بنفسه في وادي
لسكة ، ففرق وحمل النهر جثته الى المحيط ، ولا تزال نهايته سرا الى اليوم ، وحملت
الهزيمة بجيشه ، وتشدت شمله وتفرق أيدي سبا .

ومما ساعد على انتصار المسلمين ، انخياز أبناء غيطشة الى جند طارق ، وكانوا
ينفسون على لذريق اغتصابه العرش بعد موت أبيهم . « فلما تقابل الجيشان ، اجمع
اولاد غيطشه على الغدر بلذريق ، وارسلوا الى طارق يسألونه الأمان ، على أن يميلوا
اليه عند اللقاء فيمن يتبعهم ، وان يسلم اليهم اذا ظفر ضياع أبيهم بالاندلس كلها ،
وكانت ثلاثة آلاف ضيعة » نفائس مختارة ، وهي التي سميت بعد ذلك « صفايا الملوك » .

كما استطاع جوليان أن يستميل اليه كثيرا من جنود لدريق ، مما رجح كفة العرب ومزق شمل جيش لدريق .

والتقى انتصار المسلمين في وادي لسكة بأسبانيا كلها في أيدي المسلمين ، ولم يكن طارق بحاجة الا الى القليل من الجهد ليقضى على المقاومة الضئيلة في بعض المدن .

« ولم تقف هزيمة العدو على موضع ، بل كانوا يسلمون بلدا بلدا ومعقلا ومعقلا » .

كتب طارق الى موسى يخبره بما أحرزه من نصر وما استولى عليه من غنائم ، فدبت الغيرة الى نفسه ، وأراد ان يكون له شرف فتح بلاد الاندلس ، وان يكون له نصيب في الغنائم ؛ فكتب الى طارق يأمره الا يتجاوز مكانه حتى يلحق به ، واستخلف ابنه عبد الله على القيروان ، وخرج في سنة ٩٣ هـ في عسكر ضخم .

ولكن طارقا رأى بعد ان استشار رؤساء جيشه أن وقف القتال يعرض المسلمين للخطر ، ويعطى القوط فرصة يلمون فيها شتمهم ويوحدون كلمتهم ، فأخذ يزحف على مدن أسبانيا ؛ وقسم جنده ثلاث فرق أو كتائب بثها في شبه الجزيرة ؛ وما زالوا يتبعون جند الاسبان المنهزمين أمامهم ، حتى وصلوا الى جليقية في الشمال الغربي من اسبانيا .

ثم جاء موسى بن نصير ، فامتدت فتوحه الى برشلونة شرقا ، وأربونة في الجوف ، وقادس في الجنوب الغربي ، وجليقية في الشمال الغربي . والتقى موسى بطارق في كل مكان من كورة طلمبيرة ؛ فحط شأنه ، فظهر ما في نفسه من حقد وموجدة عاياه ، بل ضربه بالسوط ، ووبخه على استبداده برأيه ، وطالبه بالأموال والنفائس التي استولى عليها ، ثم سجنه .

وهكذا جرى موسى طارقا جزاء سنار ، برغم ما بذل من جهد وأحرز من من نصر واصاب من توفيق . وبدلا من أن يضع على هامته أكاليل الفار ، ألقى به في غياهب السجن ، وعامله معاملة المجرمين لا معاملة الغزاة الفاتحين .

غير أن طارقاً استطاع وهو في سجنه أن يبث شكواه الخليفة الوليد ؛ وكان عادلاً
يذكر للمحسن إحسانه ، ويجزيه بقدر ما قدم لأمته ودينه ، فكتب إلى موسى يأمره
بإطلاقه ورده إلى عمله ، فعاد طارق إلى إنجاز فتح هذه البلاد .

أما موسى بن نصير الذي ظلم طارقاً ، فقد لقي جزاء ما قدمت يداه . فان الخليفة
الوليد استدعاه إلى دمشق سنة ٩٦ هـ ، وقبل وصوله إليها مرض الوليد مرض الموت ،
فطلب أخوه سليمان إلى موسى أن يبسط يده في السير حتى يموت الوليد ، طمعاً في
الحصول على الغنائم والتحف التي كان يحملها هذا القائد . غير أن موسى لم يعر طلب
سليمان أذناً مصغية ، فحقد عليه الخليفة الجديد وانتقم منه ومن أمرته .

ومن عجب أن طارقاً ، ذلك القائد الفذ والبطل المغوار والخطيب المفوه والكاتب
البليغ ، قد انتهت حياته في غموض كما بدأت في غموض . فلم يذكر المؤرخون
شيئاً ذا غناء عن حياته ، برغم ما قام به من جلائل الأعمال في فتوح المغرب وفي
ولايته لطنجة . وكل ما ذكره هؤلاء المؤرخون أنه رحل مع مولاه موسى بن نصير
بعد فتح الأندلس إلى الشام ، وانقطع خبره .

ACC. LIBRARY

٢٩ - عمر بن عبد العزيز

« لَسْتُ بِخَيْرٍ مِنْ أَحَدِكُمْ وَلَكِنِّي أَثْقَلُكُمْ حِمْلًا »

يعد عمر بن عبد العزيز من أحسن خلفاء بني أمية سيرة، وأنقاهم سريرة، وأنزههم يدا، وأعفهم لسانا، وأسبغهم إلى نشر لواء الاسلام وإعلاء كلمة الدين. وقد أصبح حكمه غرة في جبين ذلك العصر، حتى لقد شبه المسلمون خلافته بخلافة عمر بن الخطاب في عدله وزهده.

وفي مدينة حلوان التي نقل اليها عبد العزيز بن مروان دواوين ولايته، ولد عمر من أبوين كريمين: فأبوه عبد العزيز الأمير السمع الكريم الذي اشتهر بالورع والتقوى، وأمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب، وكانت ابنة الجانب رضية الخلق، على جانب عظيم من الورع والتقوى.

حفظ عمر بن عبد العزيز القرآن وهو صغير، ثم أرسله أبوه إلى المدينة لطلب العلم، فتفقه في الدين، وروى الحديث، وعكف على دراسة الأدب ونظم الشعر. وبلغ من علو كعبه وتبحره في العلم أن قيل: «كانت العلماء مع عمر بن عبد العزيز تلامذة». وقد ظل عمر في المدينة حتى مات أبوه وآلت الخلافة إلى عبد الملك بن مروان، فبعث في طلب ابن أخيه وزوجه من ابنته فاطمة. ثم أقام عمر بدمشق حتى ولى الوليد الخلافة سنة ٨٦ هـ، فعرف لعمر صلاحه وكفايته، فولاه المدينة في تلك السنة، فظل بها سبع سنين كان فيها مثالا يحتذى في الورع والتقوى.

على أن عمر كان، برغم هذا كله، متأثرا بجاهه وطيب أرومته، حتى لقد أخذ عليه بعضهم أنه كان في صباه يبالغ في تنعمه، ويختال في مشيته. ولعل مرجع ذلك إلى أنه كان لا يزال في ميعة الصبا وشرخ الشباب. حتى إذا تقدمت به السن وأثقلت أعباء الإمارة والخلافة كاهله، زاد تقشفه وزهد في الدنيا وزينتها.

نعم! إن هذا التنعم لم يله هذا الشاب المترف عن التمسك بأهداب الدين

وما يفرضه على المسلم من الوفاء بالعهد والميثاق : فقد أراد الوليد أن يعزل أخاه سليمان من ولاية العهد وأن يبايع لابنه ، وأطاعه كثير من الأشراف رغبة أو رهبة . ولكن عمر أبي أن يخلع رجلاه في عنقه بيعة ، فلم يخش في الحق لومة لائم ولا سخط خليفة ولا خشية عذاب أو موت حين قال لسليمان : « في أعناقنا بيعة » وأصر على موقفه ، فضيق عليه الوليد حتى أشرف على الهلاك ، لولا أن بعضهم شفع فيه فأطلقه الخليفة واكتفى بعزله عن المدينة .

ثم دارت الأيام دورتها : وآلت الخلافة إلى سليمان بن عبد الملك ، فلم ينس ذلك الموقف الرائع الذي وقفه منه عمر . فلما مرض سليمان مرض الموت ، أراد أن يبايع أحد أولاده ، فنهاه بعض أصحابه وقال له : يا أمير المؤمنين إنه بما يحفظ الخليفة في قبره أن يستحفظ الناس رجلا صالحا . فقال سليمان : أستخير الله وأفعل ، ثم استشاره في عمر بن عبد العزيز ، فأثنى عليه خيرا وأشار بتوليته العهد . ولم يتردد هذا الخليفة في مبايعة عمر ، مدفوعا بذلك الموقف الذي وقفه منه ، وبما آتته فيه من حسن الخلق وكرم السجايا . ضربت عمر دابة في جبهته وهو غلام . فجعل أبوه يمسح عنه الدم ويقول : إن كنت أشج بني أمية ، إنك لسعيد . وقد أثر عن عمر بن الخطاب أنه قال : من ولدي رجل بوجهه شجة يملأ الأرض عدلا . ولقد اشتهر عمر بن عبد العزيز بالعدل حتى قيل : الأشج والناقص عدلا بنى مروان . أما الناقص فهو يزيد بن الوليد بن عبد الملك ، لأنه نقص من أعطيات الحجاز ما كان قد زادهم الوليد بن يزيد بن عبد الملك .

ولما بويع عمر بن عبد العزيز بالخلافة وقرئ كتاب العهد باسمه قال : والله إن هذا الأمر ما سألته الله قط . ولما قدم إليه مركب الخليفة ، أبي وقال : اتتوني ببغلتك فلما جاء أصحاب المراكب يسألونه العلوقة ورزق خدمتها قال : أبعث بها إلى أمصار الشام . يبيعونها فيمن يريدون ، وأجعل أثمانها في مال الله : تكفيني ببغلتك هذه الشهباء .

ولما فرغ عمر بن عبد العزيز من تشييع جنازة سليمان وعاد إلى داره قال له مولاه :

مالي أراك مغتما؟ قال: لمثل ما أنا فيه فليغتم، ليس أحد من الأمة إلا وأنا أريد أن أصل إليه حقه، غير كاتب إلى فيه ولا طالب مني. ثم صعد المنبر وقال: وأيها الناس! إنه لا كتاب بعد القرآن، ولا نبي بعد محمد عليه الصلاة والسلام. ألا وإني لست بقاض ولكني منفذ، وليس بمبتدع ولكني متبع، ولست بخير من أحدكم ولكني أثقلكم حملا. وإن الرجل الهارب من الإمام الظالم، ليس بظالم. ألا لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

بذلك كان عمر بن عبد العزيز أشبه الناس بجده عمر بن الخطاب في زهده وتقشفه وإيمانه بالله وتمسكه بكتابه وسنة رسوله.

ولقد أدخل عمر كثير أمن الإصلاحات كانت في الواقع في مصلحة الإسلام أكثر منها في مصلحة بيت المال. فقد رفع الجزية عن أسلم من أهل الذمة. وكان من أثر هذه السياسة أن زاد إقبال الناس على الإسلام، على حين نقص إيراد بيت المال نقصا محسوسا. ورأى بعض ولاته عندما نقصت جزية الروم من أثر ازدياد دخول الناس في الإسلام أن يرفع الجزية عن أسلم، فأبى عمر أن يجيب هؤلاء الولاة إلى ما طلبوه، مدفوعا في ذلك بشدة إيمانه وحرصه على إعلاء كلمة الدين. يدل على ذلك رده على كتاب واليه على مصر، وقد شكوا إليه أن الإسلام أضرب بالجزية، واستأذنه في أن يفرضا على من أسلم، فكتب إليه عمر كتابه الخالد الذي يقول فيه: «فضع الجزية عن أسلم، قبح الله رأيك! فان الله إنما بعث محمدا صلى الله عليه وسلم هاديا، ولم يبعثه جاييا، ولعمري لعمري أشقى من أن يدخل الناس كلهم في الإسلام على يديه».

ولا غرو فقد قام عمر بحركة ملؤها الحماسة في نشر الدعوة الإسلامية، وقدم لأهالي البلاد التي فتحها العرب كل لون من ألوان الاغراء لقبول الإسلام، حتى إنه كان يمنحهم هبات من المال. وقد قيل إنه أعطى في إحدى المناسبات قائدا نصرانيا ألف دينار تألفه بها على الإسلام، كما أمر عمال الولايات بدعوة الذميين إلى الإسلام. كما قيل إن الجراح بن عبد الله عامله على خراسان، أدخل في الإسلام

نحواً من أربعة آلاف شخص . وكذلك أثر عن عمر أنه كتب الى ليو الثالث ملك الروم يدعوهُ الى الدخول في الاسلام .

بل لقد كان من دعوة عمر بن عبد العزيز الناس الى الاسلام أن دخل في هذا الدين خلق كثير من بلاد ما وراء النهر ، كما استجاب كثير من امراء السند لدعوته . وقد كانت بلغتهم سيرته ومذهبه ، فأسلم حليشة بن داهر والملوك وتسموا بأسماء العرب . وأرسل عمر مع اسماعيل بن عبدالله حين ولاه بلاد المغرب ، عشرة من الفقهاء ليفقهوا مسلمي البربر في أمور دينهم . وقد أظهر هذا الوالي الجديد نشاطاً ملحوظاً في دعوة البربر الى قبول الاسلام ، فلم يبق واحد منهم لم يدخل في هذا الدين . وقد باع من تسامح عمر ورعايته لأهل الذمة ، وما ذاع عن زهده وورعه وتقشفه ، أن أحد كتاب النساطرة كان يضيف كلمات التبجيل والتقدير الى اسم الرسول صلى الله عليه وسلم ، والى اسماء الخلفاء الأولين كلما عرض لذكورهم ، ويستنزل رحمة الله على عمر بن عبد العزيز .

كان عمر شخصية محببة الى النفوس ، وكان من سياسته أن ينجح الى المسالمة ، ويرى انها كفيلة بحل المشكلات وجمع الشمل وتوحيد الكلمة . ولما خرج الخوارج لم يشأ أن يسلك معهم سبيل العنف والشدة كما فعل عمه عبدالملك بن مروان من قبل ، بل أبت عليه أخلاقه الكريمة وحيه للسلم ، الا أن يقارعهم بالحجة ، فأرسل الى زعيمهم « شوذب » كتاباً يقول فيه : « بلغني أنك خرجت غضباً لله ونبية ، ولست أولى مني بذلك . فهل انظرك ، فان كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل فيه الناس ، وان كان في يدك نظرنا في أمرنا . فكتب اليه شوذب يقول : قد أنصفت ، وقد أرسات اليك رجائين يدارسالك وينظرانك . ولما جاءه الرسولان ناظرهما واقنعهما ، ثم طلبا اليه العودة لاستشارة زعيمهما . ولكن المنية لم تلبث أن عاجلت عمر ، فلم يجن ثمرة ما زرع .

ولقد كان عمر غاية في التواضع ولين الجانب والزهد ، حتى إنه لم يكن للشعراء نصيب في بلاطه الذي امتلأ بأهل التقوى والورع . وقد صرف عمال من كان

قبله من بني أمية ، « واستعمل أصلح من قدر عليه ، فسلك عماله طريقته ، وترك
لعن على عليه السلام على المنابر ، وكان بنو أمية يسبونهم . ولا غرو فقد سار عمر
سيرة أبيه عبد العزيز في مصر الذي أثر عنه أنه كان « إذا وصل إلى ذكر أمير
المؤمنين على رضى الله عنه ، تتعتع . فلما قال له (ابنه) عمر : لم فعلت ذلك ؟ قال
يا بني ! اعلم أن العوام لو عرفوا من على بن أبي طالب ما نعرفه نحن لتفرقوا عنا
إلى ولده . فلما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة ، قطع السب ، وجعل مكانه قوله
تعالى : إن الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء
والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون . »

وقد بلغ من زهد عمر أنه كان يؤثر المصلحة العامة على مصلحته الخاصة .
روى أنه قال لامرأته فاطمة بنت عبد الملك ، وكان عندها جوهر أمر لها به
أبوها ، لم ير مثله : اختارى : إما أن تردى حليك إلى بيت المال وإما أن
تأذنى لى فى فراقك ، فانى أكره أن أكون أنا وأنت وهو فى بيت واحد فقالت :
لا ، بل أختارك عليه وعلى أضعافه ، فحمل حتى وضع فى بيت مال المسلمين .
فلما مات عمر واستخلف يزيد ، قال لأخته فاطمة : إن شئت رددته عليك ،
قالت : لا ، والله لا أطيب به نفسا فى حياته وأرجع فيه بعد موته .

وكان يشتري لعمر بن عبد العزيز قبل خلافته الحلة بألف دينار ، فاذا لبسها
استخسنها ولم يستحسنها ؛ فلما أتته الخلافة ، كان يشتري له قميص بعشرة
دراهم ، فاذا لبسه استلانه .

كان عهد عمر بن عبد العزيز برغم قصره من أروع عهود الخلفاء ، حتى إن بعض
المؤرخين عدده متمم العهد الراشدين ، بل لعهد أبي بكر وعمر ، فقالوا : الخلفاء ثلاثة :
أبو بكر ، وعمر بن الخطاب ، وعمر بن عبد العزيز . ولو أن أيامه التى لم تزد على سنتين وخمسة
أشهر قد طالت ، لفتح صفحة مجيدة فى تاريخ الإسلام والدولة الأموية . ولقد مات ذلك
الخليفة فى شهر رجب سنة ١٠١ هـ . ولا عجب إذا نبشت قبور الخلفاء الأمويين بعد
قيام الدولة العباسية إلا قبر عمر بن عبد العزيز ، الذى ظل معظمها يغشاه كثير من الناس .

٣١ - عبد الرحمن الداخل

صقر قريش

من الناس من ييسم له الدهر فيجد الحياة سهلة هينة ، ومنهم من تتجهم له الحوادث بعد حياة حافلة بالترف والنعيم ، فيعجم الدهر عوده ويكشف عن مواهبه . من هؤلاء عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك الأموي ، الذي زال ملك آبائه وأجداده وأحرق به الموت وكاد يقع فريسة في أيدي العباسيين ، فقام على وجهه ، واستطاع وحده أن يؤسس ملكا ، ويؤسس دولة أصبحت حضارتها منبعا لحضارة أوربا الحديثة ، وكتب في التاريخ صفحة ناصعة مجيدة خلدت اسمه ورفعته الى مصاف الأبطال والمصلحين .

فبعد الرحمن سليل ذلك البيت الأموي الذي تربع على عرش الخلافة زهاء تسعين سنة ، امتدت فيها رقعة الدولة الأموية من أسوار الصين شرقا الى أعمدة هرقل وجبال البرانس غربا . ولكن هذه الدولة الزاهية الزاهرة لم تلبث أن أحرقتها الخطوب ، وأشرفت على الفناء ، ولا سيما في عهد هشام بن عبد الملك جد صاحبنا عبد الرحمن . فاشتعلت نيران العصية بين القبائل العربية من مضرين ويمانيين ، وتفاقم خطر العباسيين ، وشق الخوارج عصا الطاعة في اليمن وحضرموت ، وساعدت الاضطرابات التي انتشرت في خراسان أبا مسلم الخراساني على الاستيلاء على هذه البلاد . وفي سنة ١٣٢ هـ رفر ف العلم الأسود شعار العباسيين فوق حصون دمشق ، وزالت الدولة الاموية في بحر من الدماء ، وقامت على أنقاضها الدولة العباسية على يد أبي العباس السفاح .

في هذا الجو المضطرب المليء بالحن والمفاجئات ، نرى البقية الباقية من بني أمية لا يأمنون على حياتهم ، بل ينتظرون ما ينته لهم القدر على ايدي هؤلاء الذين عولوا على القضاء عليهم . وكان هؤلاء التعساء الذين تنكر لهم الدهر لا يعرفون متى يحل

بهم القضاء المحتوم. يسمي أحدهم فلا يعرف هل يطلع عليه النهار، ويصبح فلا يدري هل يمسى عليه المساء، لان العيون قد أهدقت به، ورايات العباسيين كانت تطارده أينما حل. وكان طبعيا في مثل هذه الاحوال أن يعين عبد الرحمن في التفكير في مصيره ومصير عياله. ولم يكن أمامه الا إحدى خصلتين اثنتين: إما أن يقع في أيدي العباسيين فيحل به ما حل بغيره من ذوى قرباه وأنصارهم، وإما أن يجد لنفسه مخرجا من ذلك الحصار الذي ضرب عليه، وينجو بنفسه الى حيث يلمس الأمن والسلامة. ويصور لنا عبدالرحمن نفسه كيف كان العباسيون يطاردون الامويين، وكيف نجاب نفسه وقطع الفيافي واجتاز المفاوز، وتعرض للاخطار فيقول: «لما أعطينا الأمان ثم نكث بنا على نهر أبي فطرس، وأبيحت دماؤنا، أنانا الخبر. وكنت منتبذا من الناس، فرجعت الى منزلي آيسا، ونظرت فيما يصلحني وأهلي وخرجت خائفا، حتى صرت على قرية على الفرات ذات شجر وغياض: فبينما أنا ذات يوم بها وولدي سليمان يلعب بين يدي وهو يومئذ ابن اربع سنين، فخرج عني، ثم دخل الصبي من باب البيت با كيا فزعا، وجعلت أدفعه وهو يتعلق بي. فخرجت لأنظر، إذا بالخوف قد نزل بالقرية، وإذا بالرايات السود منحطة عليها، وأخ لي حديث السن يقول لي: النجاة النجاة فهذه رايات المسودة. فاخذت دنائير معي ونجوت وأخى، وأعلمت اخواتي بمتوجهي، فأمرتهن أن يلحقني مولاي بدرا. واحاطت الخيل بالقرية فلم يحدوا لي أثرا، فأتيت رجلا من معارفي، وأمرته فاشتري لي دواب وما يصلحني. فدل على عبد الله العامل، فاقبل في خيل له يطلبني، فخرجنا على ارجلنا هرايا والخيل تبصرنا، فدخلنا في بساتين على الفرات، فسبقنا الخيل على الفرات فسبحنا. فاما أنا فنجوت والخيل ينادوننا بالأمان ولا أرجع. وأما أخى فانه عجز عن السباحة في نصف الفرات، فرجع اليهم بالإمان وأخذوه فقتلوه وأنا أنظر اليه، وهو ابن ثلاث عشرة سنة. فاحتملت فيه ثكلا ومضيت لوجهي، فتواريت في غيضة أشبه حتى انقطع الطلب عني، وخرجت فقصدت المغرب حتى بلغت إفريقية.»

كان عبد الرحمن شاباً لم يجاوز الحادية والعشرين ، ولكنه كان يتحلى الى سداد الرأي بامتداد القامة والوسامة والقوة والشجاعة . ولولا هذه الصفات لخارت قواه ووقع فريسة في أيدي العباسيين .

على أن الخطر لم يزل يلاحق عبد الرحمن حتى ألقى عصا التسيار في إفريقية . ولم يكن معه غير غلامه بدر الذي قاسمه مر العيش والتعرض للاخطار . وجد عبد الرحمن بن حبيب الفهرى عامل هذه البلاد من قبل العباسيين في طلب عبد الرحمن الأموي ، فهرب الى مكناسة إحدى قبائل البربر ، فلم يطب له المقام بينهم ، ولقى منهم كثيراً من الشدائد ، فتسلل الى زناتة فأحسنوا اليه ، وقيل انه قصد نفاوة من برابرة طرابلس ، فأووه وأكرموه وأمنوه . ولكن جند العباسيين لم يدعوا له فرصة لتحقيق أهدافه والفوز بامارة إفريقية . لذلك اتجه ببصره صوب بلاد الاندلس وكانت قد مزقتها الانقسامات والقحط ، ووجد من عالي همته ونسبه الأموي ما يكفل له النصر والظفر .

بعث عبد الرحمن الى زعماء الامويين بالاندلس الكتب مع مولاه بدر يدعوهم فيها الى نفسه ويمنيهم الاماني الطيبة ، ورأى بدر من هؤلاء الزعماء رغبة ملححة في استقبال ذلك الأمير الشاب وتأيينه . ثم عاد بدر الى افريقية وقد اطمأن الى ولاء القبائل العربية واليمنيين منهم بوجه خاص .

وكان عبد الرحمن اذ ذاك يبتهل الى الله أن يكتب له التوفيق والسداد . وبينما هو مغرق في صلواته وتأملاته لاح شراع السفينة القادمة من الاندلس تحمل مولاه بدر ابصحة أبي غالب تمام موفدا اليه من قبل عرب الاندلس . وتهلل عبد الرحمن بشرا حين لقي مولاه بدرا وصاحبه غالبا ، وصاح قائلا : تم أمرنا وغلبنا بحول الله وقوته . ولا عجب في ذلك ، فقد كان عبد الرحمن — كغيره من الامويين — يؤمن بالفال والطيرة .

ركب عبد الرحمن السفينة ، وذاع نبأ دخوله الاندلس ، فخفت القبائل اليمينية الى لقاءه ، وأعلنت ولاءها له ، واشتد ساعده بكثرة أنصاره ، وأخذ يدبر أمره

ويجمع جنده ويستعد للنضال في وجه مناوئيه من الزعماء الذين تخلفوا عن نصرته . وساعده على ذلك حلول موسم الأمطار واستحالة القتال في فصل الشتاء . وما أن حل الربيع حتى كان عبد الرحمن قد أخذ لهذا الأمر الخضير عدته ، وأصبح بحيث يستطيع ملاقاته أعدائه . وسرعان ما استقبل بمظاهر الحماسة والترحيب في إشبيلية ، وتهايا للاغارة على قرطبة .

على أن يوسف بن عبد الرحمن الفهرى لم يقف مكتوف الايدي ، فسار لملاقاة عبد الرحمن وعمل على القضاء على جيوشه قبل أن يستفحل خطرهما . وتسابق الجيشان على ضفتي نهر الوادي الكبير . ولم يكد يوسف يجتاز النهر حتى انقضت عليه جيوش عبد الرحمن الذي شتت شمله ودخل قرطبة دخول الظافر المنتصر . وفي أقل من سنة استطاع أن يقضى على منافسيه ومناوئيه ، وأن يوحد بلاد الأندلس تحت رايته ، واتخذ قرطبة حاضرة لامارته . كما استطاع بما أوتيته من قوة الدهاء وصدق العزيمة وشدة البطش أن يتغلب على ما ادفه من صعاب ، وأن يقر الأمن والسلام في ربوع هذه البلاد .

بيد أن الأخطار التي واجهت عبد الرحمن لم تقتصر على بعض المسلمين في الأندلس ، بل تجاوزتها الى العباسيين من وراء البحر والفرنجية من وراء جبال البرانس . ذلك أن أبا جعفر المنصور لم يهدأ باله من ناحية عبد الرحمن ، فعمل على القضاء عليه ، وبعث الخليفة العباسي ابن المغيث اليحصبى من إفريقية ، فاجتاز البحر وأقام الدعوة للعباسيين ، وانضوى تحت لوائه المناوئون لحكم عبد الرحمن الذي سار الى إفريقية حيث أنزل بجند العباسيين هزيمة ساحقة ، وقتل منهم نحو سبعة آلاف . وقتل العلاء وأمر بعض التجار بحمل رأسه ورءوس جماعة من مشاهير أصحابه الى القيروان والقائما بالسوق سرا . ثم حمل بعضها الى مكة حيث كان الخليفة المنصور يؤدى فريضة الحج ، فهاله ما رأى من شدة وطأة ذلك الامير القرشى ، وإمعانه في التنكيل بالعباسيين والثأر لمن قتل من أهل بيته وأنصاره . ولا شك أن اقتطاع بلاد الأندلس الغنية من الدولة العباسية ، كان ضربة

شديدة لهذه الدولة . ولم يستطع أبو جعفر المنصور إعادة سلطان العباسيين أمام قوة شكيمة عبد الرحمن ، فعمل على استمالته وأرسل إليه الرسل . وكثيرا ما كان يظهر إعجاب به وبمقدرته وعزيمته ، التي جعلته وهو شريد طريد يستطيع أن يؤسس هذا الملك الواسع في تلك البلاد البعيدة . وذلك أن أبا جعفر المنصور قال لأصحابه : أخبروني عن صقر قریش من هو ؟ قالوا : أمير المؤمنين الذي راض الملك وسكن الزلازل وحسن الادواء وأباد الأعداء . قال ما صنعت شيئا ، قالوا : معاوية ، قال : ولا هذا ، قالوا : فعبد الملك بن مروان قال : ولا هذا ، قالوا : فمن يا أمير المؤمنين ؟ قال : عبد الرحمن بن معاوية الذي عبر البحر ، وقطع القفر ، ودخل بلدا أعجميا مفردا ، فصر الأمصار وجند الأجناد ، ودون الدواوين وأقام ملكا بعد انقطاعه بحسن تديره وشدة شكيمة . ان معاوية نهض بمركب حمله عليه عمر وعثمان وذلالصعبيه ، وعبد الملك بيعة تقوم لها عقدها ، وأمير المؤمنين بطلب غيره واجتماع شيعته ، وعبد الرحمن منفرد بنفسه ، وهؤيد برأيه ، مستصحب لعزمه . وكثيرا ما كان أبو جعفر المنصور يشيد بذكر عبد الرحمن الداخل ويعدله بنفسه ويقول : لا تعجبوا الامتداد أمرنا مع طول مراسه وقوة أسبابه؛ فالشأن في أمر قتي قریش الأحوذى الفذ في جميع شؤنه وعدمه لأهله ونسبه ، وتسليه عن جميع ذلك ببعده مرقى همته ومضاء عزيمته ، حتى قذف نفسه في لجج الممالك لا ابتناء مجده ؛ فاقترجم جزيرة شاسعة المحل ، نائية المطمع ، عصبية الجند ، ضرب بين جندها بخصوصيته ، وقمع بعضهم ببعض بقوة حيلته ، واستمال قلوب رعيتها بقضية سياسته ، حتى انقاد له عصيهم ، وذل له أبيهم ، فاستولى فيها على أريكته ، ملكا على قطيعته ، قاهرا لاعدائه ، حاميا لذماره ، مانعا لحوزته ، خالطا الرغبة اليه بالرغبة منه ، ان ذلك هو الفتي كل الفتي لا يكذب مادحه .

وقف هذان الأميران العربيان أحدهما للآخر برغم ما في ذلك من إضعاف شأن المسلمين . وكان المنصور كفوفا لمنافسه ، فطرق باب (بينين) ملك الفرنجة رغبة في مساعدته على عبد الرحمن ، وارسل اليه سفراء أقاموا في بلاطه

عدة سنين ، ثم عادوا الى المنصور يصحبهم سفراء من الفرنجة ، ثم عاد هؤلاء الى ملكهم محملين بهدايا الشرق النفيسة . ولم تؤد هذه المفاوضات الى شيء سوى ما أثارته في نفس عبد الرحمن من خوف هجوم الفرنجة على بلاده . وقد تحققت رغبة أبي جعفر المنصور في عهد شلمان ملك الفرنجة الذي أنفذ جيشا توغل في الأقاليم الشمالية من بلاد الأندلس حتى بلغ سرقسطة . ولكن هذا الجيش لم يلبث أن ارتد بعد أن عجز عن مواصلة تقدمه ، ومنى بخسائر فادحة في الرجال والمتاع ، لأن عبد الرحمن الداخل صقر قريش وقف له بالمرصاد . وقتل في هذه الموقعة « رولان » الذي خلدته الأنشودة المعروفة بالنشودة رولان ، وهي اول ملحمة في الادب الفرنسي في العصور الوسيطة .

وهكذا صار عبد الرحمن الداخل هذين العاهلين العظيمين : خليفة المسلمين ، وشارل العظيم ، فلم ينالا منه منالا أمام جيشه المنظم الذي كان يتألف من البربر المرتزقة ، فدانوا له بالولاء بما أغدقه عليهم من إعطيات وما أدره عليهم من هبات ولما ربحته أقدام عبد الرحمن ، ووطد دعائم الامارة الأموية . وأمن شر أعدائه في المشرق والمغرب ، اتخذ مدينة قرطبة حاضرة لإمارته ، وبني فيها القصر والمسجد الجامع . وقد قيل في تعليل اختيار عبد الرحمن قرطبة حاضرة لدولته : « ان ملوك بني أمية حين اتخذوها حاضرة ملكهم لعل بصيرة : الديار الكثيرة المنفسحة ، والشوارع المنسقة ، والباني والنهر الجاري ، والهواء المعتدل ، والخارج النضر ، والمحراث العظيم ، والشعراء (الأرض الكثيرة الشجر) الكافية ، والتوسط بين شرق الأندلس وغربها . » واتخذ هذا الأمير من قصر قرطبة القديم مقرا لإمارته ، ثم جملة وأنشأ فيه الرياض الفيحاء ، وأجرى من الجبال القريبة من هذه المدينة المياه العذبة في كل ساحة من ساحاته في قنوات الرصاص تؤديها منها الى المصانع صور مختلفة الاشكال من الذهب الابريز ، والفضة الخالصة ، والنحاس المموه الى البحيرات الهائلة والبركة البديعة والصحاري الغريبة في أحواض الرخام الرومية المنقوشة العجيبة . وألحقت بهذا القصر القصور الفخمة والبساتين النضرة : كالكمال والمجدد ،

والخائر ، والروضة ، والزاهر ، والمعشوق والمبارك والرسقيق ، وقصر السرور ،
والتاج ، والبديع . كما بنى عبد الرحمن بقرطبة كثيرا من القصور ، كقصر الرصافة
الذى جلب اليه شجر الرمان واستنبتته حتى أينع وأثمر . وقد قيل إن أخته أم
الإصبع كانت ترسل اليه شجر الرمان من الشام . ولا عجب فقد كان هذا الأمير
الأموي يحن الى مسقط رأسه حتى إنه زرع بقصر الرصافة نخلة لتشير في نفسه
ذكريات وطنه الاصلى . وقد تغنى بذلك فقال :

شيدت لنا بين الرصافة نخلة تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت : شيبهى فى التقرب والنوى وطول ابتعادى عن بنى وعن أهلى
نشأت بأرض أنت فيها غريبة فمثلك فى الإقصاء والمنتأى مثلى

وكان جامع قرطبة الذى بناه عبدالرحمن سنة ١٦٨ هـ آية من آيات الفن ، وقد
أنفق على بنائه ثمانين ألف دينار حصل عليها من غنائم القوط .
كان عبد الرحمن ينظر فى المظالم بنفسه وينصف الضعيف من القوى . فكان
إذا حل وقت الطعام دعا الى مائدته أصحابه ومن قصده من أصحاب الحاجات . وقد
حكم بلاد الاندلس ثلاثا وثلاثين سنة واربعة اشهر ، ومات سنة ١٧٢ هـ ، وعاصر
من الخلفاء العباسيين المنصور والمهدى والرشيد ، وأدرك الغرض الذى سعى
اليه وهو فى ميعه الصبا وريعان الشباب ، وأخضع العرب والبربر ، وعدل بين
الناس فاحبته الرعية ، وبعث ملك بنى أمية . وهذا أحسن ما وصفه به ابو حيان :
« كان عبدالرحمن راجح الحلم ، واسع العلم ، ثاقب الفهم ، كثير الحزم ، نافذ
العزم ، بريئا من العجز ، سريع النهضة ، متصل الحركة ، لا يخلد الى راحة ،
ولا يسكن الى دعة ، ولا يكل الأمور الى غيره ، ثم لا ينفرد فى ابراهيم برأيه ، شجاعا
مقداما ؛ بعيد الغرر شديد الحدة ، قليل الطمأنينة ، بليغامفوها ، شاعر أحسننا ، سمحا
سخيا ، طلق اللسان . وكان يلبس البياض ، ويعتم به ويؤثره . وكان قد أعطى هبة من وليه
وعدوه . وكان يحضر الجنائز ويصلى عليها ، ويصلى بالناس إذا كان حاضرا للجمع والأعياد .
ويخطب على المنبر ، ويعود المرضى ، ويكثر مباشرة الناس والمشى بينهم . »

٢ - فهرس الاعلام.

« ا »

أسيد بن حضير ١٠٧
 الأصبع بن عبد العزيز ٢٤٣
 الأفضل بن بدر الجمالي ٢٠٧
 أمامة زوجة علي ٧٣
 أبو أمامة بن سهل ٤٦
 أمية بن خلف الجمحي ١١
 أنس بن مالك ٥٦، ٤٦، ٣٤
 أم أيمن ٧٦، ٧٥
 أم الخير بنت الحريش البارقية ٢٣٩
 أم عاصم بنت عاصم بن عمر ٢٥٣، ٢٣٩
 أم الفضل زوج الرسول ١٩٠
 أبو أيوب الأنصاري ١٨٦، ١٠١
 ٢١٩

« ب »

أبو بكر الصديق ٩، ١٠، ١١، ١٢،
 ١٣، ١٤، ١٨، ١٩، ٢٩، ٣٠،
 ٣١، ٣٢، ٤٣، ٦٠، ٧٧، ٨٣
 أبو بكر بن علي بن أبي طالب ٧٣
 بحيرا ٩٥
 أم البنين بنت حزام ٧٣
 أم البنين بنت عثمان ٥٤

أبان بن عثمان ٢١٤، ٥٤، ٤٦
 أم أبان بنت عتبة ٣٩
 أم أبان بنت عثمان ٥٤
 ابراهيم الخليل (النبي) ٩٤، ٣٠
 ابراهيم بن سعد بن أبي وقاص ١٢٠
 أبو بكر الصديق ١٨٩، ١٩٣، ١٩٨،
 ٢٠٩، ٢١٧، ٢٥٧، ٢٥٨
 أبي بن كعب بن زيد ١٦٥، ٢٢
 أحمد بن حنبل ٢٠
 الأحنف بن قيس ٤٦، ٤٥
 الأرقم بن أبي الأرقم ٨٦، ٨١، ٢٧،
 ١٥٥

أروى بنت كريز ٤١
 أسامة بن زيد ٧٤، ٢٨، ٧٥، ٧٦،
 ٧٧، ٩١، ٩١
 ابن اسحق ١٠٣
 اسحق بن سعد بن عبادة ١٠٥
 أسماء بنت أبي بكر ٢٢١، ٢١٦، ١٢
 أسماء بنت عميس ٧٣، ٢٢
 الأسود بن أبي يزيد ٣٤
 الأسود بن يغوث ١٥٠
 أبو الأسود الدؤلي ٧١

١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ،
١٩٩ ، ٢١٣
أم الحسن بنت علي بن أبي طالب ٧٣
الحسين بن علي ٢٢ ، ٤٥ ، ٥٠ ،
٧١ ، ٧٣ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٩٢ ،
١١٣ ، ١٩٤ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ،
٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ،
٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢١٣ ، ٢١٩ ،
٢٢٠

حفصة بنت عمر ٣٨ ، ٤٦
الحكيم بن أبي الناص ٤٩
حكيم بن حزام ٧٤
أم حكيم بنت الحارث ٣٨
حمران مولى عثمان ٤٦

حمزة بن عبدالمطلب ٢٧ ، ٣٠ ، ٦٥
حنة بنت سفيان ١١٤
حميد بن ثور الهلالي ٥٠
حننة بنت جحش ١٤٩

« خ »

خالد بن عثمان ٥٤
خالد بن الوليد ٥٨ ، ٧٣ ، ٩٠ ، ١١٦ ،
١٢١
خالد بن يزيد ٢٢٦ ، ٢٣٨ ، ٢٤٣ ،
خديجة (زوجة الرسول) ١٠ ، ٥٦ ،
١٣٩ ، ١٩٧ ، ٢١٦ ،
خديجة (زوجة علي) ٧٣
أبو خزيمة بن ثابت ٢٢
خولة بنت جعفر الحنفية ٧٣

أم البنين بنت عينية ٥٤

البيضاء بنت عبدالمطلب (عمة الرسول) ٤١

« ج »

الجراح بن عبدالله ٢٥٦
جعدة بنت الأشعث ١٩٦
جعفر بن علي ٧٣
أبو جعفر المنصور ٢٦٣
أم جعفر (زوجة علي) ٧٣
جمانة (زوجة علي) ٧٣
جميلة (زوجة عمر) ٣٨
جوليان ٢٤٧ ، ٢٥١
جوهر الصقلي ١٣٢

« ح »

الحارث بن الحكم ٤٩
حميدة بنت خارجة ٢٣
حميدة بنت أبي سفيان ٢٠٩
الحجاج بن يوسف الثقفي ١٨٠ ، ٢٢١ ،
٢٢٧ ، ٢٢٢ ، ٢٣٣
ابن حجر العسقلاني ٩ ، ١٣ ،
أبو حذيفة بن المغيرة ٨٦
حذيفة بن اليمان ٤٦
الحر بن يزيد التيمي ٢٠١
حسان بن ثابت ٥٠ ، ٦٢ ، ١٤٤ ،
١٨٨
الحسن بن علي ٤٥ ، ٥٠ ، ٧١ ،
٧٢ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ،

زيد بن أرقم ٢٠٢

زيد بن ثابت ١٦٥، ٢٢

زيد بن حارثة ٧٤

زيد بن عمر بن الخطاب ٣٨

زينب بنت جحش ٧٥

زينب بنت الرسول ٧٣

زينب الصغرى (زوجة على) ٧٣

زينب بنت عمر بن الخطاب ٣٨

زينب بنت فاطمة ٢٠٢

زينب بنت مظعون بن حبيب (زوجة عمر)

٣٨

« س »

سعد بن أبي وقاص ٤٣، ٤٨، ٦٢

٨٤

سعد بن عبادة الأنصاري ١٤، ٩٥، ١٠٠

١٠١، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٦

سعد بن عبيد بن النعمان ٢٢

سعد بن معاذ ١٠٢، ١٠٧

أبوسعيد الخدرى ٦٢

سعيد بن زيد بن عمرو ٢٦

سعيد بن سعد بن عبادة ١٠٥

سعيد بن العاص ١٩٣، ١٩٩

سعيد بن عثمان ٤٦، ٥٤، ٢١٣

أم سعيد بنت عثمان ٥٤

أم سعيد بنت عروة بن مسعود ٧٣

« د »

داهر ملك السند ٢٣٤

أبو الدرداء عويمر بن زيد ٢٢

« ذ »

أبو ذر الغفارى ٤٩، ١٦٧، ١٦٨،

١٦٩، ١٧٠، ١٧١، ١٧٢، ١٧٣

« ر »

ربيعة الأسلمى ٢٠

رحلة الكبرى بنت على ٧٣

رقية بنت أبي أمية ١٤٩

رقية بنت الرسول ٢٨، ٤١، ٤٢،

٥٠، ٧٦

رقية بنت عثمان ٥٤

رقية بنت على بن أبي طالب ٧٣

رقية بنت عمر بن الخطاب ٣٨

رملة بنت شيبه ٥٤

أم رومان بنت عامر ٢٢

« ز »

الزبير بن عبدالمطلب ١٢٩

الزبير بن العوام ١١، ٤٣، ٤٥، ٦٢،

٦٣، ٧٤، ١٣١، ١٣٩، ١٩١،

١٩٣، ٢١١، ٢١٦، ٢١٨،

زياد بن أبيه ٢٠٢

« ط »

طارق بن شهاب ٤٦
 طارق بن زياد ٢٣٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٧ ،
 ٢٤٨ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٢
 الطبرى ٣٠
 طريف بن مالك ٢٤٧
 أبو طلحة الأنصارى ٤٤
 طلحة بن عبيدالله ١١ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٦٢ ،
 ٦٣ ، ١٤٥
 طليحة بن خويلد (مدعى النبوة) ١٢٥

« ع »

عائشة بنت أبي بكر ١٣ ، ١٩ ، ٢١ ،
 ٣٨ ، ٣٩ ، ٥٠ ، ٦٣ ، ٧٥ ، ١٤٨ ،
 ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٩٦ ، ٢١٦ ، ٢١٨ ،
 ٢٢٤

عائشة بنت سعد بن أبي وقاص ١٢٠
 عائشة بنت عثمان ٥٤
 عاتكة بنت زيد بن عمرو ٣٨
 عاصم بن عمر ٣٨
 عامر بن سعد بن أبي وقاص ١٢٠
 عامر بن فهيرة ٨٧
 عبادة بن الصامت ١٤١
 العباس بن عبد المطلب ٣٠ ، ٥٥ ، ٥٦ ،
 ٥٩

العباس بن علي بن أبي طالب ٧٣

سعيد بن المسيب ٤٦ ، ١١٣ ، ١٢٠ ،
 سليمان الفارسي ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ،
 أم سلمة (زوجة الرسول) ٨٨
 أم سلمة (زوجة علي) ٧٣
 سلمة بن سلامة بن وقش ١٤٠
 سلمى بنت صخر بن عامر ٩
 سليمان بن أبان الأنصارى ٢٤٤
 سليمان بن عبد الملك ٢٣٥ ، ٢٤٣ ، ٢٥٤ ،
 ٢٥٥

سليمان بن كثير الخزاعي الشاعر ٢٠٤
 سمية (زوجة ياسر) ٨٦ ، ٨٧
 سنان بن مالك ٨٠
 سهل بن حنيف ١٤٧
 سهيل بن بيضاء ٣٠
 السيوطي (جلال الدين) ٢٠

« ش »

شرحبيل بن حسنة ١٢٥
 شريمان ٢٦٤

« ص »

صهية بنت عبد المطلب ١٣٩ ، ٢٢٣ ،
 الصهباء أم حبيب (زوجة علي) ٧٣
 صهيب بن سنان ٨٠ ، ٨٦ ، ٨٧

« ض »

ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب ١٥٢

٢٢٠ ، ٢١٨ ، ٢١٧ ، ٢١٦ ، ٢١٤

٢٢٦ ، ٢٢٥ ، ٢٢٣ ، ٢٢٢ ، ٢٢١

٢٣٩ ، ٢٣٨

عبد الله بن سبأ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٦٣

عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، ٢١٧

عبد الله بن سعيد ، ٢٢٢

عبد الله بن سوار ، ٢١٣

عبد الله بن عباس ، ١٨١ ، ١٨٢ ،

١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ،

١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩١ ، ١٩٣ ، ٢٠٠ ،

٢١٤ ، ٢١٩

عبد الله الأصغر بن عثمان ، ٥٤

عبد الله الأكبر بن عثمان ، ٥٤

عبد الله بن علي بن أبي طالب ، ٧٣

عبد الله بن عمر بن الخطاب ، ٣٨ ، ٩١ ،

١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ،

١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨٦ ، ١٨٨ ، ٢٠١ ،

٢١٤ ، ٢١٩ ، ٢٢٩

عبيد الله بن علي بن أبي طالب ، ٧٣

عبيد الله بن عمر بن الخطاب ، ٣٨

عبيد الله بن مسعود ، ٢٨ ، ٩٠ ، ١٦١ ،

١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ،

عبيد الملك بن مروان ، ١٨٩ ، ٢٢١ ،

٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ،

٢٣١ ، ٢٤١ ، ٢٤٣ ، ٢٥٦ ، ٢٦٣ ،

عبيد الله بن زياد ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ،

٢٠٤

عتبة بن عثمان ، ٥٤

عبد الرحمن بن أبي بكر ، ١٨٦ ، ٢١٤ ،

٢١٩

عبد الرحمن بن جهم ، ٢٢٦ ، ٢٤٠ ،

عبد الرحمن بن حبيب ، ٢٦١

عبد الرحمن (الأصغر) بن عمر بن

الخطاب ، ٣٨

عبد الرحمن الأكبر بن عمر بن الخطاب

٣٨

أبو عبد الرحمن السلمي ، ٤٦

عبد الرحمن بن عوف ، ١١ ، ١٣ ، ٤٤ ،

٨٤ ، ١٠٤ ، ١٥٢ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ،

١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ،

عبد الرحمن بن ملجم ، ٧١ ، ١٣٤ ،

عبد الرحمن بن معاوية الأموي ، ٢٥٩ ،

٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ،

٢٦٥

عبد العزيز بن مروان ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ،

٢٢٨ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ،

٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ،

عبد الله (الأكبر) بن عثمان ، ٥٤

عبد الله بن أبي بكر الصديق ، ١٢

عبد الله بن الأحمر ، ٢٠٥

عبد الله بن جدعان ، ٨١

عبد الله بن جعفر : ١٨٦ ، ١٩٥ ، ٢١٤ ،

عبد الله بن رواحة ، ٣٠ ، ١١٠ ،

عبد الله بن الزبير ، ٥٠ ، ١٨٦ ، ١٩٩ ،

عمرو بن العاص ١٣ ، ٢٣ ، ٣٨ ، ٤٥ ،
٦٦ ، ٦٧ ، ١٨٥ ، ١٩٣ ، ٢٠٧ ،
٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٥ ، ٢٤١

عمرو بن عثمان ٥٤

أم عمرو بنت عثمان ٥٤

عمرو بن معد يكرب ١١٩

عمرو بن هشام ٢٦

عنبسة بن عثمان ٥٤

عيسى بن مريم ٣٠

« غ »

غيطشة ٢٥

« ف »

فاخنة بنت غزوان ٥٤

الفارعة بنت أبي سفیان ١٤٩

فاطمة (أم ولد لعلی بن أبي طالب) ٧٣

فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف

٥٥

فاطمة بنت الخطاب (أخت عمر) ٢٦

٨١

فاطمة بنت الرسول ١٦ ، ٥٥ ، ٥٧ ،

٦٠ ، ٧٣ ، ١٣٩ ، ١٩٠ ، ١٩١ ،

١٩٢ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢١٦ ،

فاطمة بنت عمر بن الخطاب ٣٨

فاطمة بنت الوليد ٥٤

عثمان بن عفان ١١ ، ٢٨ ، ٤١ ، ٦٢ ،

٧٦ ، ٧٩ ، ٩٩ ، ١٠٤ ، ١٨٥ ،

١٩٣ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠٩ ، ٢١١ ،

٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٣٨ ،

٢٤٣ ، ٢٦٣

عثمان بن علی بن أبي طالب ٧٣

أبو عزيز بن عمير ٣١

عقبة بن نافع ٢١٣

عقيل بن أبي طالب ٢٩ ، ٦٩

علقمه بن قيس ٤٦

علی بن أبي طالب ١٠ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٣ ،

٢٩ ، ٣٣ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٤ ، ١٨٦ ،

١٩٠ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٧ ، ١٩٩ ،

٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢١١ ، ٢١٨ ، ٢١٢ ،

٢٢٥

علی بن الحسين ٢٠٣

عمر بن الخطاب ١١ ، ١٤ ، ١٥ ، ٢٠ ،

٢٢ ، ٢٥ ، ٤٣ ، ٤٥ ، ٤٥ ، ٦١ ، ٧٧ ،

٧٨ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٩٠ ، ٩٠ ، ٩٩ ، ١٠٤ ،

١٤١ ، ١٨٧ ، ١٨٩ ، ١٩٢ ، ١٩٩ ،

٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٧ ، ٢٣١ ،

٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٦٣

عمر بن سعد بن أبي وقاص ١٢٠ ،

٢٠١ ، ٢٠٢

عمر بن عبد العزيز ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٥٣ ،

٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ،

عمر بن علی بن أبي طالب ٧٣

أم عمرو بنت جندب ٥٤

ليلي بنت مسعود ٧٣

« م »

مالك بن أوس ٤٦

مالك بن عوف ٥٩

مالك بن نويرة ١٢٥، ١٢٧

المثنى بن حارثة ١١٦، ١٢٥

محمد بن أبي بكر ٢٢، ٢٣، ٥٠، ٦٧

محمد بن أبي حذيفة ٤٩، ٥٠

محمد بن الحنفية ٤٩، ٧٣، ١٨٩

محمد بن مسلم ٢٣٤

محمد بن القاسم ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٣٥

محيبة بنت امرئ القيس بن عدى (زوجة

علي) ٧٣

المختار بن أبي عبيد الثقفي ٢٢٠

مروان بن الحكم ٤٩، ٥٠، ٦٣، ١٦٩

٢١٩، ٢٢١، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٣١

٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤١

مريم بنت عثمان بن عفان ٥٤

مسلم بن عقبة المري ٢٢٠، ٢٢٥

مسلم بن عقيل ٢٠٠، ٢٠١

مسلمة بن مخلد ١٦٢، ٢٣٨، ٢٣٩

المسور بن مخزوم ٤٤، ١٥٨، ٢١٤

مسيلة الكذاب ٩٠

مصعب بن سعد بن أبي وقاص ١٢٠

مصعب بن عمير ١٠٧

معاذ بن جبل بن أوس ٢٢

معاوية بن أبي سفيان ٦٢، ٦٤، ٦٧

فتيلة بنت عبد العزى (زوجه أبي بكر)

٢٢

فكيهة (زوجه عمر بن الخطاب) ٣٨

أبو فكيهة يسار (المولى) ٨١

« ق »

القاسم بن محمد ١٨٧

أبو قائد ٨٧

قتيبة بن مسلم الباهلي ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٤

٢٣٥

قسطنطين بن هرقل ٤٥

قيس بن سعد بن عبادة ٢١٤

قيصر ١٣

« ك »

أم الكرام (زوجة علي) ٧٣

أم كلثوم بنت أبي بكر ٣٨

أم كلثوم بنت جبرول ٣٨

أم كلثوم بنت الرسول ٥٤

أم كلثوم بنت علي ٣٤، ٣٥، ٣٨

« ل »

أبو لؤلؤة المجوسي غلام المغيرة (فيروز)

٣٩، ٨٣

لبينة جارية بنى مؤمن ١١، ٢٦

لذريق ٢٤٨، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٢

لهية (زوجة عمر بن الخطاب) ٣٨

ليلي بنت زياد بن الأصبع ٢٣٨

« ه »

أم هاني ٧٣
 هبيرة بن المشمرج السكلابي ٢٣٣
 هرقل ١٢٣، ٩٥
 أبو هريرة ١٣، ١٨٦، ٧٩
 هشام بن عبد الملك ٢٥٩
 هند بنت عتبة ٢٠٨

« و »

الوليد بن عبد الملك ٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٣
 ٢٣٤، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٤٣، ٢٤٧
 ٢٥٤، ٢٥٢
 الوليد بن عتبة ١٨٦، ١٩٩
 يزيد بن أبي سفيان ٢١٠
 يزيد بن معاوية ١٨٦، ١٩٦، ١٩٩
 ٢٠٠، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٦، ٢٠٧
 ٢٠٩، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢٢، ٢٢٥
 ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤١، ٢٤٣، ٢٥٤
 يوسف بن عبد الرحمن الفهري ٢٦٢

٧٠، ٧٩، ١٣٣، ١٧٧، ١٨٥
 ١٨٦، ١٩٤، ١٩٥، ١٩٦، ٢٠٨، ٢٠٩
 ٢١٠، ٢١١، ٢١٢، ٢١٣، ٢١٥، ٢١٨
 ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢٥، ٢٢٨، ٢٣٩

المغيرة بن شعبة ٦٢

المقداد بن الأسود ١٤١، ١٥٠

مليكة بن جرول الخزاعي ٣٨

المهلب بن أبي صفرة ٢١٣

موسى بن عمران ٣٠

موسى بن نصير ٢٣٢، ٢٣٤، ٢٣٥

٢٤٥، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٥١، ٢٥٢

أبو موسى الأشعري ١٨٥، ٢١٢

ميمون بن مهران ٣٣

ميمونة (زوجة علي) ٧٣

« ن »

نائلة بنت الفرافصة ٥٤

النجاشي ١٣، ١٢٩

النهان بن بشير الأنصاري ٢٠٠

النووي ٢١

٣ - فهرس البلدان

١٦٣، ١٤٦

٢٥١

برشلونة : ٢٥١

برقة : ٢١٣، ٣٣

البصرة : ١٨٥، ١٤٤، ٦٣، ٥٠، ٣٦

٢٢٧

بصرى : ٩٥

بلخ : ٢٣٢

بيت المقدس : ٢٣٧

«ت»

تبوك : ٩٠، ٥٩، ٤٣

تونس : ٢٤٥

«ج»

الجاية : ٢٣٨، ٢٢٦

جرجان : ١٩٣، ٤٥

الجزيرة : ٣٥

الجزيرة الخضراء : ٢٤٨

الجوزجان : ٤٥

جيحون : ٢٣٢

«ح»

الحبشة : ٨٨، ٤٢

«ا»

أسيا الصغرى : ٢٣١

أجنادين : ١٣٠

أحد : ١٤٦، ١٢٢، ٨٩، ٧٦

أذربيجان : ٤٦

أربونة : ٢٥١

أرمينية : ٢٢٨

أسبانيا : ٢٤٧، ٢٤٦، ٢٣٥، ٢٣٤

٢٥١، ٢٤٨

الإسكندرية : ٤٥

إفريقية : ٢٣٥، ٢٣٤، ٢٢٢، ٢١٧

٢٦٢، ٢٦١، ٢٤٦، ٢٤٥

الأنبار : ١٢٥

الأندلس : ٢٣٧، ٢٣٥، ٢٣٤، ٢٣٢

٢٦٤، ٢٦٣، ٢٦٢، ٢٥١، ٢٤٨

أيلة : ٢٤٠

إيلياء (القدس) : ٩٥

«ب»

بخارى : ٢٣٢، ٢١٣

بدر (البر) : ٧٥، ٤٣، ٢٩، ٢٨

سمرقند : ٢١٣ ، ٢٢٢ ، ٢٣٣

«ش»

الشام : ٣٣ ، ٣٥ ، ٦٤ ، ٩٠ ، ١٨٥ ،

١٩٤ ، ٢٠٧ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٣ ، ٢٢١ ،

٢٢٦ ، ٢٢٨ ، ٢٥٥

«ص»

الصفاء : ٢٧

صفين : ٦٤ ، ٩١ ، ١٨٥ ، ١٩٤ ، ١٩٩ ،

٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٨ ،

الصين : ٢٣١ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٤٦ ،

٢٥٩

«ط»

طبرستان : ٤٥ ، ١٨٤ ، ١٩٣ ، ١٩٩ ،

طخارستان : ٤٥

طرابلس : ٢٦١

طايطة : ٢٤٦

طنجة : ٢٣٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٧

«ع»

العراق : ١٩٤ ، ١٩٥ ، ٢٠٠ ، ٢٠٤ ،

٢٢١ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ،

العقبة : ١٠١ ، ٢٤٠ ،

عكاظ : ٧٤

عمان : ١٣٠

عمورية : ٩٤

عين شمس : ٢٤٠

الحجاز : ١٩٤ ، ١٩٥ ، ٢١٢ ، ٢١٧ ،

٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٥٤ ،

حضر موت : ٣٥٩

حلوان : ٢٥٣

الحراء النوصى : ٢٤١

الخيرية : ١٢٥

«خ»

خراسان : ٤٥ ، ١٩٤ ، ٢١٣ ، ٢٢٢ ،

٢٥٩ ، ٢٥٦

خوارزم : ٢٣٢

الخريبة : ٦٣

«د»

الدار البيضاء : ٢٤٠

دار الندوة : ١١

دمشق : ٧٩ ، ١٠٦ ، ١٨٦ ، ٢٠٧ ،

٢٠٨ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢٢٥ ،

٢٣٢ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٤٠ ،

٢٥٩

«ر»

رودس : ٢١٣

الروضة : ٢٢٩

رومة (بر)

«س»

سبته : ٣٤٥

سرقسطه : ٢٦٤

السند : ٢١٣ ، ٢٢٢ ، ٢٣٤ ،

ماوراء النهر : ٢٥٦ ، ٢٣٣ ، ٢٣٢ ، ٤٥

المدائن : ١٩٥

المدينة المنورة : ١٢٣ ، ٨٨ ، ٧٩

١٩٩ ، ١٩٧ ، ١٩٥ ، ١٩٣ ، ١٨٦

٢١٣ ، ٢١٢ ، ٢١١ ، ٢٠٦ ، ٢٠٠

٢٢٥ ، ٢٢٠ ، ٢١٩ ، ٢١٨ ، ٢١٧

٢٥٣ ، ٢٣٩ ، ٢٣٨ ، ٢٣٧ ، ٢٢٩ ، ٢٢٨

مرج راهط : ٢٣٩ ، ٢٣٨

مصر : ٢٠٦ ، ٧٠ ، ٦٧ ، ٣٦ ، ٣٣

٢٢٨ ، ٢٢٧ ، ٢٢٦ ، ٢٢١ ، ٢١٧

٢٤٠ ، ٢٣٩ ، ٢٣٨ ، ٢٣٦ ، ٢٣٤

٢٥٧ ، ٢٤٥ ، ٢٤٣ ، ٢٤٢ ، ٢٤١

المغرب : ٢٣٢ ، ٢٢٨ ، ٢٠٦ ، ١٣٠

٢٦٤ ، ٢٦١ ، ٢٥٦ ، ٢٥٢ ، ٢٤٥ ، ٢٣٤

مكة : ١٤٠ ، ١٢٢ ، ١٢١ ، ١١٤

٢٢٠ ، ٢٠٩ ، ٢٠٨ ، ٢٠٠ ، ١٩٩

٢٢٧ ، ٢٢٥ ، ٢٢٢ ، ٢٢١

مكناسة : ٢٦١

الملتان : ٢٣٤

المنبجة : ١٠٦

النهروان : ١٩٤

النوبة : ٢٣١

هرقلة : ٢٢٨

همدان : ٢٤٥

الهند : ٢٣٧ ، ٢٣٣

وادي لسكة : ٢٥١ ، ٢٥٠

الين : ١٩٤

« ف »

فارس : ٣٣

الفرات : ٢٦٢

فرنسا : ٢٣٥

القساط : ٢٤٠ ، ٢٣٩ ، ١٣١ ، ٦٧

٢٤٣ ، ٢٤٢ ، ٢٤١

فلسطين : ٣٣

« ق »

القاهرة : ٢٠٧

قبا : ٨٨

قرطبة : ٢٦٥ ، ٢٦٤ ، ٢٦٢

القسطنطينية : ٢١٨ ، ٢١٣ ، ١٨٦

٢٤٦ ، ٢٣٥ ، ٢٣٤ ، ٢١٩

القيروان : ٢٦٢ ، ٢١٣

قيسارية : ٢١٠

« ك »

كربلاء : ٢٠٥ ، ٢٠١ ، ١٨٧ ، ٧٣

٢٢٠ ، ٢٠٦

كرمينية : ٢٣٢

كش : ٢٣٢

الكناس (بالعراق) : ١٤٩

الكوفة : ٩٠ ، ٦٧ ، ٦٤ ، ٥٠ ، ٣٦

٢٠٠ ، ١٩٩ ، ١٩٥ ، ١٩٣ ، ١٨٦

٢١٣ ، ٢١٢ ، ٢٠٤ ، ٢٠٢ ، ٢٠١

٢٢٧ ، ٢٢٠ ، ٢١٥

« ل ، م »

لاهور : ٢١٣

٤ - فهرس القبائل والجماعات

القراء ٢١، ٢٢، ٣١، ٣٧، ٣٨،
٤٦، ٤٧، ٩٤

قريش ١١، ١٢، ١٨، ٢٥، ٤٣،
٨١، ٩٦، ١٠٤، ١٨٦، ١٩٣،
٢٠٨، ٢٥٩، ٢٦٣، ٢٦٤

بنو قريظة ٩٥، ١٠٣، ١٠٧، ١١٠،
١٤١

بنو الفيز ٧٤

بنو قينقاع ١١٢

بنو كلب ٨١، ٩٥

بنو كليب ٧٤

بنو محارب ٨٩

بنو مخزوم ٤٩، ٨٦، ٨٨

بنو معين ٧٤

المهاجرون ١٤، ١٥، ١٦، ١٧

بنو النجار ١٠٠

بنو النضير ١٠٧

بنو هاشم ٦٤

هوازن ٥٩

الأنصار ١٤، ١٦، ١٠٢، ١٠٤،
١١٠

أهل الصفة ١٠٢

الأوس ١٤، ٩٥، ١٠٠، ١٠١، ١٠٣،
١٠٤، ١٠٦

بنو تغلب ٧٣

بنو ثعلبة ٨٩

ثقيف ٥٩

الحنيفية ٩٤

الخزرج ١٤، ٩٥، ١٠٠، ١٠١،
١٠٣، ١٠٤، ١٠٥، ١٠٦

الزرادشتية ٩٣

آل ساسان ٢٣

شيعه على ٦٧

الصابئة ٩٣

بنو عبد الأشهل ٨٨

بنو عيس ٨٨

العثمانية (فرقة) ٦٧

بنو عدى ٢٥ - ٢٦

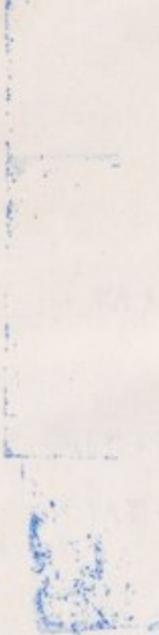
بنو غفار ٤٩

غطفان ١١٠، ١١١

ABC LIBRARY

12 MAY 1987





مکتبہ اسلامیہ دارالحدیث

کتاب: تاریخ اسلام

مؤلف: ابن کثیر

تقریباً ۱۰ جلدیں

تقریباً ۱۰ جلدیں

تقریباً ۱۰ جلدیں

ABC LIBRARY

main



DS 238 A1 H35 1953/c.1



LIBRARY



1953

1953

DS
238
A1
H35
1953

12 MAY 1987

